

١١/٥٨

٥٠

السكّان

في ضوء أساليب القرآن

تأليف
الدكتور عبد الفتاح لاشين
أستاذ بجامعة الأزهر

١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م

٣٩٣٥١٦٧

ملف رقم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة ٩١ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت ٢٧٥٢٩٨١ ، فاكس ٢٧٥٢٧٣٥



000132814

مكتبة مبارك العامة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، اللهم بك المعونة، ومنك الهداية، ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير.

ونصل ونسلم على رسولك الذي آتته الحكمة وفصل الخطاب، وعصمته من الزلل، وألممته الصواب، ومنحته فضيلة البيان، فكان من الحجة والبلاغة بمكان. وبعد.

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب «البيان - في ضوء أساليب القرآن» نقدمه تلبية لرغبة الدارسين للغة القرآن، والباحثين في بلاغته، نقدمه للقراء على الطريقة التي عرف بها، وعهدت فيه، والتي يحملها اسمه، مع زيادات وتعليقات، فيها مزيد من المعرفة، وكشف عن خصائص اللغة، وأسرار من بلاغة القرآن. والله أسأل أن يعصمنا من الخطأ، ويحبينا الزلل، وأن يجعل نفعه عميقاً، وأن يكون خالصاً لوجهه تعالى، «وبنا آتينا من لدنك رحمة وهي لنا من أمرنا رشداً».

القاهرة في شعبان ١٤٢٥ هـ - يوليو ١٩٨٥ م

المؤلف

٢٢٥،٤	عبد الفتاح لاشين.
ف ت ب ي	البيان في ضوء أساليب القرآن / تأليف عبد الفتاح لاشين. - القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٩٨.
	٢٩٤ ص: ٢٤ سم .
	ببليوجرافية: ص ٢٨٨ - ٢٩٣.
	تدمك : ٦ - ١١١٤ - ١٠ - ٩٧٧.
	١ - القرآن الكريم، بلاغة. ١ - العنوان.

رقم الإيداع	٩٨ / ٥٦٦٣
I. S. B. N الترقيم الدولي	977 - 10 - 1114 - 6

2 دورس للطباعة والنشر (مهندسة / هشام الشريف وشركاه)

١ شتر المدق - خلف رقم ١٨٩ ش بورسعيد - السيدة زينب ت - ٣٩٥٧٦١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد بلغ قومه من فصاحة القول حدًا لا يبارى، ونزل القرآن الكريم على الرسول - عليه السلام - بلسانهم، ومع ذلك فقد غملكهم المعجب، واستولت عليهم الدهشة، وغمكتهم الحيرة، لما لمسوا فيه من بيان، وأحسوا من بلاغة، وقد تحداهم الله - عز وجل - أن يأتوا حتى ولو بمثل سورة منه فمعجزوا، وكان هذا شاهدًا بينًا على وضوح عجزهم وثبوت إعجازه.

ومنذ نزل القرآن الكريم وإلى وقتنا هذا والباحثون لم يتفقوا على وجه معين خرج به القرآن عن طاقة البشر، وعدم اتفاقهم على ذلك هو دليل من دلائل إعجازه.

وقد ذكر العلماء من وجوه إعجازه: الإخبار بالمغيبات، والصرفه، والإعجاز العلمي، والإعجاز العددي، والإعجاز البلاغي.

وجل الباحثين على أن البلاغة هو الوجه الأصيل في إعجاز القرآن الكريم، إذ هو الوجه الذي يلازمه في كل سورة، بل في كل تركيب، ويمس بروعتها كل من يستمع إلى كلام الله، ويصفي إلى آياته.

وكان من توفيق الله أن كتبت منذ سنتين «المعانى» - في ضوء أساليب القرآن - وكان البحث مقصورًا على بلاغة التركيب في الجملة ومضاعفاتها، وسر بلاغتها، وموطن إعجازها وبخاصة آيات القرآن الكريم، وجاء البحث - بحمد الله - على غاية الكمال والتوفيق، وطبع أكثر من مرة.

واليوم تقدم «البيان» - في ضوء أساليب القرآن - مقتصرًا في البحث على أساليب

التشبيه، والاستعارة، والكناية، مبنيا موطن البلاغة وسر الإعجاز في التصوير البيان الذي زخر به القرآن الكريم.

وهدفنا أن تكون بلاغة القرآن قطوفها دائية، وثمارها جنية، لهذا توخينا أن نعرض مباحثها في غاية من السهولة والوضوح، فاقنيسنا نماذجها من تصوير القرآن الكريم موئل البلاغة وآية الإعجاز، ومن حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمأثور من جيد الشعر، نقدمها لنستخلص منها القواعد، ونبين ما في تصويرها من جلال وجمال، مرشدين إلى ما تنطوي عليه من بلاغة القول وفنون التعبير، آمليين من وراء ذلك أن يجد طلاب البحث نصوفاً عالية ورفيعة يترسون بها لشمو ملكاتهم، وترهف أذواقهم، وتقوى سلائقهم.

وإننا لنترجو أن يقبل طلاب البحث على علوم البلاغة التي ما وضعت إلا لفهم كتاب الله وبيان إعجازه ورد الشبه عنه، كما أنها زاد الشاعر والخطيب والكاتب والناقد، وهي الوسيلة التي لا بد منها لتذوق الجمال في ألوان القول وفنون التعبير.

كتب الله لنا التوفيق، وأهملنا طريق الصواب. فهو نعم المولى ونعم النصير. القاهرة في رمضان ١٣٩٧هـ، - أغسطس ١٩٧٧م.

المؤلف

تمهيد

لمحة عن تطور مصطلح «علم البيان»

يحسن أن نتبع كلمة «بيان» في أثناء سيرها في تاريخ البلاغة العربية، حتى نقف بها عند الدلالة الاصطلاحية، وضعها العلم الأخير على يد السكاكي (١٦٢٦هـ).

جاء في اللسان^(١) البيان: الفصاحة واللسن، وكلام بين: فصيح، والبيان: الإفصاح مع ذكاء، والبين من الرجال: السمع اللسان، الفصيح الظريف، العالي الكلام، القليل الرنج، وفلان أبين من فلان: أي أفصح منه لساناً وأوضح كلاماً، ورجل بين: فصيح. قال الشاعر:

قد يُنطق الشعرُ الغبيُّ ويلتئى على البينِ السفاكُ وهو خطيب^(٢)

فالبيان في معناه اللغوي لا يخرج عن الكشف والإيضاح، وعُلُو الكلام، وإظهار المقصود بأبلغ لفظ.

وفي القرآن الكريم ورد لفظ «بيان» ومشتقاته بهذا المعنى، قال تعالى: (الرحمن، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) (الرحمن ١ - ٤)، (هذا بَيَانٌ للناس) (آل عمران ١٣٨)، (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) (النحل ٨٩) (إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ) (النساء ١٩).

وفي الحديث الشريف ما رواه ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة». ومعناه: أن الرجل يكون عليه الحق وهو أقوم بحجته من خصمه فيقلب الحق بيانه إلى نفسه، لأن معنى السحر

(١) لسان العرب مادة بين.

(٢) يلتئى من اللأى وهو الإبطاء، السفاك كشداد: البليغ القادر على الكلام «قاسوس».

قلب الشيء في عين الإنسان، وليس بقلب الأعيان، ألا ترى أن البليغ يمدح إنساناً حتى يصرف قلوب السامعين إلى حبه، ثم يلتمه حتى يصرفها إلى بغضه^(١).

وظلت كلمة «بيان» يراد بها هذه المعاني العامة حتى في عُرْف الجاحظ «ت ٢٥٥ هـ» فقد قال عنه: «البيان» اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يقضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصله كأنما ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع^(٢).

وقد جعل الجاحظ البيان ودلالاته خمسة: اللفظ، والإشارة، والتعقد - وهو ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، ويقال له: حساب اليد، والخط، ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين، والنقطة - وهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيئة بغير اليد، وتقوم مقام الأصناف المتقدمة ولا تنقص عن تلك الدلالات، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وكل صامت وناطق، ولذلك قال الأول: «سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تحبك حواراً أجابتك اعتباراً»^(٣).

وهذه الصور الخمس هي البيان عند الجاحظ، وقد تابعه في هذا ابن وهب^(٤) إلا أنه جعلها أربعة، ولو نظرنا إلى هذه الدلالات الأربعة عند ابن وهب لوجدناها قريبة الصلة بما ذكره الجاحظ.

والرمانى «ت ٣٨٦ هـ» قال: «البيان، هو الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره في الإدراك، والبيان على أربعة أقسام: كلام، وحال، وإشارة، وعلامة.

والكلام على وجهين: كلام يظهر به تميز الشيء عن غيره فهو بيان، وكلام

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ج١/ ١٧٤.

(٢) البيان والتبيين ج١/ ٧٩.

(٣) البيان والتبيين ج١/ ٧٦.

(٤) الرمانى في وجوه البيان ٦٠ «قدد الش».

لا يظهر به تميز الشيء فليس ببيان، كالكلام المخلط، والمحال الذي لا يفهم به معنى، وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن من قِبَل أنه قد يكون على عَنٍ وفساد، كما يحكى عن باقر، وقد بلغ من عِيهِ أنه سئل عن ظبية كانت معه بكم اشتراها؟ فأراد أن يقول: بأحد عشر، فأخرج لسانه وفرج أصابعه، فأفلتت الظبية من يده، فهذا وإن كان قد أكد للإفهام، فهو أبعد الناس من حسن البيان، لأن الله قد مدح البيان، واعتد به، فقال: (الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان)^(١).

فالبيان عند الرمانى يلتقى بما روى عن الجاحظ وابن وهب، وكلامه فيه هوذ إلى وجوهه عند الجاحظ.

وابن رشي «ت ٤٦٣ هـ» نقل عن الرمانى ولكنه لم يقف عنده، وساق له تعريفاً فقال: «هو الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة، وإنما قيل ذلك لأنه قد يأتي التعقيد في الكلام الذي يدل ولا يستحق اسم بيان»^(٢) وفي الأمثلة التي ساقها بعد ذلك دليل على أنه كان قريباً مما قال به الأولون.

وعبد القاهر الجرجاني «ت ٤٧١ هـ» جعل الفصاحة، والبلاغة، والبراعة، والبيان، تدل على معنى واحد أو متقارب، وهو التعبير عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا، وتكلموا، وأخبروا السامعين عن مقاصدهم وأغراضهم وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم»^(٣).

فالبيان عند عبد القاهر لم يتغير عن ذي قبل، ولا زال المقصود منه معنى الكشف والإيضاح عما في النفس، والدلالة عليه.

وإذا كان هذا هو فهم عبد القاهر لهذا المصطلح في ذهنه وعند من عاصروه فلم يحاولوا الفصل بين الدراسات البلاغية وتقسيمها إلى علومها الثلاثة «المعاني والبيان

(١) التكتة في إعجاز القرآن ١٠٦.

(٢) المبدلة ج١/ ١٦٩.

(٣) الدلائل ٣٥.

والبدیع» فإن من الافتیات علی عبد القاهر ما وقع فیہ الناصر حیث کتب تحت «دلائل الإعجاز» وهو عنوان کتابه عبارة «فی علم المعانی»، وكتب تحت «أسرار البلاغة» وهو عنوان کتاب آخر له «فی علم البیان»، لأن «دلائل الإعجاز» فیہ من المباحث ما یدخل فی صمیم مباحث «علم البیان»، كما أن فی «أسرار البلاغة» من المباحث ما یدخل فی «علم البدیع».

وابن الأثیر «ت ٦٣٧ هـ» رأى فی «البیان» معنى واسعا یدل علی البلاغة کلها - فصاحة وبلاغة - فقال :

«موضوع علم البیان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبه یسأل عن أحوالها اللفظية والمعنوية، وهو النحوی یشارك فی أن النحوی ینظر فی دلالة الألفاظ علی المعانی من جهة الوضع اللفظی، وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البیان ینظر فی فضیلة تلك الدلالة، وهی دلالة خاصة، والمراد بها أن تكون علی هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو والإعراب».

وجعل من أدوات علم البیان ثمانية : معرفة علم العربية من النحو والتصريف، وما یحتاج إلیه من اللغة، ومن أمثال العرب وأيامهم، والاطلاع علی تألیفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة، ومعرفة علم العروض والقوافی لمن یرید الشعر^(١).

وهو بهذا لم یمخرج بالبیان عن من سبقوه.

وظل هذا المفهوم الواسع لكلمة «بیان» حتی ظهر فی خوازم السکاکی «ت ٦٢٦ هـ» فحجر ما كان واسعاً ووضع للبلاغة قواعد المنطقية، وقسمها إلی «المعانی والبیان»، وألحق بیها المحسنات» وجعل لكل قسم تعریفاً وخذاً.

وقد عرف البیان، فقال :

«وهو إیراد المعنی الواحد بطرق مختلفة، بالزیادة فی وضوح الدلالة علیه

والنقصان، لیحترز بالوقوف علی ذلك عن الخطأ فی مطابقة الكلام لتمام المراد منه^(٢).

فالسکاکی خصص «البیان» وجعله قسماً مستقلاً من علوم البلاغة، وأصبحت البلاغة العربية عنده قسمین :

١ - صنف یبحث فیہ عن هیئات والأحوال التي تطابق باللفظ جمیع مقتضیات الأحوال، وهو - علم المعانی -

٢ - صنف یبحث فیہ عن الدلالة علی اللازم اللفظی وملزومه، فقد ینطق باللفظ ولا یراد به منطوقه، بل یراد به لازمه، وإن كان مفرداً كقولك : أسد، فلا ترید حقيقة الأسد المنطوقة وإنما ترید شجاعته اللازمة وتسندھا إلی زید، وقد ترید باللفظ المركب الدلالة علی ملزومه، كما تقول : زید كثير الرماد، وترید ما لزم ذلك، وهو الجود وقری الضیف، لأن كثرة الرماد ناشئة عنها، فهي دالة علیها، وهذه کلها دلالة زائدة عن دلالة الألفاظ من المفرد والمركب وهذا هو - علم البیان -^(٣).

وقد جعل السکاکی «علم البیان» شعبة من «علم المعانی» لا تنفصل عنه إلا بزیادة اعتبار، لذلك جری منه مجرى المركب من المفرد، ولهذا أخره فی الحديث عن علم المعانی^(٤) وهذا تعلیل منطقی لجأ إلیه السکاکی فی التقسیم وجعل ذلك تكة لتأخیر «علم البیان» عن «علم المعانی» فی الحديث عنه.

وما أحسن قول عبد القاهر فی هذا لولجأ إلیه «إن فی الاستعارة ما لا یمکن بیانہ إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف علی حقیقته»^(٥).

وقد ألحق بیها قسماً آخر - المحسنات - وهو ما عرف بعد بـ «علم البدیع» :

وبذلك أصبحت كلمة «البیان» عنوان علم له أصول وقواعد یمکن بواسطتها

(١) مقتاح العلوم ٧٧.

(٢) البیان العربی ٢٥٠.

(٣) انظر مقتاح العلوم ٧٧.

(٤) الدلائل ٧٩.

(٥) المثل السائر ج ١/٣٩ - ٤٥.

إبراز المعنى بصور مختلفة بعضها أوضع من بعض، مع مطابقة كل منها لمقتضى الحال.

ومن جاء بعد السكاكي كان مردداً لكلامه، وما جاء بعد المفتاح من الكتب كان تلخيصاً أو شارحاً لتلخيصه.

وما تقدم نفهم أن «البيان» يتطلق على معنيين:

(أ) معنى أدب أوسع وأشمل، يشمل الإيضاح عن كل ما يختلج في النفس من المعاني، والأفكار والأحاسيس، والمشاعر، بأساليب لها حظها الممتاز من الدقة، والإصابة والوضوح، والجمال، وهو بهذا التعميم يجمع فنون البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع، وهذا المعنى هو المراد عند إطلاق لفظ «البيان».

(ب) معنى علمي ضيق: وهو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة... كما سبق^(١)

وما دنا بصدد معرفة الذي وضع مصطلح «علم البيان» لأبداً من التعرض لما ذكره الباحثون^(٢) من أن الزخشي أول من ميز بين مصطلح «علم المعاني» وعلم البيان» وأول من قسم البلاغة إلى «علم المعاني» وعلم البيان».

والحقيقة أن الزخشي «ت ٥٣٨ هـ» لم يؤثر عنه ذلك، وكل ما ورد عنه أنه ردّد في كشفه مصطلحي «علم المعاني» وعلم البيان»، يقول عند الحديث عن العلماء الذين يستطيعون تفسير القرآن: «لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يتقوض على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما «علم المعاني» وعلم البيان»^(٣).

ولكن كلامه في ذلك غير واضح، فقد كان يطلق على مباحث البلاغة جميعها «علم البيان»، فمثلاً: الاستئناف المعروف في باب «الفصل والوصل» من أبواب

«علم المعاني» يجري عند الزخشي تحت اسم «علم البيان»، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: (قِيلَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ) (يس ٣٦)، يقول الزخشي ما خرج هذا القول من علم البيان؟ ويجيب قائلا: «خرجه مخرج الاستئناف»^(٤).

وكذلك فعل في «الاختصاص» - وهو من أبواب «علم المعاني»، في معرض تفسيره لقوله تعالى: (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ) (الإسراء ١٠٠)، وبعد أن يشرح الآية من الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب، يقول: فأما ما يقتضيه «علم البيان» فهو أن «أنتم تملكون» فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشع المتبالغ^(٥).

واللف والنشر الذي يعد من «علم البديع» يتحدث عنه الزخشي باسم «علم البيان» في معرض تفسيره لآية الصيام (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان...) الآية (البقرة ١٨٥)، فيقول: «وإن هذا النوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدى إلى تبيينه إلا النقب المحدث من علم البيان»^(٦).

ويقول البهاء السبكي عن الزخشي، أنه كثيراً ما يقع كلامه في (الكشاف) تسمية علمي «البيان والبديع» بعلم البيان، وقد يسمى علوم البلاغة الثلاثة بعلم البديع استشهاده بقوله تعالى: (وأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) (البقرة ١٦)، إنه من الصنعة البديعة^(٧).

والزخشي وإن ذكر مصطلح «البديع» عند ذكر بعض ألوانه، كالجنانس - عند قوله تعالى: (وجنتك من سبأ نبأ يقين) (الشم ٢٢)، فيقول: إن هذا من جنس البديع الذي سباه المحدثون «البديع»، وهو من محاسن الكلام التي تتعلق باللفظ^(٨).

(١) الكشاف ج ١/٨

(٢) الكشاف ج ٢/٥٢٢

(٣) الكشاف ج ١/١٧١

(٤) هروس الأفراح ج ١/١٥١

(٥) الكشاف ج ٣/٢٨٤

(١) البيان العربي ٢٥٠

(٢) انظر في ذلك الزخشي ٢٠٢، البلاغة تطور وتاريخ ٢٢٢، خطوات التفسير البيان ٢٣٢، البلاغة نشأتها وتطورها ٣٢٩، الصور البديعية ج ١/٣٥٠

(٣) مقدمة تفسير الكشاف ص ٨

كما ذكر مصطلح «علم البيان» عند ذكر بعض ألوانه عند تفسيره لقوله تعالى :
(والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) (الزمر ٦٧) (١).

وعلى الرغم من ذلك فقد خلط بينها جميعاً، فبحوث «علم المعاني» أطلق عليها
«علم البيان» كما في الاختصاص والاستئناف - المعروف في «الفصل والوصل»،
«واللف والنشر» الذي يعد من «علم البديع» تحدث عنه باسم «البيان»، والصور
البيانية الخالصة وصفها بالصنعة البديعية - كما وضع ذلك في النصوص السابقة
المنقولة عن الزمخشري.

وإذا فذكر «علم البيان» و«علم المعاني» في «كشف» الزمخشري، لا يعدو أن
يكون مجرد تسمية أطلقها دون أن يضع حدًا لعلم البيان أو المعاني، ودون أن يفرق
من الناحية العلمية والتطبيقية بين مباحث علم البيان و«علم المعاني» على نحو ما فعل
السكاكي في المفتاح (٢).

وبعد هذا يجدر بنا أن نقول إن السكاكي هو أول من أطلق على الموضوعات
التي تبحث في الصورة الأدبية - التشبيه والمجاز والكناية - مصطلح «علم البيان»
كما سبق توضيحه.

سبب إقحام الدلالات في «علم البيان»

عندما جاء السكاكي وقسم البلاغة إلى المعاني، والبيان، والمحسنات، أدخل
الدلالات في موضوعات «علم البيان» وأقحمها فيه بدون داع، ورأى أن صاحب
«علم البيان» يحتاج إلى التعرض لأنواع دلالات الكلم، ولهذا جعل له مبحثاً
فقال :

(١) الكشف ج ١/ ١١٠.

(٢) انظر تفصيل ذلك في بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار ص ١١٨ للمؤلف ط دار الفكر العربي،
للمعاني ص ١٠٠ أساليب القرآن ص ٨٣ للمؤلف ط دار المعارف.

«لا شبهة في أن اللفظة متى كانت موضوعة لمفهوم أمكن أن تدل عليه من غير
زيادة ولا نقصان يحكم الوضع، وتسمى هذه دلالة المطابقة ودلالة وضعية، ومتى
كان لمفهومها ذلك - ولتسمه أصلياً - تعلق بمفهوم آخر داخلاً في مفهومها الأصلي
كالسقف - مثلاً - في مفهوم البيت، ويسمى هذا دلالة التضمن، ودلالة عقلية
أيضاً، أو خارجاً عنه كالحائط عن مفهوم السقف، وتسمى هذه دلالة الالتزام
ودلالة عقلية أيضاً (١)».

والدلالات التي تحدث عنها السكاكي في بحث البيان هي :

١ - دلالة المطابقة : وهي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له، كدلالة البيت على
مجموع الجدار والسقف.

٢ - دلالة التضمن : وهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له أو جزء مسماه مع
دخوله فيه، كدلالة البيت على الجدار أو السقف.

٣ - دلالة الالتزام : وهي دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه لازم له
كدلالة السقف على الجدار لأنه لازم له لا جزء منه.

وتسمى دلالة المطابقة عند البيانين وضعية، ودلالة التضمن والالتزام عقليتين.

وقد عبر الإمام عبد القاهر عن الدلالة الوضعية والعقلية بمباراة مختصرة، وهي
أن تقول : المعنى ومعنى المعنى، ونعني بالمعنى : المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي
نصل إليه بغير واسطة، ويعني المعنى : أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفرض بك
ذلك المعنى إلى معنى آخر (٢).

والمقصود بالدلالة في تعريف علم البيان : هي الدلالة العقلية.

وقد بنى السكاكي تقسيم علم البيان على هذه الدلالات فأخرج التشبيه منه،
لأن دلالاته وضعية، ولا يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، وأيد ذلك
بقوله : «إذا أردت تشبيه الحد بالورد في الحمرة - مثلاً - وقلت : حد يشبه الورد،

(١) المفتاح ١٥٦.

(٢) الدلائل ١٩٠.

امتنع أن يكون كلام مؤد لهذا المعنى بالدلالات الوضعية أكمل منه في الوضوح أو أنقص، فإنك إذا أقمت مقام كل كلمة منها ما يرادفها، فالسامع إن كان عالماً بكونها موضوعة لتلك المفهومات، كان فهمه منها كفهمة من تلك من غير تفاوت في الوضوح، وإلا لم يفهم شيئاً أصلاً، وإنما يمكن ذلك في الدلالات العقلية...^(١)

وعلى هذا فلا يمكن وجود الوضوح والخفاء في الدلالة الوضعية.

وأما الدلالة العقلية فهي التي يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه، ويأخذهم الدلالة العقلية وحدها أساساً للوضوح والخفاء انحصر علم البيان في باين أصليين وهما: المجاز والكناية، وخرج التشبيه لأن دلالة وضعية.

«وتعرضنا لمبحث الدلالات لا معنى اعتقادنا بغنائها فيما نحن بسبيله، ولكن لنصل إلى مقطع الحق، ورفع الضيم عن التشبيه الذي كادوا يقطعونه عن البيان، أو يزلونه منزلة الواو من عمرو، وهو عمدة هذا الفن وركنه الركين»^(٢).

مكانة التشبيه من علم البيان

على الرغم من أن السكاكي بنى تقسيم البيان على الدلالات وأخرج التشبيه منه لأن دلالة وضعية، والدلالة الوضعية لا يمكن أن يراد بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة.

ومع ذلك لم يستطع السكاكي أن يجعل بحث التشبيه في علم البيان، وأتى له ذلك؟ وهو يعلم أنه باب واسع كثير الاستعمال وله مزايا تورث الكلام حسناً وبهاء.

(١) الفتح ١٥٦

(٢) فن التشبيه ج ١/٢٧

لقد تكلف وتعسف في طريقة إدخاله في علم البيان، فقال:

«ثم المجاز - أعنى الاستعارة - من حيث إنها من فروع التشبيه، لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم إلى اللازم، بل لا بد فيها من تقدمه تشبيه شيء بذلك الملزوم في لازم له، تستدعي تقديم التعرض للتشبيه، فلا بد من أن نأخذ أصلاً ثالثاً ونقدمه، فهو الذي إذا مهت في ملكك زمام التدريب في فنون السحر البيان»^(١).

وبذلك أصبحت أصول البيان أربعة، أصلاً ذاتيان، وهما المجاز والكناية، وواحد وسيلة، وهو التشبيه، وواحد جزء من أصل، وهو الاستعارة^(٢).

وقل من علماء البلاغة من غرد على تقليد السكاكي، أو حاول تحطيم القيود التي فرضها على مقدمة علم البيان.

ومن هؤلاء: سعد الدين التفتازاني، فقد قال^(٣):

«فإن قلت: إذا كان ذكر التشبيه في علم البيان بسبب ابتناء الاستعارة عليه، فلم جعل مقصوداً برأسه دون أن يجعل مقدمة لمبحث الاستعارة؟

قلت: لأن لكثرة مباحثه وعموم فوائده ارتفع عن أن يجعل مقدمة لمبحث الاستعارة واستحق أن يجعل أصلاً برأسه، هذا هو الكلام في شرح مقدمة «علم البيان» على ما اخترعه السكاكي، وأنت خير بما فيه من الاضطراب، والأقرب أن يقال: علم البيان: علم يبحث عن التشبيه والمجاز والكناية، ثم يشتغل بتفصيل هذه المباحث من غير التفات إلى الأبحاث التي أوردها في صدر هذا الفن».

وقد علق الشريف على المطول - منكراً كلام السكاكي - فقال^(٤):

«ثم الحق أن التشبيه أصل برأسه من أصول هذا الفن، وفيه من النكت

(١) الفتح ١٥٧

(٢) فن التشبيه ج ١/٢٧

(٣) المطول ٣٠٩

(٤) حاشية الشريف على المطول ٣١٠

واللطائف البيانية ما لا يحصى، وله مراتب مختلفة في الوضوح والخفاء^(١) مع أن دلالة مطابقة.

ويقول الدسوقي في حاشيته^(٢): «ويمكن أن يقال: إنه - أي التشبيه - باب مستقل لذاته، لأن الاختلاف في وضوح الدلالة وخفائها موجود فيه، فهو من هذا الفن قصداً وإن توقف عليه بعض أبوابه، لأن توقف بعض الأبواب على بعض لا يوجب كون المتوقف عليه مقدمة للفن».

ونحن نقر هؤلاء على رأيهم، لأن التشبيه باب واسع في اللغة، وهو أكثر الفنون دورانا واستعمالاً في الأساليب العربية، وكان من أوائل الموضوعات التي بحثت واهتم بها النقاد والبلاغيون، فدار في كتبهم المختلفة، وألفت فيه كتب خاصة، يقول المبرد^(٣): «والتشبيه جار في كثير من الكلام - أعني كلام العرب - حتى لو قال قائل: إنه أكثر كلامهم لم يُبعد».

تعريف «علم البيان»

قد يجد الأديب في دلالة الألفاظ المجردة شيئاً من العموم وعدم الدقة، أو يجد أن ذلك اللفظ المجرد لا يستطيع أن يحمل ما في نفسه من شعور، فيفزع إلى فن التصوير في اللغة التي تقدم صوراً متعددة للتعبير عن المعنى الواحد، فيختار منها ما يراه ملائماً لما في نفسه كقبلاً ينقله إلى السامع على شكل برضاء، أو ينتقى منها صورة يتخذها قالباً يصب فيه ما في نفسه، وما يلفه من شعور.

فمثلاً - أديب يريد أن يصف قوماً بالشجاعة، فقد يجد من ضروب التشبيه، وأنواع الاستعارة، وصنوف الكناية، وسيلة تنهض بقياته.

(١) فمثلاً خالد كعالم في الجود، خالد كعالم، خالد حاتم، هذه تراكيب ثلاثة دالة على معنى الكرم بعضها أوضح من بعض في الدلالة عليه، فلو وضعها ما صرح فيه بوجه الشبه والأداة، وبلغ ما صرح فيه بأحدها، وأقلها وضوحاً ما لم يصرح فيه بواحد منها. «والأمثلة على الترتيب».

(٢) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ج ٢٩٠/٣.

(٣) الكامل ج ٢/٦٩، ٩٠.

فيرى في قول حسان بن ثابت يفتخر بيوم بدر - مثلاً لذلك - فيقول:

فلا قيناهم منا بجمع كأشد الغاب مُردانٍ وشيب

فقرن شجاعة القوم - المردان والشيب - بشجاعة الأسد في الغابات، وذلك عن طريق التشبيه ذي الأداة.

وقد يعمد إلى التشبيه ذي الطرفين فقط، كقول أوس بن حجر:

لإن أبا الصُّهبا في حومة الوغى إذا أُرورت الأبطال ليثٌ مجربٌ

وهذا يكون أؤكد لمعنى الشجاعة.

وقد يعدل إلى صورة التشبيه التمثيل، فيقول:

وتراه في ظلم الوغى فتخاله قمرا يكرُّ على الرجال بكوكب

فتكون الصورة في تلك المرة أبعد تأثيراً، وأدخل في باب البلاغة.

وقد يأتي في كلامه الدليل والبرهان على صدق دعواه - مستعملاً التشبيه الضمني، فيقول:

ضحوك إلى الأبطال وهو يرؤوهم ولل سيف حذ حين يسطو وروث

وقد يصير إلى لون من ألوان الاستعارة، فيزيد المعنى قوة، واللفظ إيجازاً، فيقول قول زهير بن أبي سلمى:

إذا فزعوا طاروا إلى مُستغيهم طوائٍ الرماح لا ضِعافٌ ولا عُزل

فقد صور شجاعة القوم وسرعتهم عند طلب النجدة بالطيران، عن طريق الاستعارة.

وقد يقصد إلى ما هو أشد إمعاناً في التخيل، فيقول قول الآخر:

إذا ما نرثى لأمة الحرب أزعزت حشاً الأرض، واستدتم الرماح الشوارع

قد صور الأرض في صورة إنسان ترتعد أحشائه خوفاً من ذلك الإنسان الشجاع عن طريق «الاستعارة المكنية».

وقد يصير إلى نوع آخر، كالاستعارة انتمثيلية، فيقول:

ومن يجعل الضرغام للصيد باره تصيده الضرغام فيها تصيداً^(١)

وقد يعرض المعنى في صورة من صور الكناية، فيقول قول عمرو بن كلثوم:

وشرب إن وزدنا الماء صفواً وشرب غيرنا - كذراً وطينا

أو في صورة من صور المجاز المرسل، كقول السموأل:

تسل على خد الظبية نفوساً وليست على غير الطاة تسيل

فهذه الأبيات كلها تدل على معنى واحد - وهو الشجاعة - وقد وجدنا فيها فنونا من القول، وأنواعاً من البيان، وصنوعاً من التصوير، فمن التشبيه، إلى «الاستعارة»، إلى الكناية، إلى المجاز المرسل، وكلها تتبارى في الحسن، وتتنافس في الجمال، وفي مراتب متفاوتة من الوضوح، فالتركييب كلها واضحة وحلية، لكن بعضها أوضح من بعض، وتتفاوت في شدة الوضوح وضعفه، نعم مقتضيات الأحوال، وطبقاً لاختلاف المقامات.

فكل صور التشبيه واضحة جداً - على الرغم من تفاوتها في درجة المبالغة - بنحطها لدهماء، وبفهمها عمق، أما صورة الاستعارة وكنية، فتدق وينصف، حتى لا يدركها إلا الخاصة، لذلك فمن البلاغة ألا ندلى بهذه الصور الساقطة، لأنهم أسرارها، وبحسب أن يعرف حن المحاط سحره بأسلوب يتمشى مع فهمه ويتوافق مع عقله.

(١) يقال مثلاً للتاجر احتار مشرفاً على متجره فغيبه واعتاله عالمي الحقيقى للجب، أن من اتخذ الأسد وسيلة للصيد فهو في جنة ما القرس، ولكن الخس لم يرد المعنى الحقيقى وإنما أراد المعنى المجازى، على سبيل الاستعارة.

فتأمل معاً، كم قدم لنا علم البيان من الصور للتعبير عن المعنى الواحد؟ ومن أجل ذلك عرف البياتيون علم البيان بقولهم:

علم يعرف به إيراد المعنى الواحد في صور مختلفة، متموتة في وضوح الدلالة، مع مطابقة كل منها لمقتضى الحال.

وعلى هذا فمنزلة «علم المعاني» من «علم البيان» منزلة المفرد من المركب لأن رعاية المطابقة لمقتضى الحال - وهي مرجع علم المعاني - معدودة في «علم البيان» مع زيادة شيء آخر، وهو إيراد المعنى الواحد بتركييب مختلفة^(١): وعرفه آخرون:

بأنه علم يبحث في التشبيه والمجاز والكناية.

البَابُ الأولُ

التشبيه

التشبيه عند القدماء والمتأخرين

لم يعن القدماء بعد التشبيه حدًا يضبطه كما فعل المتأخرون، وإنما عرفوه صورة توضح الفكرة، وتُحسِّن المعنى، عرفه امرؤ القيس، فقال في صفة الفرس:

يَكْرُ يُقَرُّ مُقْبِلٌ مَدْبِرٌ مَعًا كَجُلُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عُلَى
وعرفه النابغة، فقال:

فإنك شمسٌ وملكوكٌ كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْدُ مهن كوكبٌ
وعرفه عنتره، وطرفة، والأعشى، وغيرهم كثير.

وعندما أشرقت شمس الإسلام، سار شعراؤه سيرة من قلبهم مع تأثرهم بتصوير القرآن الكريم.

ولم يبحث التشبيه بحثًا مستقلًا في باب إلا عند المبرد (ت ٢٨٥ هـ^(١)).
والواقع أن بحث التشبيه قبل المبرد كان مبثوثًا في دراسات السابقين، فقد يأتي التشبيه في خلال بحث أى موضوع بعيد عن التشبيه ولكن الحديث يتطرق إليه - والحديث ذو شجون - لذلك لم يكن الحديث عن التشبيه قبل المبرد هو المقصد الأول الذى يقصده المؤلف وإنما كان يأتي الحديث عنه عفوًا.

فشارس بردت ١٦٧ هـ، قد عرض له في قوله : ما زلت أروى في بيت امرئ القيس !

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي
إِذْ شَبَّ شَيْثِينَ بِشَيْثِينَ، حَتَّى صَنَعَتْ :

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْرِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلَ نَهَايَ نَحْوَاكِبِهِ^(١)

والخليل بن أحمد مثلاً ١٧٥ هـ، عرف التشبيه تمثيلاً وصورة، وعرف طرفه في مثال أبي به ليان جواز وصف الكرة في مثل : «له صوت صوت الحمار»^(٢).

وكذلك سيويه ١٨٠ هـ، تحدث عن التشبيه من خلال موضوع آخر، ففي باب استعمال الفعل في اللفظ لافي المعنى لا تساعهم في الكلام وللإيجاز والاختصار، يذكر من جملة الاتساع والاختصار مثلاً للتشبيه، فيقول «ومثله في الاتساع قوله عرو وحل (ومثل يدين كمرؤ كمثل الذي ينبغي بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) (البقرة ١٧١)، فلم يُشَبَّهوا بما ينبغي، وإنما شَبَّهوا بالمنعوق به، وإنما المعنى مثلكم ومثل الذين كمرؤ كمثل اساعق والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على صفة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى»^(٣).

ويفسر الزجاج ٣١٦ هـ، كلام سيويه، فيقول :

قال سيويه : وهذا من أفصح الكلام إيجازاً واختصاراً، ويلتمس وجهاً آخر للإيجاز، فيقول : «ولأن الله تعالى أراد أن يشبه شيئين بشيئين، الداعى والكفار بالراعى والعنم، فاحتصر، ولكنه اكتفى بذكر الكفار من المشبه، والراعى من المشبه به، فدل ما أبقى على ما ألقى، وهذا معنى كلام سيويه»^(٤).

وكذلك أبو عبيدة ٢٠٧ هـ، ألف كتابه «مجاز القرآن» بسبب مسألة تتعلق بالتشبيه، إذ سئل في مجلس لعصل س الربع عن التشبيه في قوله تعالى (طَلَمَهَا كَأَنَّه رَعُوسُ الشَّيَاطِينِ) (الصافات ٦٥)، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف، فقال أبو عبيدة : إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس :

أَيْقَنْتُلَى وَالْمَشْرِقُ مُضْجَاجُ عَمَى وَمُسُونَةُ رُزْقٍ كَأَيَّابِ أَغْوَالِ؟

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أَمْرُ الْغُولِ يَهْوُهُمْ أَوْ عَدُوا بِهِ^(١)

ولما جاء الجاحظ ٢٥٥ هـ، تناول فيها تناول التشبيه، وألقى ضوءاً على جملة من قصاياه.

١ - عقد موازنة بين قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - «الناس كدهم سواء كأسنان المشط»، وقول كثير عزة :

سَوَاءُ كَأَسْنَانِ الْحِمَارِ فَلَا تَرَى لِيلى شَيْبَةً عَلَى نَاشِيٍّ فَضْلاً

حيث يقول : إذا جعلت تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه النسي وحقيقته، عرفت فضل ما بين الكلامين^(٢).

٢ - رأى أن التشبيه في كل أحواله يفد الغيرية لا العينية^(٣)، وأن وجه التشبيه يكتفى به أن يكون وصفاً يجمع بين الطرفين، فلا يطرأ إليه عن جهة لاسيما، وإنما يتجه المخاطر فيه إلى الصفة البارزة في المشبه به، فليس الطاووس بأحسن من الإنسان، ولا الفرس الرائع . . . وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه وتلاوينه^(٤)

٣ - أورد كثيراً من التشبيهات الواردة عن العرب كتشبيه الأبقار بيض النعام،

(١) نزهة الألباء، ٧٠ المشرقى نسبة إلى مشارف الشام ومن قرى تصح السيوف

(٢) البيان والبيان، ج ١/ ١٩

(٣) الحيوان، ج ١/ ٩٩ ط السامى

(٤) الحيوان، ج ٢/ ٨٢

(١) الأعشى ج ٣/ ١٩٦

(٢) الكتب ج ١/ ١٨١

(٣) الكتب ج ١/ ١٠٨

(٤) إعرابه القرآن للزجاج ج ١/ ٤٧

والغيوم بصور العام، كما أورد كثيراً من التشبيهات المتكررة والنادرة^(١)

٤ - بين لأبناء عصره الوصف الجامع بين طرفي التشبيه في قوله تعالى: (ونزل عليهم بآ الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها.. الآية) (الأعراف ١٧٥)^(٢).

فالجاحظ وإن لم يضع حدوداً واضحة للتشبيه، فقد أفاد إلى حد كبير، وألقى صورة على جبهة من قضاياها مما أعان المتأخرين على إتمام الصورة من بعده.

وبأن المرد ٢٨٥ هـ، فحده عالم لدى له الفصل على لئلاعة عربية هـ. الباب الذي عقله في التشبيه، وقد اعتمد فيه على استقرائه للشعر العربي وجمع الشواهد الشعرية، مما حقق له أفراد باب كامل في موضوع التشبيه في كتابه «كلام»

ومع أنه بين الغرض من تأليفه الكتاب، فقال: «والنية أن نفر كل ما وقع في هذا لكت من كلام عربي، أو معنى مسلم، وأن نشرح فيه ما يعرض من لإعراب شرحاً شافياً حتى يكون هذا الكلام بنفسه مكتفياً، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً»^(٣).

وهذا غرض لغوي بصرف ملتزم البلاغة عن النظر في الكتاب، لكن بالكتاب أبحاثاً بلاغية لا نجد لها مثيلاً عند معاصريه.

فقد عقد باباً كاملاً للتشبيه^(٤) بدأه بقوله: فأحسن ما جاء بإجماع الرواة قول امرئ القيس في كلام مختصر، أي بيت واحد من تشبيه شيء في حالتين بشيئين مختلفين، وهو قوله:

كأن قلوب الطير رطاً وياساً لدى وكبرها العتاب والحشف البالي

(١) حبيبات ج ٤

(٢) الحيوانات ج ٢

(٣) الكلام ج ١

(٤) الكلام ج ٢

وهذا مفهوم المعنى، وإن اعترض معترض فقال: فهلا فصل، فقال: كأنه رطاً العتاب، وكأنه يابس الحشف، قيل له: العربي القصيح القطن القطن يرمى بالقول مفهوم، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عدا، قال الله عز وجل (ومن رمت حصى لكم الليل والهار لتسكنوا فيه ولتبتعوا من فضله) علماً بأن المحاطين يعرفون وقت لسكون ووقت الاكتساب

ثم استمر في جمع الشواهد الشعرية التي تطوى تحت باب التشبيه لكل الشعراء الذين درسوا هذا الفن، أمثال علقمة المحل، ودي الرمة، وجبر، وعروة ابن حزام، وغيرهم كثير.

وقد طوى المرد على التشبيهات التي أوردها كثير من أسباب الحقيقة حتى تدل على حسنها وملاحظتها، ولكنه في النهاية أرجعها إلى أربعة، ويقول «والعرب تشبه على أربعة أضرب، فتشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى تفسير ولا يقوم بنفسه، وهو أخشن الكلام»^(١).

ومثل للتشبيه المفرط المتجاوز في موضعين، الأول^(٢): قول الخنساء:
وإن صَحْرًا لَنَأْتُمُ الْهَدَاةَ بِهِ كَأَنَّهُ عَدَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ
وقول الله عز وجل: (وله الجوار المسنات في البُحُر كالأعلام) (الرحمن ٢٤).
الثاني^(٣): قولهم لحنى: هو كالبحر، وللشجاع: هو كالأسد، وللشريف: سها حتى بلغ الجرم.

ومثل للتشبيه المصيب في ثلاثة مواضع، منها قول الشاعر:
بيضاء في دَعَجٍ، صفراء في نَعَجٍ كَأَنَّهَا بِصَّةٌ مِّنْهَا دَهَبٌ^(٤)
وقول امرئ القيس في طول الليل:

(١) الكامل ج ٢/٨٧

(٢) الكامل ج ٢/٤٤

(٣) الكامل ج ٢/٦٧

(٤) الكامل ج ٢/٤٠، النعج: البيضاء الخالص، الدعج: شدة سواد العين مع صفها

كَانَ الثَّرِيًّا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِهَا بِأَمْرَاسٍ كُنَّانَ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ^(١)
ومثل للتشبيه البعيد الذي يحتاج إلى تفسير، ولا يقوم بنفسه، بقول الشاعر:
بَلْ لَوْ رَأَيْتَنِي أَخْتُ جِيرَانَتَا إِذْ أَنَا فِي الدَّارِ كَأَنَّ حَارَ
فَالْمَا أَرَادَ الصَّحَّةَ، فهذا بعيد لأن السامع يستدل عليه بغيره^(٢).
فالذي يتبادر إلى الذهن أن التشبيه بالحمار المقصود منه البلاهة والبلاهة،
ولا يخطر ببال أن مراد الشاعر قوة البنية وسلامة البدن.
أما التشبيه المقارب فقد مثل له بثلاثة أبيات، فقال: «ومن حلو التشبيه وقريبه
وصريحه قول ذي الرمة:

وَرَمَلٍ كَأَوْزَاكَ الْعَذَارَى قَطَعَتْهُ وَقَدْ جَلَّتْهُ الْمَظْلَمَاتُ الْخَنَاسُ^(٣)

وقول الشماخ في صفة القرس:

نَمَحَ الْخَوَامِي عَنْ نُسُورٍ كَأَنَّهَا نَوَى^(٤) الْقَسْبَ تَرْتُ عَنْ جَرِيمٍ مُلْجَلِجٍ

وقول عفة بن سابق العسري:

لَهُ بَيْنَ خَوَامِيَّهِ نُسُورٌ كَنَوَى الْقَسْبَ

ثم علق على الجميع بقوله: فهذا تشبيه مقارب جداً^(٥).

ونلاحظ أن البيت الأول من التشبيه الذي زعمه المبرد مقارباً ينطق تماماً على

(١) الكامل ج ٢/٦٧، المصام المقام، يقال للممك من العدم، صاتم لثقت على ذلك، أمراس: حبال، صم جندل - الحال.

(٢) الكامل ج ٢/٨٩.

(٣) الخناس - اشتداد الظلمة.

(٤) مفتح الخوامي - مرق الخوامي، الخوامي نوحى الخولفر، السور واحدتها سورهى نكة في داخل خافرة وتحمى القرس إذا صلب ذلك منه، ولذلك شبه بنوى القسب تروت: سقطت، الجريم - الجروم، ملجلج - الذي قد لجج مضطرب في التهم ثم قلب لصلاته.

(٥) يرى الدكتور على المبرد أن التشبيه المقارب (انظر في التشبيه ج ١/٧٨) والواقع أنه مثل له
بعض من ج ٢/١٥ ١٦

التشبيه المقارب، وقد مثل باليت نفسه ابن جني «ت ٣٩٢ هـ» الذي عقد له
«صلا في الخصائص» وسماه «غلة القروع على الأصول».

ولا بدري لماذا جعل المبرد بيت ذي الرمة من تشبيه المقارب مع أنه إلى التشبيه
المعرب المتجاوز أقرب، فالملة فيه ظاهرة، واس حتى كان أقرب إلى الواقع حيث
جعله من قبيل المبالغة، فقد قال: «ولا نجد شيئاً من ذلك إلا والغرض منه
المالعة»^(١).

وقد أكد ما نقلنا عن الجاحظ من أن وجه التشبيه يقع في بعض الصفات
لا كلها، فقال:

«واعلم أن التشبيه حذاً فالأشياء تشابه من وجوه، فبما ينظر إلى تشبيه من
حيث وقع، فإذا شبه الوجه بالشمس فإنه يراد لصيبه والرواق، ولا يراد «عظم
والإحراق»^(٢).

كما أكد كلام الجاحظ وأبي عبيدة عندما تكلم عن تشبيه الوهمي، واحتج له
ضد المعارضين في قوله تعالى: (طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رَمُوسٌ الشَّيَاطِينِ)^(٣).

وعلى الحمة، «فقد رأى أن التشبيه حار كثير في كلام العرب، حتى لو قال
قائل: هو أكثر كلامهم لم يتبعه»^(٤).

وبهذا ترى أن المبرد نقل التشبيه نقلة واسعة، ووسع مباحثه، وهياً له فرصة
شبع، إلا أن تدث التقسيمات التي حددها لم يصع لها حدود غير كل نوع عما
... كما أنه - كما عني بعضها بالحس أو الفصح دون أن يعلل لذلك، وبكفي في
عصره المكثر لم يكن يتطرق منه أكثر من هذا.

(١) الخصائص ج ١/٣٠٨.

(٢) الكامل ج ٢/١٧.

(٣) الكامل ج ٢/٣٩.

(٤) الكامل ج ٢/٦٩.

وجاء ثعلب «ت ٢٩١ هـ»، وتلميذه ابن المعتز «ت ٢٩٦ هـ»، فتناول كل منهما تشبيه «عرض نبات من التشبيهات الرتبة الخامسة من الشعراء قدامى ومحدثين، وكنى كل منهما بالرد والإشارة المحمودة إلى أبي حنيفة أو عحية منحت بيان موطن الحسن وجمال فيه، وكان الحكم فيها حكماً عاماً من غير تعليل

وجاء الرماني «ت ٣٨٦ هـ» فتحدث عن التشبيه ضمن أجزاء البلاغة العشرة، وهو وإن سبق بلبرد، وبحته الواسع في التشبيه، لكنه لم يلق له بالاً، واختط لنفسه طريقاً غير الذي سلكه، فوجه إلى القرآن الكريم يستمد منه استشهاده، ومثل لكل قسم من الأقسام وأكثر من آية، ولم يدخل على بحثه بيتاً واحداً من شعر، وكان هذا السج مع عنوان بحثه، ومسرواً على أحده عن نفسه من ذكر النكت في إعجاز القرآن.

وقد قسم التشبيه إلى أربعة وجوه^(١):

١ - منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه خاصة - أي يكس فيه ظهور ويوضح - ومثل بعدة أمثلة من القرآن، منها قوله تعالى (والذين كفروا أعماهم كسراب مبعية ينجس لهم لطماء حتى إذا حاء لم يجدوا شيئا) (سور ٣٩)، وبين وجه الشبه بين الطرفين بقوله: «وقد اجتمعنا في بطلان المنوهم مع شدة الحاجة وعظم الدقة

ولبدل على حسن الظن وعدوية النقط يقول. ولو قيل بحسن الرئي ماء، ثم يصر أنه على خلاف ما قدر لكان دليلاً، وأبلغ منه نقط القرآن، لأن صواب أشد حرصاً عليه، وتعلق قلب به، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن الظن، وعدوية النقط، وكثرة الفائدة وصحة الدلالة.

٢ - ومنها إخراج ما لم نجو به عادة إلى ما جرت به العادة - أي يكس فيه العراية - ومثل له بعدة أمثلة من القرآن، منها قوله تعالى، (وإذا تدف لجبل فودهم كأنه ظلة) (الأعراف ١٧١)، وبين وجه الشبه فقال: «وقد اجتمعنا في معنى الارتفاع في الصورة

٣ - ومنها إخراج ما يعلم بالبدية إلى ما يعلم - والمراد التقريب بين طرفي التشبيه - ومثل له بعدة أمثلة من عرب، منها قوله تعالى (وحية عرضها كعرض السماء والأرض) (الحديد ٢١).

٤ - ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ماله قوة فيها - والمراد المبالغة في التشبيه - ومثل له بعدة أمثلة من القرآن، منها قوله تعالى: (وله الحوار المنشآت في لبحر كالأعلام) (الرحمن ٢٤).

والرماني يبحث هذا مهد سبل البحث، ويسر المثوبة على من بعده من العلماء الذين أفادوا منه، واغترفوا من فضله، وكانوا حالة على أقواله ومثله^(٢).

وجاء أبو هلال العسكري «ت ٣٩٥ هـ»، فوجد طرق البحث بهذه وسيل الاستقراء ميسورة، فعقد له باباً تناول فيه فنون التشبيه^(٣)، وصدر الفصل الأول بما قاله الرماني في تقسيمات التشبيه، جامعاً كل استشهاده من القرآن - دون ذكره - مع إضافة كثير من الشواهد الشعرية، مبيناً جهة الحسن، ومكانها من القول، موضحاً الطريقة المسلوكة في التشبيه، والنهج القاصد في التمثيل عند القدماء والمحدثين، فالحواد يشبه بالبحر، والسهم الماضي بالسيف، والحليم الرزين بالجبل... وهكذا، مبيهاً إلى أن التشبيه يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً وهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الحاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفصله، وموقعه من لبلاغة بكل لسان.

(١) نظر الصناعتين ٢٤٠، تحرير النجيب ١٥٩، بديع القرآن ٥٨

(٢) مصابيح ١٨٠ وما بعدها

(١) قواعد الشعر ٣١، النسخ ١٢١ تحقيق د/حاجه

(٢) النكت في إعجاز القرآن، خمس ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٨١ - ٨٥

والجديد عند أبي هلال، أنه في الفصل الثاني^(١) من هذا الباب، بين الفيج والحسن من التشبيه، والمعب والخطأ، والردى والسعيد، في أمثلة عديدة، وبنى فيج على البعد في الصفة التي تجمع بين المشه والمشبه به، وأنه لا يخرج الأغمض إلى الأوضح.

ومن الفيج مثلاً قول حفاف بن بديعة:

نقى لها التعمد من غنداتها ومثوبها كخيوطه الكتان^(٢)

يقول: دقت الباقة حتى صارت متونها وقوائمها كالخيوط - وهذا بعيد جداً، فرى أن هلال تقدم تشبهه وتطويبه من تنويمه، وكثرة شومده، ونحريجه، وبين مواطن الحسن والفيج منها، وهياً العرصة، ومهد الطريق لمن بعده، فسكوا أرضاً سهلة، وجنوا قطوفاً دانية، وكثير من أمثلهم هي من اختياراته.

وجه شيخ البلاغيين، وإمام النحويين، الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) بحث تشبيه بحثاً مستفيضاً مستوفياً، ففرق بين التشبيه والتمثيل، وميز التمثيل فجعله أحصى، وبين مواقع التمثيل، وأثره في النفوس وعمله النفسية - في فصل لم يسبق به - فقال^(٣):

«للمنبر إذا جاء في أعقاب المعنى كسها أبهة، وأكسبها مقبة، ورفع من أقدراها، وشب من نارها، وصاعف قواها في تحريك النفوس لها... فإن أودت أن تعرف ذلك فتعبد لفرق بين قول هلال بكده معه في قراءه الكتب لا يفهم منها شيئاً، وتسكت، وبين أن تلوها الآية (مثل الذين حثلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفراً) (الجمعة ٥)، وتشدد قول الشاعر:

زوامل للأشعار لا علم عندهم بحيدها إلا كعلم الأساجر

(١) الصائغين ١٩٦

(٢) التعمد من هذا يعنو عدواً وبهذه، المتعاندات القوائم، لثوب الطهور

(٣) أسرار البلاغة ٩٣

لعمرك ما يدري العير إذا غدا بأوساقه أوزاح ما في الغرائر^(١)
كما رأى أنه كلما كن التباعد بين طرفي التشبيه أشد، كان إلى النفوس أعجب، وكنت النفوس له أطرب، لأنك ترى الشئين مثلين متباعدين، ومؤسفين مختلفين، لذلك تجد تشبه البيفسج في قوله:

ولارودنة نزهو بزرقتها بين الرياض على حمر البواقيت
كانها فوق قامات ضعفن بها أوائل البار في أطراف كبريت^(٢)

أعرب وأعجب، ومعنى الطباع على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه، وخرج من موضع ليس بمعدن له كنت صباية النفوس به أكثر، وكان بالضعف منها أجدر.

وفرق بين التشبيه المفرد، والمتعدد، والمركب^(٣).

وعقد فصلاً في التشبيه المقلوب - الذي بدأ البحث فيه ابن جني - واستشهد عليه كثيراً^(٤). كما فرق بين التشبيه والاستعارة في فصل طويل، «قال فيه: «لاستعارة وإن كنت تعتمد على التشبيه وسشش، وكب تشبه بقصى مشبه ومشبهاً به، وكذلك التمثيل، فلاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه وبطرحه وتدعى له الاسم الموصوع للمشبه به، كقولك: رأيت أسداً، تريد رجلاً شجاعاً، ووردت بحراً تريد رجلاً كثير الجود، فائق الكعب، فلاسم الذي هو المشبه غير مذكورة، وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به للمبالغة^(٥)».

وهذا نرى أن عبد القاهر يبحث التشبيه والذي استغرق قراءة نصف كتابه «أسرار البلاغة» كان من أكبر علماء البلاغة الذين استوعوا دراسة السابقين استيعاباً مكنه من التحديد في بحثه، وتقديمه للدارسين غذاء شهيلاً سهل المصم،

(١) روامل جمع راملة وهي التي يحمل عليها من الإبل وغيرها، الأباخر جمع بخر

(٢) سياق شرح البيت

(٣) الأسرار ١٦٨

(٤) الأسرار ١٨١

(٥) أسرار البلاغة ٢١٠

وشراباً سائغاً للشاربين، وقدم للبلاغة العربية أثراً يشهد ببراعته في الفن وقوته في البيان، وكان هضبة شامخة انحسر عندها المد، ووقف دونها علماء البيان.

وجاء السكاكي وت ٦٢٦ هـ وهو الذي لقيت البلاغة عنده الوضع الأخير من التجديد والتقسيم والتبويب، ففي كتابه «المفتاح» تكلم عن التشبيه^(١)، فعرّفه، وتكلم عن طريقه، ووجهه، وأغراضه، وأحواله من حيث القرب والبعد، والمقول والرد، وعن الطرفين من حيث المحسوس والمعقول، وقسم الوجه إلى حسي أو عقلي، وإلى مفرد أو متعدد أو مركب، وكل ذلك في إطار القواعد الجدة والاصطلاحات المنطقية، والشواهد القليلة.

وقد تحول بحث التشبيه عند السكاكي إلى مجموعة كبيرة من الأقسام والأحوال صيغت في أسلوب من «باصطلاحات المناطقة والمتكلمين التي لا تفيد الدارس كثيراً.

ونتيجة لتقسيمه وتبويبه وترتيبه يستطيع الباحث أن يضع يده بيسر وسهولة على ما يريد لتبويب والاختصار الذي امتاز به «المفتاح».

التشبيه والتمثيل

لشبه وتمثيل في اللغة لمص من دون على معنى واحد، وبكلاهما في اصطلاح البيهقيين يخالف كل منهما الآخر.

(١) التشبيه

١ - قل تعالى: (فَبِهِنَّ قَصَرَاتُ الطُّرُفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسُ قِبَلَهُمْ وَلَا جَانٌ... كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) (الرحمن ٥٦ - ٥٨).

٢ - وقال: (وَالْقَمَرُ قَلْبُزْنَاهُ مَازِلٌ حَتَّى عَاذَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) (يس ٣٩).

٣ - وقال: (نَسَاؤُكُمْ حَرْتُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْتُكُمْ أَنِّي شَيْثَمُ) (البقرة ٢٢٢).

في الآية الأولى شبه الخور العين المقيبات في الحة بحجر من الأحجار الكريمة - وهو الياقوت والمرجان - في صفة مشتركة بينهما وهي نقاء اللون وصفاته. وفي الآية الثانية شبه القمر بعد كمال استدارته وضوئه الساطع الذي يبدد ظلمات الليل بالعرحون القديم، في الدقة والنحول والانحناء.

وفي الآية الثالثة شبه النساء بالارض التي تُحْرَثُ للزراع، لأن رحم المرأة يست فيه الولد كما ينبت البدر في الأرض، وفي كليهما تكثير وعمران وفلاح.

والشبه هو عقد مماثلة بين شيئين أو أشياء لا يشتركيها في معنى ما، بأداة مبنوعة أو ملحوظة، كدكاف وبحوها، لعرص مقصود^(١).

ومن البيان السابق يتضح أن أركان التشبيه أربعة:

المشبه، المشبه به، أداة التشبيه، وجه الشبه.

أما مشبه والمشبه به ويسميان «طرفي التشبيه» فلا بد لكل تشبه من وجودهما صراحته، وقد يحدف لمشبه لمعلم به، كقوله تعالى في وصف السفين (ضُمُّكُمْ، عَمَى، فَمَنْ لَا يَرْجِعُونَ) (سورة ١٨)، فمشبه محدود يعود على السفين الوارد ذكروهم في الآيات السابقة، والتقدير: هم كالصم وكالبكم وكالعمى.

أما الأداة: فهي كل لفظ يدل على المشابهة، وقد تكون حرفاً، أو اسماً، أو فعلاً

(١) «مجمع» - التشبيه - يدخل فيه تشبيه المفرد والأشياء - يدخل فيه المركب، معنى ما شامل لجميع الأصناف كلها - حسيه وحسيه مفرد والمركبة بأداة - ليشير من الاستعارة بواسطة الكاف وبحوها، ليخرج المعطوف لأنه جمع بين الشيئين والأشياء ملحوظة: يدخل التشبيه فيضم الأداة، لعرص مقصود - لا يكون عناً

المشبه به خيراً عن المشبه، أو في حكم الخبر، أو مصدراً ميباً للنوع، أو يكون المشبه به مضافاً إلى المشبه، وهذا النوع من التشبيه يحتل المكان الأسمى بين أنواعه، ويسمى التشبيه البليغ^(١)، لأن المشبه يصير عين المشبه به بلا تفاوت، وهذا أدعى للمالعة والتوكيد.

وهو مأخوذ من المالعة بمعنى الحسن واللفظ، لا من اللاعة بمعنى مطابقة الكلام لمقتضى الحال، لأن التشبيه الكامل الأركان قد يطابق مقتضى الحال لسوء فهم السامع ومع ذلك يقال له: بليغ بهذا المعنى.

ويسمى التشبيه الذى ذكرت فيه الأداة - مرسلًا، والمحذوف منه الأداة - مؤكِّدًا، وما ذكر فيه وجه الشبه - مفصلاً، وما حذف منه الوجه - مجملًا، وما حذف منه الأداة والوجه - بليغًا.

ويلاحظ أن الجامع لدى يجمع بين الطرفين يكفى أن يكون من جهة واحدة أو عدة جهات، لا من جميع الجهات، لأنه لو باسسه من جميع الجهات لكان إياه، وقد تنبه إلى ذلك الخاطى وابن رشيق^(٢).

وبقول حرم القرطاحى وت ٦٨٤ هـ، ميبا السامع في الجامع لدى يجمع بين الطرفين والاكتماء منه بنوع من المشابهة:

«واعلم أنه لا تحسن محاكاة ذى مقدار كبير بلذى مقدار صغير، ولا محاكاة ذى مقدار صغير بلذى مقدار كبير، إذا كان بينهما تفاوت في ذلك، وكذلك لا تحسن محاكاة ذى لون بلذى لون مخالف له عالم تقصد في ما تفاوت من ذلك وما تحالف هيئة فعل أو حال في المحاكى والمحاكى به.

(١) من صور التشبيه البليغ أيضاً، أن يكون المشبه به حالاً من المشبه مثل: سال الماء لجنا، أو يماناً لدجس مثل: هذا ماء من عيني وذلك أصيل من دمي، أو يكون المشبه به ميباً بالمشبه، كقوله تعالى: (وكلوا واشربوا حتى يبين لكم الخطيط الأبيض من الخطيط الأسود من الفجر) (البقرة ١٨٧) أى حتى يبين لكم الفجر كالحيط الأبيض، وقد فهم الصحابة الخطيط من الخطيط قبل مروق (من الفجر) حتى إن بعضهم وهو على من حاتم فعل عن هذا شبيه به، بل قاله (والتقدم) لخص الخطيط عن الجميع، ربح ذلك سور لله صلى الله عليه وسلم فطسحك وقال: إن وسادك لعريضا، وروى (ابن جرير الطبري) أنه ذلك: يبيض البار وسواد الليل، والفعاء عريض يستند بع عن قلة طنة الرجل والبحر المحيط من ٥١/٢.

(٢) الخبولة ج ١/٩٩، العنونة ج ٢/١٩٤، انظر فصل «التشبيه عند القدماء والمتأخرين» من الكتف.

ود قصدت محاكاة هيئة ميبة لم تستع إلى تفاوت ما بين الواحد والآخر في المقدار، ولا تباين ما بينهما في اللون، ولذلك استحسن تشبيه الذباب بالقادح^(١)، لأن المقصود محاكاة إحدى الحليين بالأخرى، فالمحاكاة إنما تعلقت بهيئة لا بالمقدار، وعلى هذا حمل تشبيه المصا بالجد^(٢) وهو حية صغيرة كثيراً التهج والحركة بعد تشبيهها بالثعبان^(٣)، لأن المقصود في التشبيه محاكاة هيئة الحركة، وليس المقصود محاكاة مقدار هذا بمقدار ذلك^(٤).

كما يلاحظ أن وجه الشبه الذى يجمع بين الطرفين يرمى أحياناً إلى رسم الصورة كما يراها الحس وكما تحس بها النفس أيضاً.

نجد ذلك واضحاً في قوله تعالى يصف حال الجبال يوم القيامة (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) (الفارعة ٥)، فالعهن المنفوش بصورة أمامك منظر هذه الجبال وقد صارت هشة لا تتأست أجزاءها، وتحمل إلى نفسك معنى خفتها ولبها.

وقوله تعالى: (والقمر قد ذرناه منازل حتى عذ كالعرجون القديم) (يس ٣٩)، فهذا القمر بهجة السماء لا يزال يتنقل في مازله حتى يصبح بعد هذه الاستدارة لمبهجة، وهذا الصوء الساطع العامر الذى يبدد ظلمة الليل، يصبح بعد هذا كله دقيقاً نحيلاً مخدوذاً لا تكاد العين تنبته إليه، وكأنما هو في السماء كوكب تائه، لا أهمية له، ولا عناية بأمره، أولاً نرى في كلمة «العرجون» ووصفها بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال في آخر الشهر، وتحمل إلى نفسك ضالة أمره معاً.

وقوله تعالى في وصف النار يوم القيامة، (إنها ترمى يشر كالقصر، كأنه جملة صفر) (المسيلات ٣٢، ٣٣)، فللقصر وهو الشجر الضخم، والحبال الصفر،

(١) يشر بها إلى قول حمزة في وصف الذباب - وسياق بيانه

وحالا الذباب بها ليس بسارح خرفاً كفعل الشارب المترم

مترج يحس ذراعاً يدواعه قدح الملك عن الرماد الأجدم

(٢) يشر إلى قوله تعالى: (وإن التي عصاك فيها رآها جباراً كأنها جبار ولي مدبر ولم يعقده يا موسى إقبل ولا تخف) (الأمير) (المصن ٣١)، وقوله تعالى: (وأتأت عصاك فلما رآها جباراً كأنها جبار ولي مدبر، ولم يعقده يا موسى لا تخف، إلى لا تخف لدى المرسلون) (النس ١٠).

(٣) يشر إلى قوله تعالى (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) (التبراء ٣٢)

(٤) منهاج بلعاء وشرح الأديب ص ١١٤

توحى إلى النفس بالضحامة والرهة معاً، وصور لنفسك شرواً في مثل هذا الحجم من الضحامة يطير.

كما يرمى أحياناً إلى اشتراك الطرفين في صفة محسوسة ولكن للنفس كذلك نصيبها في اختيار المشه به الذي له تلك الصفة، فالقرآن شبه نساء الجعة في ثلاث آيات، فقال:

(فيهن قاصراتُ الطرف لم يطمثهنَّ إنسُ قبلهنَّ ولا جِنٌّ كأنهنَّ الياقوتُ والمرجان).

(وعندهم قاصراتُ الطرف عِينٌ، كأنهنَّ يَبَضُّ مَكُون) (الصافات ٤٩).

(وحوورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكُون) (الواقعة ٢٢، ٢٣).

فليس في الياقوت والمرجان، والبيض المكون، واللؤلؤ المكون، لون فحسب، إنما هو لون صاف فيه نقاء وهدوء، وهى أحجار كريمة تصان ويحرص عليها، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص، وهن يتحدن من تلك الحجارة زينتهن، فقربت بذلك الصلة، واشتد الارتباط، أما الصلة التي تربطهن بالبيض المكون فضلاً عن نقاء اللون، فهي هذا الرفق والحذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما، ألا ترى في هذا الرفق صلة تجمع بينهما؟ وهكذا لا نجد الحب وحده هو الرابط والجامع، ولكن للنفس نصيب أى نصيب^(١).

طرقى التشبيه

من حيث المحسوس والمعقول

التشبيه ميدان فسح من ميادين البلاغة، وله منزلة سامية، وما ذلك إلا لأنه يدين العبد ويجلو الغامض، وتكتسب به المعاني بهاء ورفعة، وطرقى التشبيه من حيث المحسوس والمعقول يتوعدان إلى:

١ - تشبيه المحسوس بالمحسوس:

شاع في القرآن الكريم تشبيه المحسوس بالمحسوس، ومن ذلك قوله تعالى: (والذين كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ، وَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ) (محمد ١٢)، فقد صور القرآن الكفار بأنهم يأكلون ويتمتعون عافلين عن الجزاء الذي ينتظرهم، كما تأكل الأنعام وترومغ غافلة عن سكين الذابح.

وقوله: (كَدَّبَتْ عَنْدَ، فَكَيْفَ كَانَ عَدَابُ رَبِّهِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ضَرْفًا

في يوم نحسٍ مبشرٍ، نَرْفَعُ سَاسَ كَانِهِمْ أَنْعَادُ نَحْلِ مَقْعٍ) (الشمس ١٨ - ٢٠)، فقد شبه القرآن هداة قوم هود - عليه السلام - حين كانت الريح تقتلع رؤوسهم فتحجبهم بلا رؤوس، وكانوا دوى أحسام عظام - بأعذار سحر المتسع من معارسة، فقد شبه الأمر غير المعتاد بما جرت به العادة والمعروف ببلاد العرب.

وقوله: (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَمِثَالٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ) (سأ ١٣)، فقد شبه الجعة بالحياض في السعة.

وقوله: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَزَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُوفٍ) (نمل ١ - ٥)، فقد شبه أصحاب لعل وهم جيش أرهق خشي لذي قدم مكة لخدم الكعبة، فسلط الله عليهم جماعات الطير ترميهم بقذائف من الحجارة حتى أهلكهم الله - شبههم بالعصف المأكول - وهو قشر البر بعد نزع الحب منه، أو بالتين الذي أكلته الدواب ورائته، ولكنه جاء على ما عليه أدب لقرآن، كقوله: (كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) (المائدة ٧٥)، فشبه تفرق أجسامهم بتفرق أجزاء الروث الذي ثروته الدواب.

وقوله: (قَدْ عَلِمَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي خُسُوفِهِمْ، هُمْ - يَبْأُتُونَ بِأَسَاسٍ إِلَّا هَبْلاً، أَشْجَعُ عَمِيَكُمْ، هَذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأْسُهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ عَيْنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى مِنَ الْمَوْتِ) (لأحراب ١٨ - ١٩) فقد شبه الله سافقين - الذين كانوا يصرفون المؤمنين عن بصرة إلى - صلى الله عليه وسلم يوم

الخدق - وقد امتلأوا بالخوف من العدو، ونظروا إلى الرسول مذعورين تدور أعينهم يمينا دون أن تطرف، شههم في حالتهم تلك مدوران عيني الذي نصبه سكرات الموت.

ولو اقتصر سبحانه - وهو أعلم - على قوله : كالذي يعشي عليه، لكان كافياً في المقصود، ولكنه لم يقف - سبحانه - عند ذلك حتى زاد شيئاً بقوله : (من الموت) إذ حالة المعشي عليه من الموت أشد حالة من غيره، ولو جاء عز وجل في موضع (الموت) الخوف، لكان الكلام بليغاً، والذي جاء به التزليل أبلغ^(١).

فالتشبيه الحسي : هو ما يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، وقد أدخل عليه البلاغة مع تشبيه الحسي تشبيه الخيالي وهو ما لا تدركه الحواس بذاته، ولكن تدرك مادته، كقول الصنوبري :

وَكأنْ حُمْرُ الشَّقِيقِ إِذَا نَصُوبٌ أَوْ تَصْعَدُ
أَعْلَامُ يَأْقُوتٍ تُبْرِقُ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرَجَدٍ^(٢)

فصورة الإعلام المصنوعة من ياقوت المنشورة على رماح من زبرجد شيء لا يدرك لعدم وجوده وإنما المدرك مادته وهي : الأعلام والياقوت والرماح والزبرجد.

٢ - تشبيه المعقول بالمعقول :

هو المعاني الكلية التي تدرك بالعقل، كتشبيه العلم بالحياة، والجهل بالموت، والمرض بالهلاك، والعقر بالكفر.

(١) اللغة العام ٢٨٥

(٢) حمر الشقيق أحمر من أصله الصفة إلى الموصوف، وهو ورد آخر في وسطه سواد يسمى وشقاق الحناء تصويب، قال إلى أسفل، الياقوت جوهر عيسى مختلف الألوان، وتوارد هنا الأحمر والزبرجد - حجر كريم أحمر اللون

وقد أدخل العلماء مع التشبيه العقل التشبيه الوهمي : وهو ما لا يمكن إدراك أجزائه بالحواس لعدم وجودها لكنها لو وجدت لم تدرك إلا بها، كقول امرئ القيس :

أَيَقْتُلِي وَالْمُشْرِفُ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَيَّابِ أَعْوَالِ؟

والفرق بين الوهمي والخيالي : أن الوهمي لا وجود لهيته ولا لجميع مادته، والخيالي جميع مادته موجودة دون هيته^(١).

٣ - تشبيه المعقول بالمحسوس :

كثر في القرآن الكريم إيضاح الأمور المعنوية بالصور المحسوسة المرئية، ومن ذلك :

قوله تعالى : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَعْبَةٍ، إِلَىٰ ذَٰلِكَ لِيُلْغِيَ اللَّهُ بِهِ هَوَاهُ، وَمَا هُوَ بِسَاعِدٍ، وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) (الرعد ١٤)، يشبه الله عبادة الوثن حينما يدعون آلهتهم ولا يرجع هذا الدعاء عنهم بفائدة، بمن يسب كفيه للماء ليشرب فلا يصل الماء إلى فمه ما دامت كفاه مسوحت.

وقوله : (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْيَهُودِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ دُعَاؤَ وَدُعَاؤَ) (النقرة ١١٧)، يصور القرآن حال الكفار الذين يدعون أوثانهم فلا تفهم ولا تحجب بحال الناعق الذي يصوت للأغنام فلا تفهم منه إلا دوي الصوت.

وقوله : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ سَبْءٌ فَخُطِفَهُ بَصْرٌ أَوْ تَنَزَّاهُ فِي مَكَانٍ سَحَابٍ) (الحج ٣١)، يصور القرآن حال من يشرك بالله في أنه لا يقاء ولا استقرار له، كحال من سقط من السماء فلا يستقر على الأرض لحظة بل الطير تنخطعه ولريح تنهوى به

وقوله : (قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالًا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا، وَنُزِدْ عَلَىٰ أَعْقَابِ بَعْدِ ذَٰلِكَ)

مَدَانَا اللَّهُ، كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى هُدًى أَنْتَ (الأنعام ٧١)

يصور القرآن حال من يشرك بالله بعد التوحيد بحال من أضلته الشياطين في الصحراء وله أصحاب يدعونه إلى الهدى ويتادونه : اثناء ، وهويين هذا الاستهواء وهذا الدعاء حيران ، لا يدري أى الفريقين بحسب

وقوله : (وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْأً مُثَوَّرًا) (الفرقان) ، يصور القرآن ضياع أعمال الكفر بحيث لا يملكون لها ردًا بصورة الهباء المثور.

وقد يأتي تركيب التشبيه في صورة يؤهم ظاهرها أن بها إخلالا في التركيب أو لسادا في الترتيب، لكن بالتأمل والبحث عن العلل نجد أن الأساليب حارية على مسجع البلاغة، ولو جاء التركيب على الصورة التي توهمها المتوهم لكان النظم معيبا، من هذا :

قوله تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع (لا دعاء ونداء) (البقرة ١٧١) ، فالتشبيه لوجاه عن وجهه لكان : ومثل الذين كفروا كمثل الصان المعوق بها ، ومثل الرسول الداعي لهم كمثل راعي الضأن الذي ينعق بما لا يسمع .

والتصريح بتشبيه الكفار بالضان مُفَرَّغ عن الرسول عليه السلام - إذ العرب يعدونها شرمال ، تقول صفري بنات ذوى الأصبع العدواني ، وقد سأها أبوها عن عاها ، فقالت : الضأن ، فقال لها : كيف تجدونها ؟ قلت : شرمال . . الخ .

وفي التصريح بتشبيه الرسول عليه السلام بالراعى الذي ينعق بالضان غض من مكانته ، ومخالفة الأدب في مخاطبته ، ومعلوم مدى مكانته - صلى الله عليه وسلم - عند ربه وتلطفه في مخاطبته .

فهذا قلب الكلام عن وجهه فحذف من كل جملة من الحملتين شيء ، حذف لمشه به من الحملة الأولى ، والمشه من الثانية ، لدلالة المعاق على المعوق بها ، ولو

حاء الكلام عن وجهه لم يمد ذلك^(١).

ومن هذا أيضا ، قوله تعالى في تشبيه المؤمنين والكافرين (مثل المؤمنين كدرة بالغة إذا هبت) (الأنعام ٦٥) ، فإن الباطر على ظاهر التشبيه يتوهم أن نظم هذه الآية قد أتى على غير طريق البلاغة ، حيث إن الطريق الأمثل أن يقال : مثل لفريقين كالأعمى والبصير ، والأصم والسميع ، ليلتزم بعض الألفاظ بعضها ، وتتحلى بالطبق النمطي

وسأمل في لابه يرى أن الكلام عن ترتيب حاء عنه صحيح لسمعى ، حيث إن الحق تبارك وتعالى قال : (مثل الفريقين) وقد اقتضى الأمر تفسير (الفريقين) فقال : (كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع) ليكون لمشبه به قسمين ، ليكون المشبه به وفق عدد الفريقين ، أحد الفريقين مبتلى ، والآخر معافى ، حتى يصح السؤال عن النسوية بينهما مع تصادفهما من باب تجاهل العرف ، للسؤال عن معلوم ، لفصد التوبيخ .

ولو كان التعبير : (كالأعمى والبصير) لدلت هذه الحملة على فريقين ، ثم يأتي بعدها (والأصم والسميع) نكت هذه حملة دالة على فريقين آخرين ، فتكون قد فسر الفريقين بأربعة ، وهذا فساد في النظم^(٢).

٤ - تشبيه المحسوس بالمعقول :

عد بعض سلاعين منه قوله تعالى : ((يَا شَجَرَةَ النَّخْلِ طِئْفَيْهِ كَيْفَ رَأَى مِنَ الشَّيَاطِينِ) (نصودت ٦٤ ، ٦٥) ، وقوله تعالى : ((وَأَلْقِ عَصَاكَ فَمَا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ^(٣) وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّتْ) (لعل ١٥) وقوله تعالى حكاية عن نسوة امرأة العزيز في يوسف عليه السلام : (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) (يوسف ٣١).

(٢٠٩) مباحث في إعجاز القرآن ، ٢٥٨

(٣) جان ، وحية . خلاف الإنسان ، والجان : الوجد من الجن ، وهو حية البقاء أيضا ، وعمل هب فالظرفان حسيان

وقد كان أول معارضة على هذا النوع من التشبيه على لسان إبراهيم الكاتب، بعد سأل أبا عبيدة في مجلس الفصل بن الربيع عن معنى الوعيد في قوله تعالى : (يَا شجرة تخرج في أصل الجحيم ظلُّها كأنه رهوس الشياطين)، وإنما يقع الوعد والإبعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف

فقال أبو عبيدة : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِقِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأُنْيَابِ أَعْوَالِ؟

وهم لم يروا القول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يَتَوَلَّمُ أو عدوا به، فاستحسن المصل ذلك واستحسنه السائل، وكان هذا السؤال ميباً في تأليفه «بجاء القرآن»^(١).

وقال الجاحظ في مقام الدفاع عن هذا التشبيه :

«وليس أن الس راوا شيطاناً قط على صورة، ولكنه لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جمع الأمم استفحاح جميع صور الشياطين واستسماحها وكراهتها، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك، رجح بالإيجاش والتنفير وبالإخافة والتفريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين، وعند جميع الأمم.

ثم يقول : وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين إن رهوس الشياطين نبات ينبت باليمن»^(٢).

وقال الرازي في الآية^(٣) : «وأما تشبيه هذا الطلع برهوس الشياطين، ففيه سؤال، لأنه قيل : إنما مارأينا رهوس الشياطين، فكيف يمكن تشبيه شيء بها؟، وأجابوا عنه من وجوه :

فالأول - وهو الصحيح - أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في

الصورة والسيرة، واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والنشوب في الصورة والسيرة، فكما حسن التشبيه بالملك عند تقرير الكمال والفضيلة في قوله : (إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برهوس الشياطين في القبح والنشوب الحقيقة».

ومن هنا نرى أن من تشبيهات العرب ما كانت تقدم على العرف والعادة، ولا تتطلب الحقيقة العقلية والصور الواقعية.

فقد جرى في تشبيهاتهم على ما عهدته أذهانهم وتمثلته أحيالهم، وللشياطين في أذهانهم صورة واضحة الملامح للبشاعة ولقبح، وتنعكس لنا هذه العكسة تادرة يرونها الجاحظ عن امرأة أحجلته، وذلك أنها أتته يوماً وهو على باب داره، فعالت له : لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي، فقامت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي، فقالت له : مثل هذا، وانصرفت.

فسألت الصائغ عن قولها، فقال : إنها أتت بنفس وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان، فقلت : يا سيد ما رأيت الشيطان، فأتت بك، وقالت ما سمعت

وإذا كانت هذه التادرة تنعكس لنا بشاعة خلق الجاحظ، ففيها أيضاً انعكاساً لصورة الشيطان كما تمثله الذهن العربي، ومن هنا شهوا به كل شيء كرهه المظهر بشع الصورة.

ومثل ذلك قوله تعالى في وصف آكل الرب : (مَنْ يَأْكُلْ رُبًّا لَا يَفُوتُهُ إِلَّا كَمَا يَفُوتُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) (البقرة ٢٧٥).

جاء في الكشف^(١) ولا يقومون إذا بُعثوا من قورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان، أي المصروع، وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخط الإنسان فيصرع، والخطب : الضرب على غير استواء كخطب العشواء، فورد على ما كانوا يعتقدون.

(١) شرح العمود في شرح رسالة ابن زيدون ٢٥٠ لابن نباتة المجلد الأميرة ١٢٧٨ هـ.

(٢) الكشف ج ١/ ١٧٦.

(١) ترجمه الآلاء ١١٢٣، وهدات الأعيان ج ١/ ١٣٨.

(٢) الخيرات ج ٦/ ٢٢١ ط هارون.

(٣) تفسير الرازي ج ٧/ ٩٩.

وليس: الخنثى، ورجل محسوس، وهذا أيضاً من زعمائهم، وأن الخنثى محسوس فيحتبط عقده، وكذلك جُنُّ الرجل: صرته الجن، ورأيتهم لهم في الخنثى قصص وأحار وعجائب، وإكثار ذلك عندهم كإكثار المشاهدات.

فالقرآن يجري في منه التشبيه على أساس ما كانت تعتقده العرب وتنخيله، لا على ما هو الحقيقة، والواقع العمل.

كم جرى امرأ على اعتقاد العرب في قوله تعالى (إذا جاءك المدفون فادعوه شهد بك لرسول الله والله يعلم بك لرسوله والله يشهد إن المدفون لكذّابون) (المنافقون ١) فراه يقيم تكذيب المنافقين على أساس ما يعتقدون، لا على أساس ما هو الحق ولو وقع أنه رسول الله، وقول المدفون له: إنك رسول الله، يتفق مع الحق، ويختلف مع ما يعتقدون، ومن هنا رماهم القرآن بالكذب وحذر عليه السلام منهم^(١)

وظلت تلك الصورة التشبيهية تشغل النقاد والبلاغيين وبقي الحكم عليها متناوئاً.

١- يقول العسكري: وليس هذا التشبيه بالمختار، ولو أن بعض الناس يستملحه، لأنه أخرج ما يرى بالعيان إلى ما يعرف بالفكر^(٢).

وهذا هو رأى جمهرة المتأخرين كالسكاكي، والخطيب، والرازي، والحموي، فإن تشبيه المحسوس بالمعقول عندهم غير جائز.

والسبب في ذلك: أن المعارف الحسية أساس المعارف العقلية والمعقول فرع المحسوس، ومعركة المحسوس أيسر من تمثيل المعقول، ولهذا يكون التشبيه فيه حارياً على غير الأصل المعروف، وهو أن المشبه به يكون أقوى في وجه المشبه من المشبه - وتشبيه أقوى - المشبه - بالضعيف - المشبه به - لا يجوز.

(١) انظر حواشي واسعة في الأمثال في القرآن وردت على الزحشر في هذه الآية في كتاب المؤلف بعنوان «من أسرار التعبير في القرآن» منه التراكمية ط دار للدراسات والبحوث الرياض

(٢) هيوان دعاني ج ١ / ٣١

وحيث جاء ذلك في الأشعار يؤول على أنه جعل المعقول محسوساً على سبيل المألغة، وهذا يستدرك إلى أن تجعل جميع هذا النوع من باب قلب الشبيه، وبدون التأويل والادعاء لا يجوز^(١).

٢- أجازته الرمان مع استقباحه، لأن التشبيه عنده على ضربين، تشبيه حسن، وتشبيه قبيح، فالحسن: هو الذي يخرج الأعمص إلى الأوضح بعيد بياناً، والقبیح ما كان على خلاف ذلك.

وشرح ذلك: أن ما يقع عليه الحاسة أوضح في الجملة مما لا تقع عليه الحاسة، والمشاهد أوضح من العائب، وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه من غيره، والقريب أوضح من البعيد في الجملة، وما ألف أوضح مما لم يلف ثم عقب الرمان على ذلك بأن عاب على بعض شعراء عصره قوله: وه عُرّة كنوب وصاا هرتها طرة كنوب صردود

من قبل أنه شبه بالأغمض، وما يقع عليه الحاسة بما لا تقع عليه^(٢)

٣- أجازته ابن رشيق، وقد يرد على الرمان فيما أحله على الشاعر:

أما ما شرط في التشبيه فهو الحق الذي لا يدفع، إلا أنه قد نحل على الشاعر فيما أخذ عليه، إذ كان قصد الشاعر أن يشبه ما يقوم في النفس دليله بأكثر مما هو عليه في الحقيقة كأنه أراد المدلعة، ولعله يقول أو يقول امتنع له معرفة النفس والمعقول أعظم من إدراك الحاسة، ولا سيما وقد جاء مثل هذا في القرآن الكريم وفي الشعر الفصيح^(٣).

وذهب ابن سنان إلى جوازه وعده من قبيل المحسوس بالمحسوس، فقال:

فإن قيل قد مضى في كلامكم أن المشبه به يجب أن يكون معروفاً واضحاً آتياً من الشيء الذي يُشبهه، فما تقولون في قوله تعالى في شجرة الرقوم (إنها شجرة تمزج

(١) شروح التلخيص ج ٣١٠٤٢٠٣

(٢) شروح التلخيص ج ٣١٢/٣، خزانة الأديب ٢٢٨، نهاية الإيجاز ٥٩

(٣) العجلة ج ١ / ١٩٥

في أصله الجحيم، طُلِّعَها كأنه رموس الشياطين) ورموس الشياطين غير مشاهدة؟
 قيل: إن الزقوم مشاهد، ورموس الشياطين غير مشاهدة، إلا أنه قد استقر في
 رموس الناس من قح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد، حتى إسم إذا شهوا وجهها
 بوجه الحور العين كان تشبيهاً صحيحاً، وإن كانت الحور لم تشاهد، ولم يستقر في
 رموسهم قح طبع لرقوم كما استقر في رموسهم قح رموس الشياطين، فكان شبه
 به أوضح، وفي رموس الشياطين من المبالغة في القبح ما ليس في طبع الزقوم.
 وقد قيل في بعض التفاسير: إن الشياطين لها الحيات، وعلى هذا القول يسقط
 السؤال، لأن الحيات مشاهدة^(١).

ورأى ابن الأثير أنه ألطف الأقسام الأربعة^(٢)، لأنه نقل الصورة إلى غير صورة
 ويقول العلوي: هو من لطيف التشبيهات وأرقها وأدخلها في البلاغة.
 ووجه البلاغة فيه: هو إلحاق المعاني بالأمور المحسوسة المدركة في الظهور
 والجلاء فيصير في الحقيقة كأنه تشبيه محسوس بمحسوس، وهذا في نهاية المبالغة^(٣).

ومن اختلاف وجهات النظر تلك بين العلماء، جاء الخلاف بينهم في وقوعه في
 القرآن الكريم، فأكبر بعضهم وقوعه فيه محتجاً بأن الكتاب الكريم جرى على
 الأصل الأبلغ في أن الحسى أصل للعقل.

وقال بعضهم بوقوعه وعدمه قول الله الكريم (إنها شجرة تخرج في أصل
 الجحيم، طُلِّعَها كأنه رموس الشياطين).

وحلاصة كلام العلماء في هذه الآية ثلاثة أقوال:

١- أن الشياطين هم مرده الحن القحاح الصور والمناظر، كما وقر في أذهان
 الناس

(١) سر الصلاة ٢٤٦

(٢) المثل السائر ج ١/١٣٠، والأقسام الأربعة تشبه صورة بصورة، ومعى بمعى، وصورة بمعى، ومعى
 بصورة.

(٣) الطراز ج ١/٣٠٧

٢- أن الشياطين الحيات على جارى تسمية العرب.

٣- أن الشياطين شجر مخصوص مكر الصورة

وعلى القولين الآخرين لا يكون التشبيه في الآية من قيل تشبيه المحسوس
 بالمعقول، وعلى القول الأول يكون منه.

ويظهر رجحان من ذهب إلى أن الشياطين هم المعروفون في أختلنا وتصوراتنا،
 لأن العرب تتمثلهم كما تتمثلهم اليوم على غاية الشناعة والبشاعة، كما كانت
 نصف الملائكة بالحن والجمال، فقد تركز في الطباع قح الشياطين كما تركز حسن
 الملائكة، وسدت شبه كل مودة في المسح باشيص وكر مودة في الحسن بالملائكة،
 وقد قال أبو الجهم العجلي في ابنته ظلاماً:

كَانَ ظِلَامَةٌ اخْتِ شَيْبَانٌ يَتِيْمَةٌ، وَوَالِدَاهَا حَيَّانٌ
 الْعُنُقُ مِنْهَا عُطْلٌ وَالْأَذْنَانُ وَلَيْسَ فِي الرَّجْلِ إِلَّا خَيْطَانٌ
 وَقُصَّةٌ قَدْ شَيَّطَتْهَا النِّسِرَانُ فَهِيَ الَّتِي يُذْعَرُ مِنْهَا الشَّيْطَانُ
 أفلا تراه قال ذلك وإن لم يره، لما قرّر في القلوب من نكارتة وشناعته^(١).

وقد كثر هذا النوع في الشعر، كقول الشاعر:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ، وَالظَّلَامُ كَأَنَّهُ يَوْمُ النَّوَى، وَفَوَاضُ مِنْ لَمْ يَعْشَقْ
 فقد جعل الشاعر يوم النوى أشهر من السواد من الظلام فشه به، وكذلك القلب
 القاسى بوصف بشدة السواد، فجعله الشاعر أشهر في السواد من الظلام فشه به.

وقال أبو نواس في الخمر:

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبُرْءُ فِي السَّقَمِ

وقال آخر:

كَأَنَّ انْتِصَاءَ الْبَلَرِ مِنْ تَحَبُّ عَمِهِ نَحَاةً مِنَ الْيَأْسَاءِ بَعْدَ وَقُوعِ

(١) انظر من التشبيه ج ٢/٩٧ وما بعدها

ويسخر شوقى من المشركين، ويهزأ بهم، ويمثل صلاتهم وإعناقهم تمثيلاً بشعاً،
مقول

فَأَذْبِرُوا وُجُوهَ الْأَرْضِ تَلْعَنُهم كِبَاطِلٌ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُتَهَيِّمٌ

وبهذا نرى أنه ليس في القرآن سوى تشبيه المحسوس بالمحسوس، وتشبيه
المعقول بالمحسوس، أما تشبيه المعقول بالمعقول فلا يوجد في القرآن أصلاً، وأما
تشبيه المحسوس بالمعقول في القرآن فعليه الخلاف السابق - ونرجع جوازاً لأنه ليس
من مطلب الصورة التشبيهية أن توفر إقناعاً عقلياً بقدر ما تثير انفعالات نفسية
تتجاوز حدود العقل البسيط.

(ب) تشبيه التمثيل

دعا القرآن إلى الإيمان بالبعث وبالقيين بالدار الآخرة، لكن تلك الدعوة لقيت
صدوداً من الكافرين، وعناداً من المشركين، فكان لا بد أن يتضمن القرآن من
أساليب البيان والتصوير ما يزهدهم في الدنيا ويرغبهم في الآخرة، ويحتوى من
صور التمثيل ما يصور قصر الحياة الدنيا - التي عظموها بقولهم: ما هي إلا حياتنا
الدنيا - ويسمو بالحياة الآخرة ويكشف لهم عن حقيقتها، ويحسم فناء هذا العالم
العالم بالحيل والامال.

وقد وجد القرآن الكريم في الزرع يرثوى من الماء فيصبح هجاً نضراً، ولكنه
لا يلبث أن يذبل ويصفى، وتندروه الرياح، وجد انحراب في ذلك شبهه بحبه
الدانية، فأطبل في التشبيه مرة، وأوحز أخرى، وسأوى بين الطرفين، فكان التشبيه
بين بسط وقص وسأوى. فقال سبحانه:

١ - (وَمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَخَلَطَ بِهِ سَبْتٌ لَأَرْضٍ مِمَّا
يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ، حَتَّى إِذَا أَصْبَحَتْ الْأَرْضُ رُخْفًا، وَأُزِيَّتْ، وَطُرْ أُنْبِيْ أَسْمِ

قَادِرُونَ عَلَيْهَا، أَنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ يَنْسُ بِالْأَرْضِ)
(يونس ٢٤).

٢ - وقال: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به
نبات الأرض فأصبح هشيماً تَلْرُوهَ الرِّيحَ) (لكهف ٤٥).

٣ - وقال: (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكثُرُ في
أُمُورِ الْوَلَدِ، كَمْشَ عَيْتٍ ائْتَحَبَ كَصَدْرَتِهِ ثُمَّ يَبْغُ فَزْرَةً مُضْفَرَةً ثُمَّ يَكُونُ
حُطَامًا) (الحديد ٢٠).

فتجد أن المشبه في كل الآيات السابقة: حال الدنيا في إقبالها، وبصرتها،
وعرور الإنسان بها، وإسراع الزوال إليها.

والمشبه به: حال النبات وقد اختلط به الماء فتنا وادهر، وزين الأرض حتى
تعتق به أصحابه، وظنوا أنه أصبح بمان من الأبد، ويمتحنى من المهلكات، إذ
هو ييس ويزول، ويصبح كأن لم يكن.

ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من أن كلا منهما يمر ويترهو حتى يكون في حالة
تسر وتفر، ثم لا يلبث أن يزول.

ونلاحظ أن المشبه في الآية الأولى والثانية يمر مراراً سريعاً خاطفاً - الحياة الدنيا -
وفي الآية الثالثة طال عرض المشبه - كما يراه الكفار - فهي لعب، ولهو، وزينة،
وتفاخر بينكم، وتكثُرُ في الأموال والأولاد، وذلك ليؤدى غرضاً، ويؤكد هدفاً،
وليقول للكفار: إن هذا الذي تستطيرون أمده في تصوركم إنما هو قصير زائل،
وعرض حائل.

وحينما نظر إلى وجه الشبه الذي يجمع بين الطرفين نجد فيه كثيراً من التفصيل
الذي يحتاج إلى إمعان في الفكر وتدقيق النظر

وفي الآية الأولى مثلاً نجد أن المشبه به يحتوى على عشر جمل، وقد دخل
بعضها في بعض حتى كأن الحمل العشرة حمه وحده، ووجه الشبه فيها منتزع
من مجموع تلك الحمل من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، حتى أناساً لو

اسقط منها جملة واحدة في أى وضع أحل ذلك بالمراد من التشبيه، وكل تشبيه فيه وجه الشبه على تلك الصفة يسمى «تشبيه عثبي»

فالتشبيه التمثيل : هو ما يكون وجه الشبه فيه وصفاً مركباً متزجاً من متعدد - أمرين أو أكثر - .

وتركيب المراد عند البلاغيين : هو لصورة المتكاملة من مجموع الألفاظ المستخدمة للكشف عن الغرض المقصود، وهذا أعم من التركيب عند النحاة الذين يقسمون التركيب إلى «إسنادى أو إضافى أو مزجى» .

* * *

واليث بعض الآيات القرآنية التي تزيد التمثيل إيضاحاً وبياناً :

القرآن الكريم يرى أن أعمال الكفار لا تنفع فيها، ولا خير منها، فيصور ذلك بعدة صور مطبأة مرة، وموجزًا أخرى، ليستقر المعنى في النفس، ويحدث أثره في القلب فيقول :

١ - (و الذين كفروا أعمالهم كسرب نعيلة) يحسبه لصفاء ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده، فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كطلمات في بحر حتى يغشاها موج من فوقه موج من فوقه سحابت، طلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها (النور : ٣٩، ٤٠)، ففي الآية المشبه واحد والمشبه به أشد

فالمشبه : هيئة أعمال الكفار التي تظهر في أعينهم جميلة، لكنها في الحقيقة لا خير فيها ولا ثواب عليها.

والمشبه به : (١) هيئة السراب بصحراء واسعة بظنه الظمان ماء، فيجهد نفسه في الذهاب إليه، فلا يجد هناك شيئاً

وجه الشبه : الهيئة الحاصلة من الأمل المطمع والهاية المؤسفة.

والمشبه به : (ب) صورة الظلمات الكثيفة في البحر المتلاطم الأمواج المتداحل بعضه في بعض المظلل بالسحاب.

وجه الشبه : صورة أشياء متراكمة وختلت من الفائدة

إن السق الدغوى والنظم الإلهى يصفى حياة على الصورة التشبيهية، ويكسبها طلالاً إيجابية لا يستطيع طرفى التشبيه وحدهما أن يقوما بها، فالنظم الإلهى والتركيب الدغوى يبرز حالة نفسية حركية تصور معاناة سائر في صحراء فحمة تناوشه أحاسيس لظماً ويحاول تهدئتها بقرب إدراكه الماء الذى يتكشف في نهاية الطريق عن وهم خادع.

وقوله تعالى : (يحسبه الظمان) يشير إلى أن الظمان أشد حرصاً عليه وتعلق قلب به، ولو قيل : يحسبه الرائي ماء، ثم يظهر أنه عن خلاف ما قدر لكان بليغاً، لكن نظم القرآن أبلغ^(١).

وقوله : (حتى إذا جاءه) لفظ (حتى) قد يثير أحاسيس عديدة لرحلة مضنية وقد أن لصاحبها أن يروى عنه بعد أن أتى عليه طول الطريق، ثم لفظ (إذا) التي تكون للمصاحفة، وتركيب المعنى لقوله (جاءه) تعطى حسناً للتلاحق النفس بين الفعل (جاء) وصاحبه، وبين «الماء» التي يراد بها هذا الماء المتوهم أو السراب المحقق، وتكون (لم) الباقية لذير اليأس وفقدان الأمل، «ولم يجده» ما تتصل بالماء بالفعل (يجده) كما اتصلت بالفعل (جاءه) من قبل. هناك أمل يلتصق بالجوانح، وهما يأس عائق الذات، تصنع أوله «الماء» في الأول، وتصنع آخره «الماء» في الثانى، ثم تنتصب كلمة (شيئاً) لتكمل صورة العدمية المطلقة^(٢).

٢ - وقال : (مثل الذين كفروا برؤسهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء) (إبراهيم ١٨).

فقد وجد القرآن في الرماد الدقيق الذى لا يقوى على البقاء أمام الريح في يوم عاصف شيئاً لأعمالهم التي لا أثر لها ولا نتيجة.

(١) ثلاث رسائل في الإعجاز ٨٢

(٢) في اللاه العرية ١٦٩

٣- ويقول. (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صير^(١))
أصابته حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته (آل عمران ١١٧).

وهذه الصورة المطولة نجد لها صورة موحزة في قوله تعالى:

٤- (وَقِيمًا إِلَى مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَا هَبَاءً مُثَوَّرًا) (الفرقان ٢٣).

ووجه الشبه في كل ذلك: الهيئة الحاصلة من وجود أشياء خادعة في المظهر ولكنها سيئة في النهاية - فهو هيئة موكدة، لذلك كان من قبيل التمثيل.

* * *

كذلك لعب التمثيل دورًا كبيرًا في التأثير في النفس كى تسمح بالمال، وتذله سخية، تخفيفًا على الطوائف العقيمة وإسهامًا في إسعاد طبقات المجتمع الكادح، فالمال عصب الحياة، والحرص عليه نظرة في النفوس، ولعل صور التمثيل تلك جاءت تلبية لحالات واقعة كن التمثيل يواجهها في الجماعة المسلمة يومذاك، يقول تعالى

١ (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِسَعَادَةِ اللَّهِ وَلِتُثَبِّتَ مِنْ أَفْسِهِمْ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ مِنْ تَرْتِينٍ أَصَابَ وَاسًّا دَنَتْ أُكْحُهَا صَعْفَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يُصَبَّهَا وَاسٌّ فَطُرْ) (سورة ٢٦٥)

٢ ويقول (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعِ سَبِيلٍ فِي كُلِّ سُنتٍ مِنْهُ حَقٌّ، وَلَهُ يُصَاعَفْ لِمَنْ يَشَاءُ) (البقرة ٢٦١)

والشبه في كلا الآيتين: حال من ينفق في سبيل الله ابتغاء مرضاته ثم يلقي حزاء واقفًا.

والشبه به في الآية (١): حال بستان استقر على مرتفع من الأرض يسقى ماء المطر فحاء البستان ثمره مضاعف

(١) الصير: يرد بصيرب الساتة والحرث.
(٢) الأكل الثمره الطل. المطر الخفيف

والشبه به في الآية (٢): هيئة الحبة أنشت مع سنابل وفي كل سنبله حبة حبة.

ووجه الشبه: صورة من يعمل عملاً قليلاً ثم يحى من ثماره أكثر.

فهذا التشبيه له أثر في النفس، ووقع في القلب، فتبدل النفوس المال راضية مرضية

ولقد جعل القرآن هذا الثواب العظيم لمنفق، بشرط ألا يداخل الإنفاق رياء أو نفاقاً فيصور حانة من يتصدق لا عن باحث نفسى، ولا وازع حقيقى، فيقول عن طريق التمثيل والتصوير:

٣- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رَدًا عَلَى النَّاسِ وَلَا يُوَفُّهُمُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْبَرُونَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا) (البقرة ٢٦٤).

والشبه: حال المنفق ماله في الصدقة رياء وسمعة.

والشبه به: حال الحجر لأملس وقد عطته قشرة رقيقة من التراب يطه الباطر صالحاً للزروع ولإنبات، لكن وابل المطر لم يلبث أن يزيل هذه القشرة فيبدو الحجر عن حقيقته ليس موضعاً لمخصب، ولا محلاً للإنبات.

ووجه الشبه: حالة الشيء تبدو للرأى حسنة ولكن نهايته شينة.

وبإمعان النظر في هذه الآية نجد لها هي الوجه المقابل للصورة في الآية الأولى:

فانصدقات التي تبدل ابتداء وجه الله هي في الأولى كالحبة فوق ربوة، وفي الصورة المقابلة كحفة من التراب على حجر أملس.

والواصل مشترك بين الصورتين، ولكنه في الصورة الأولى يحصب ويمرع، ويصيب الحبة فيمتزج بالترية فيخرج الثمر أصعفاً ولو لم يصبها وابل، فإن ما فيها من الخصب والاستعداد للإنبات يجعل الميل من المطر يهزها ويحييها، وفي الحانة

(١) الصعوان: الحجرة الوابل - المطر العريز، الصلد: الحجر الأملس

الثانية يصيب الواابل الصفوان فيكشف عن وجه كالح غير صالح للزراعة، ولا قابل للإسبات.

كذلك كان لتمثيل لقري ثرى كشف حصائص المدفنين، ونصوبهم أكثر من صورة تشبيبتكره وتُحذف من أكثر من روية، فقد كان المافقون في المجتمع الإسلامي في نصاهر مع المسلمين، ولكن سيوفهم وتفكرهم مع شركيين (وردا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزؤن) (القرة ١٤)، وهم يحسبون أنهم بذلك يحسنون صنعا لأنفسهم ويحتارون لها أحسن المنازل، وأقوم السبل، فألقى القرآن الكريم فافتضح سرهم، وصورهم في صور منكرة بطريق التمثيل، فيقول:

(منهم كمش من شؤم من أصدت ما حوته ذهب به سرهم وبركهم في صمات لا بصرو، صم، نكم، عنى، فهم لا يرثعون - أو كضيب من الساء فيه ظلمات ورغد وترقى يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصوايق حذر الموت) (القرة ١٧ - ١٩ القرة).

فالمشبه: حال المافقين يتظاهرون بالإيمان ثم يعودون إلى ما كانوا عليه من الكفر.

والمشبه به: (١) حال السارى الذى يوقد النار ليلاً فيعرف طريقه ثم لم يلبث أن يذهب الضوء ويشمل المكان ظلام داس، فصار يتخطى في السير ويتردد في حطو.

وعما زاد هذا التمثيل روعة، انسق اللغوى والطيم الإلهي، فقد قال تعالى: (ذهب الله بنورهم) ولم يقل «بضوئهم» لأن الضوء هو زيادة في النور، فلو قال: (بضوئهم) لأوهم الذهاب بالريادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهاباً بالكل، لأن الإضاءة فرط الإنارة، دليل ذلك قوله تعالى: (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) (يونس ٥).

ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من وجود هداية قصيرة ثم يعقبها حيرة

والمشبه به: (ب) حال السائر تحت صيب من المطر وقد صحبه ظلمات ورعد وبرق، أما الظلمات فتحول بين السائل وبين الاهتداء إلى سواء السبيل، وأما الرعد فممتناه في الشدة إلى درجة أنه يتقيه بوصع أذنه، وأما البرق فيكاد يخطف الأنصار، فصاروا يحشون إذا أصابهم البرق، ويقفون حين يطفئ النور.

ووجه الشبه: صورة قوم عرّضت عليهم أسباب الهداية فانتزعوا بها قليلاً ثم ما لبثوا أن أحاط بهم الظلام والضلال.

ومن هنا ندرك أن كل تحليل تشبيه دون عكس، إذ التمثيل يختص بما كان وجه الشبه فيه متزعجاً من متعدد.

ولتمثيل موقعان:

١ - أن يكون في مفتتح الكلام قياساً موضعاً، وهو كثير جداً في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى (مثل الذين يعمهون أموالهم في سبيل الله كمش حنة استنتت سبع سائل في كل سبعة مائة حنة).

٢ - ما يجيء بعد تمام المعنى لإيضاحه وتقريبه، فيشبه البرهان الذى تثبت به الدعوى، كقول أبي المتاهية:

تَرْجُو النجاة ولم تَسْلُكْ مسالكها إِنَّ السفينة لا تجرى على اليبس

تأثير تشبيه التمثيل وصلته بالنفس

هناك أسباب جعلت للتشبيه هذا التأثير، واقتضت أن يصع في النفوس صعب السحر، وقد كان لعبد القاهر الجرجاني الفصل في تقرير ذلك قبل أن يقرره علماء النفس والتربية برمن بعيد^(١)، ومن تلك الأسباب:

(١) انظر مواقع التمثيل ٥٥٥ في أسرار البلاغة ٩٢ وسامعها

١ - إن التشبيه التمثيلي ينقل النفس من الخصى إلى الجلى .

فالمعروف أن العلم المستمد من طريق الحواس يفصل العدم المستمد من جهة الفكر والعقل، وقد قيل في الأثر: «ليس الخير كاليقين» وليس الطن كالمعانيه . كما أن العلم المستمد من طريق الحواس أصبغ إلى النفس من العلم المستمد من طريق العقل والروية، لأن العلم يجيء أولاً من طريق الحواس، ثم من جهة لعقل والفكر

نأمل حسن التشبيه وقوته وتأثيره في قوله تعالى: (والذين كفروا أعمأهم كسراب بقيعة يَحْسِبُ الطمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) (النور ٣٩) ولو أن لقرآن احتار التعبير الذي لا تصوير فيه وقد مثلاً: «والذين كفروا أعمأهم غير مشمرة» لم يكن له في النفس هذا الأثر القوي الذي يصور عدم جدوى هذه الأعمال، إذ يقرنه بشيء نراه بأعينا ونكاد نؤمن بوجوده إيماناً لا يشرب إليه الشك، فالصورة التي أتى بها القرآن تزيدنا اقتناعاً بعدم جدوى أعمالهم.

وقد صور القرآن كثيراً من الأمور المعنوية بالأشياء الحسية لهذه العاية، وعودة إلى تشبيهات القرآن المعقول بالمحسوس نجد ذلك واضحاً

ويقول المذنبى يمدح سيف الدولة:

فإن نقي لاسم وأنت مهم فإل سبك بعض دم العرر

فقد شبه الممدوح في امتيازه عن نقي جنسه إلى حد بطل أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة، بل صار أصلاً بنفسه، بحال المسك في امتيازه على جميع الدماء التي تجري في الغزال، حتى صار كأنه حس مستقل بنفسه، ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من تعوق العرع على أصله.

وقد أحق في هذا التشبيه العقل بالحسى، فأبرز المشبه العقل في صورة أنست بها النفس واطمأنت، لأنها نقلت إلى ما هي به أعلم - وهو الحس - كما أنه قد احتج لدعواه، وأبان أن لما ادّعاء أصلاً في الوجود، ويرأ نفسه من صفة الكذب، وباعدها من سفيه المدم على غير بصيرة، والتوسع في الدعوى غير بينة

ويقول أبو محمد أيضاً:

وطول مقام المرء في الحى مخلق لدباحتيه فاعترت تنجده
فإن رأيت الشمس زينت محبة إلى الناس أن ليست عليهم برمد
شبه أبو تمام حاله في إثارة الإقامة حياً والاعتراب حياً، بحال الشمس تطلع نهاراً وتغرب ليلاً، ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من عرفان فضل الشيء ومكانته لظهوره حياً واحده حياً

وقال محزون ليل:

فأصبحت من ليل الغداة كقالبض على الماء خائنة فروج الأصابع
فقد خاب الشاعر في ظنه أنه يتمتع بها ويسعد بوصولها، فشبّه حاله تلك بالقالبض على الماء وقد خائنته فروج الأصابع.

فكن تلك الشواهد تصوير رائج للمعقول بالحس، لتقوية المعنى وتأكيده في النفوس، كما هو معلوم وثابت من أن المشاهدة ذات أثر فعال في النفوس، حتى مع عدم تصديق الخبر، وعدم تسرب الشك إليه، وقد حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام، فقال: (وإذ قال إبراهيم رب أربي كيف تحبى الموتى، قال أولم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي) (البقرة ٢٦٠).

٢ - أن التمثيل يجمع بين أمرين متمايزين مختلفين:

وبيان ذلك: أن المساعد بين الشيتين كلما كان أشد كثر إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب، وأن تطلب الشبه للشيء من غير حسه وشكله، والتقاط ذلك له من غير محله، حتى يصيرا به مثلين متباينين، ومؤتمنين مختلفين حتى إن الصورة الواحدة ترى في السماء والأرض، يقول الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم:

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنفود ملاحية حين نورا

(١) الثريا: مجموعة من النجوم مدبرة بشكل والمكان: خلاصى نعم ديم وشديد اللام وتجردها: عيب طوبى أبيض. نور الروع: أدرج نصيبه

شبه الشاعر الثريا في الصبح بمنقود العنب وقت إدراك نضجه ووجه الشبه :
هيئة اجتماع صور بيض مستديرة صغار الأحجام في مرأى العين.

ومن صور التباعد بين الطرفين أن يكون المشبه به خيالاً - وهو ما لا يتصور
وجوده إلا في الذهن والخيال - كقول أبي بكر الصُّوَيْرِي :

كُنَّا سَاطِعُ يَدٍ بِحَوْ ثُلُوفٍ سِدٍ
كُدْبَابِيسٍ عَسَجِدٍ قُضُّهَا مِنْ زَبْرَجْدٍ^(١)

شبه أزهار الثُلُوف الصفر على سيفها الخضر بدبابيس ذات رأس كالكرة من
الذهب وقصبتها من الزبرجد الأخضر، ووجه الشبه : الصورة الناتجة من وجود
شيء مستدير أصفر على حامل مستطيل أخضر.

وعلى هذا يجرى قول ابن المعتز :

كَأَنَّ عَيُونَ الرُّجَسِ الْقَصَّ حَوْلَنَا مَدَاهُنْ ثُرُ حَشَوُهُنْ عَقِيقُ^(٢)

فقد شبه زهر الرُّجَسِ العض بمداهن النر يتوسطها العقيق، وهي صورة
طريقة لا توجد إلا في الخيال، لإبراز المشبه في صورة الطريف البديع، ووجه
الشبه : الهيئة الحاصلة من اجتماع أجرام صفار بيض مستديرة متلاصقة على شكل
دائرة تحيط بدائرة أخرى حمراء.

وقد يبرز المشبه في صورة أابقة تحلب اللب، وتهر العفل، ويظهر في صورة
يندر حضورها في الذهن عند حضور المشبه، كقوله تعالى : (وَالْقَمَرُ قَدْرًا مَازِلٌ
حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)، فصورة «العرجون القديم» غير نادرة الحضور في
الذهن، بل شائع ومطروق، ولكنها تندر عند استحضار صورة القمر، للون
الشاسع بين الصورتين، والقمر مسكنه في السماء، والعرجون مقره الأرض،
والقمر مثال العلو الهداية، والعرجون شيء تافه، وشتان ما بين الصورتين.

(١) يدور بفتح النون وسكون الراء وفتح الفاء - مبات يث في الماء الراكدة بهذا ماوى سطح الماء أرق،
ويهره أسمره وسبقته حفر كالأنبيد، والعسجد : الدبابة - والزبرجد - حجر شمس وأشهره الأخضر

(٢) مداهن - جمع مداه مثل قعد، وهي قارورة الذهب، عقيق - حجر أحمر

ومنه قول شاعر

وَلَا زَوْرِيَّةٌ تَرَاهُ بِزُرْقَتِهَا بَيْنَ الرِّيَاضِ عَلَى حُرِّ الْيَوَاقِيتِ
كَأَنَّا فَوْقَ قَامَاتٍ صَعَقْنَ مَا أَوَائِلُ النَّارِ فِي أَطْرَافِ كَبِيرَتِ^(١)

كان المناسب للشاعر أن يشبه أزهار النفسح وهي على سيقانها بما يتناسبها من
الأزهار، لكنه شبهه بصورة أوائل النار في أطراف الكبريت عند شوبها، فالشبه به
غير نادر الحضور في الذهن، إذ هو منتشر بين الناس، لكنه يندر حضوره عند
حضور صورة النفسح وهي على سيقانها لما بينها من بعد المواطن، فهذا زهر
تدنى، وذاك لبيب محرق.

يقول عبد القاهر^(٢) تعليقاً على غرابة هذا التشبيه : «لأنه إذ ذاك مُشَبَّهٌ لثبات
عض يرف^(٣)، وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف^(٤)، بلهب نار مستولٍ عليه
يس وناذ فيه كنف^(٥) ومنى طماع وموضوع حسبه عن أر شيء إذا صهر من
مكان لم يمهّد ظهوره منه، وخرج من موضع ليس بمعدن له، كانت صباة النفوس
به أكثر، وكان بالشفق منها أحدره.

وتارة يتوهم في المشبه اجتماع الضدين، كأن يجعل الشيء تارة نازلاً، وأخرى
ماء، كقول الشاعر :

لَسْتُ ذَا دِلَّةٍ إِذَا عَصْنِي الدَّهْرُ وَلَا شَاغِخًا إِذَا وَاتَسَقَ
أَنَا نَارٌ فِي مُرْتَقَى نَظْرَالِحٍ سَدٍّ مَاءٌ جَارٍ مَعَ الْإِخْوَانِ^(٦)

(١) لا زورقة بكسر الزاي وفتح الواو وسكون الراء - صفة لموصوف معدوم أي رب أزهار من البمع
لا زورقة، نسبة إلى حجر اللارورد - وهو حجر أزرق، نسبة تشبيهه، زهر - تبه، والأكثر عجة مبياً للسهول،
حر اليواقيت - من صفاته الصفة للموصوف، وانراد بها إما حقيقة الياقوت الأحمر، وإما الأبرار الحجر على

لاستعاره، القامات - سوق السات، صمغها بها - انحنى بها

(٢) أسرار السلاحة ١١٠

(٣) يلالا، أو جيز

(٤) يرق أو يتحرك

(٥) لون بين السواد والحمرة

(٦) مرنى - موضع

فقد شبه نفسه في نظر أعدائه بالنار في الإيلام، ومع أصدقائه بالماء في اللطف والصفاء، واحتجاج النار والماء في شيء واحد مما يحرك في النفس قوى الاستحسان وليس كل جمع بين شيئين متباعيين مختلفين في الجنس يحالفة التوفيق والسداد، ويحظى من النفوس بحسن القول، لأنه إما يكون مقولاً حيث يصيب الأثر به شبهةً صحيحةً معقولةً بين المختلفين، ولا يجد الملاءمة بينها مذهباً صحيحاً ومبطلاً مستقيماً، أما أن يستكره الوصف ويروم أن يصوره حيث لا يتصور فليس بمقبول، ولا بمستحسن، وحينذاك يكون كالمصانغ الأخرق يضع تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه، ولا يقلانه، حتى تخرج الصورة مشوهةً مضطربةً، تسو عنها العيون، ولا ترضى عنها الأذواق السليمة.

ولست وظيفة التشبيه أن يضع حرف التشبيه بين شيئين ليحقق أحدهما بالآخر من غير تلازم وتدفق سهل، بل حكمة خفية هي أن يظهر وجه الشبه ويثبته، ولا يتركه بيان ما لا يكون، وتثليل ما لا تتمثله الأوهام والظنون^(١).

٣- إن التشبيه التمثيلي يحتاج إلى الفكر، وإعمال الروية، وتحريك الخاطر^(٢):

فمن المركز في الطاع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب، أو الاشتياق إليه ومعاينة الحنين نحوه، كان نيله أحل، وبالميزة أولى، فكان موقفه من النفس أجل وألطف.

(١) البلاغة النظمية ص ١١٢

(٢) انظر في هذا أسرار البلاغة ١١٨ وما بعدها. وقد تحدث عن الموضع في الشعر، وقسبه إلى ما ساء الخطأ في الأسلوب أو الفكرة ورده، وإن ما سبه دقة المكرة وصحتها فأشاد به، وقد هند أحد النحويين بذلك أول واضح لأصول الزميرية في الأدب العربي - وهو مذهب العموس والإيهام الذي يرى القيمة والحال في المصور والتصورات الصبائية، والابتداء والنهاية في الوصوح وفي شليط الأضواء كلها من الحقيقة -

انظر دراسات في الأدب، بغداد ١٣٣٧، ١٠.

وقد سعى الدكتور دكي مبارك هذا النوع من الصور التي تحتاج إلى دقة الفكر وتحريك الخاطر والبيان المقنع الذي قيل فيه وإن من البيان لسحره والذي قيل فيه - وشيئاً لا نهاية له - البيان والخيال في النفس من بهته، شراف الدباجة، ونجدة رشاقة الأسلوب، كما يسحره آخرون المشرق، ويضله الغد الزرنيخ واستعيد الذي أعياه غير التعقيد المعروف في علم المعاني، فست أريد النفس والعصم حين تحدث عن البيان المقنع، كي لا أريد الوجه المثوية حين أتكلم عن «الخيال» المقنع، وأما أصعب البيان وأحسن المعتقد حين يكون دلوجه الوسيم والأسلوب الجميل، فهو في التأثير يمار في جعلها الديب، ومن هنا كان الأقدمون يظنون أن الشعر من وحى الشياطين، ومن أقدم من الشياطين على العرش بالقوى^(٣).

يقول المتنبي يرثى والدته سيف الدولة:

ولو كان النساء كمن فقذنا لفصلت النساء على الرجال
وما التأنيت لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للرجال

فهذا احتجاج لتفضيل المرأة على الرجل بحجة لم يسبق إليها^(١)، يقول: لو كانت النساء كمثل والدته سيف الدولة في كمال الصفات لفضلن على الرجال، لأن الشيء لم يكن شريعاً أو غير شريف لتأنيث اسمه أو تذكيره بل يثبت الشرف للمسميات من حيث أنفسها وأوصافها لا من حيث أسماؤها، فرب تأنيث يقصر لتذكيره ولا يبلغ مبلغه، والمثل في ذلك الشمس والقمر، فالشمس مؤنثة والفضل لها، والقمر مذكر وهو لا يعادل بهاء فالشمس أشمل نوراً، وأكثر طهوراً، وهي مؤنثة، ولقمر أقل نوراً وهو كثير التنقل، ويصيبه المحاق، وهو مذكر.

ويقول مخاطباً سيف الدولة بعد هذا، فقال:

رايتك في الذي أرى ملوكاً كأنك مستقيم في محال^(٢)
يقول: أنت تفصل الملوك كفضل المستقيم على المعوج

وقد انتقد أبو الحسن محمد بن أحمد الشاعر هذا البيت أمام سيف الدولة، وكان لمنهجي حاصراً وكان نقده مصعباً على أن المحال ليس ضد المستقيم، بل صده المعوج، فقال سيف الدولة: في كنت تقول؟ قل: كنت أقول: كأنك مستقيم في اعوجاج، قال: فما تفعل في البيت الذي يليه:

إن تمق الأسم وأنت منهم فإن المسك بعض ذم الغزال

والبيان المقنع هو ذلك الراجح الذي تسكن إليه القلوب ويحار في تعينه المقول، هو ذلك النوع الذي يقر به الناس ويعجبونه، ثم تقرأه الخاصة يمتدحونه، ويحارون في تحليل حسنه، ثم لا يحسن واصفهم، إلا أن يقول: هذا هو نسج إخلال^(٣). (انظر حواراً بين الشعراء ٤٦، ٤٨)

(١) يقول ابن الأثير: فلو عاش امرؤ القيس، ثم مات ثم عاش، ما أداه فكه إلى تدقيق القول في هذا المعنى الذي أورده المتنبي في قوله: وعذ ما بين البيت والصحح المتن عن حيث المتن ص ١١٠.

(٢) محال المعوج، والمحال من الكلام ما عكس به عن وجهه.

قال : كنت أقول :

فإن اليَئسَ بعضُ دم الدُّجَاحِ

نصحتك سبق الدولة، ثم ضرب يده على الأرض، وقال : حسن، مع هذه السرعة، إلا أنه يصلح أن يباع في سوق الطير لما يمدح به أمثالنا يا أبا الحسن.

وقال الديبغة يمدح النعمان بن المنذر :

وإنك كالليل الذي هو مُدْرِكِي وإن حلت أن المتأى عنك واسع

يصور الديبغة سلطان النعمان وسعة نفوذه، وأنه لا يفلت من قبضته هارب، فشبهه بالليل في وصوله إلى كل مكان، ويثار النابغة لليل على النهار مع أنه مجزلة الليل في وصوله إلى كل مكان دليل على أنه قد رَوِيَ وفكر فاهتدى إلى حالة إدراكه - وقد هرب منه - حالة سحق وعصب، والليل لما فيه من رهة وخوف أنسب بمقام الرهبة والخوف من النهار الذي فيه من وضوح الرؤية التي تُسرُّ وتؤنس...

ولتأكيد هذا يقول عباس بن الأحنف :

نعمة كالشمس لما طُنَعَتْ بَثَّ الإشراق في كل بلد

ودلت لأنه قصد من تشبيه النعمة بالشمس أنها نعم الأفطار، وتصل إلى كل مكان، وهو نفس ما قصده النابغة من تشبيه النعمان بالليل، إلا أن النعمة لما كان تُسرُّ وتؤنس، انتزع التشبيه لها من الشمس لدلالاتها على ذلك، ولو أنه انتزعها من الليل مراعيًا وصوله إلى كل مكان لأخطأ خطأ فاحشًا، لأن الليل يُرهب ويخيف بخلاف الشمس، فلكل مقام مقال.

ويقول عمرو بن لُحَا النيمي في مدح آل المهلب بن أبي صفرة :

أَلْ مَهْلَبٌ حُوِّلُوا شَرَفًا مَاخَازَهُ عَرَبٌ، لَا، وَلَا كَادَا
لَوْ قِيلَ لِلْمَجْدِ: حَدِّ عَنَّهُمْ وَخَلِّهِمْ بِمَا احْتَكَمْتَ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا خَازَا
إِنَّ الْمَكَارِمَ أَرْوَاحٌ يَكُونُ هَا أَلْ مَهْلَبُ دُونَ النَّاسِ أَجْسَادًا^(١)

والشاعر يشبه المكارم تحمل في بني المهلب لاتعدل عنهم بالأرواح تحمل في الأجساد لا ترحل عنها، ووجه التشبه : أن كلا حمل فيها لا غنى له عنه ولا قيام له إلا به.

ويقول ابن الرومي مصورًا حاله وقد رام العدو تصغيره والاردءاء به، فيأبى فصله إلا ظهورًا، بحال الشهاب من النار يمتص وهي ترتفع، فيقول :

ثُمَّ جَاوَلْتُ بِالْمُنْقِيلِ نَصْفِي سَرَى كَمَا زِدْتَنِي سَوَى التَّعْظِيمِ
كَالَّذِي حَاطَا الشَّهَابَ لِيَحْفَى وَهُوَ أَذْنِي لَهُ إِلَى التَّضْرِيمِ

فالذي يخاطبه ابن الرومي كان قد أغرى به شاعرًا هجاء يسمى : محمد بن يعقوب المعروف بمشقال، ليهجوه بأقذع الهجاء، فلم يحط ذلك من مكانة ابن الرومي، بل كان معاونًا على إظهار فصله، وإبراز مريده. ووجه التشبه : هو الهيئة الحاصلة من محاولة إخماد الشيء الظاهر بطريقة تؤدي إلى عكس المراد

فالتشبهات تلك، لم تكن الطرافة فيها آتية من جهة أن قائلها قد ابتدع بينها وجه شبه لم يكن له وجود في الواقع، بل لأن وجه التشبه كان موجودًا فعلاً ولكنه كان من الدقة واللفظ والحناء بحيث لا يكشف إلا ببذل مجهود فكري.

اختلاف الأذواق في قبول التشبيه

وخلود تشبيهات القرآن

اقتضت ظروف العرب، ومعيشتهم القاسية طولَ الترحل، وإقامة في الصحراء فكانوا إذا أثل الليل، وأظلم الجو، تحبوا جبالا وأوقدوا في قمته نارا، تهدى الضال وتؤنس السارى، حتى إذا لجأ إليها وجد عدها لأمن والقرى.

تعرف المسافة فضل هذا حين تفضل في الصحراء في الليالي الشاتية التي يعطى السحاب نجومها، وحين تغيب معالم الطريق، وتختفى دروبه، فإذا بدت هذه النار وسط هذا الظلام الخالك، هدأت النفوس، وأنس، وضمنت الراحة ولقرى.

هذا الحبل الموقد في قمته النار، وتلك الصفة الشائعة لدى العرب، جعلتها الحنساء لأحيها صخر مثلا، فقالت :

(١) حولوا * مُكُونُوا، حدِّ عنهم مل عنهم

وإن صخر لنتم لهده كاه علم في راسه سر
فهذا التشبيه عندما يسمعه العربي بطرب له، ويترنح لهذه الصورة التي قصد منها
تحديد صخر

لكننا اليوم لا نشعر بجمال تلك الصورة، فكم من معاصرينا غُبر طول الرحلة
في الصحراء، أو على السير فيها، أو حدثته نفسه ليقوم بجولة طويلة ليتعرف على
حياة أهلها وعاداتهم؟ ولهذا لا يُحسّ الحضرى هذا التشبيه، وما فيه من معاني
المجد والفخار، كما كان يحسه العربي، وأصبحت تلك التشبيهات وأمثالها - مما
لا نشاهدها ولا نفعل بها - تردُّ تقليدًا ومحاكاة، وهما لا يفتيان في التوضيح وحسن
الصورة.

ومثله قول عنترة يصف شجاعته:

يذْعُون عَنَرُ والرماحُ كأنها أَشْطَانُ سُرٌّ في لَبَانِ الأَذْمِ

فهو يصور شجاعته بأن القوم يادونه، ويستغيثون به وقت اشتداد الملحمة وقد
أصابت رماح لطيفة صدر مرسه، فصارت في حسه لكثرتها وطولها تشبه حال
الدلاء المدلاة في البئر لرفع الماء.

فالتشبيه في البيت نين فيه أثر البيئة، والحضرى لا يرضى ذوقه هذا التصوير
البدوي، إذ هذه الصورة تكاد تكون معدومة في عصره، بينما هي في عصر عنترة
كان لها شأن وأى شأن.

فقد كانت الحياة الحاهلية بعيدة عن التكيف، خالية من التعقيد في
مظاهرها، من مأكلي وملبس ومسكن، فالمنظر التي تحيط بهم أمور فطرية
كالكوكب، وعص الحبوب وقبيل من سبت، ومرق حيويه، كالحمة وبرحي،
أو وسائل حربية، كالسهم والسيف.

ثم هي حرة طليقة لا تخضع لقانون، ولا تتقيد بنظام، وقد خلت من العلم
والمنفعة، ولم ترهق العقل، ولم تكلفه الإمعان في البحث، والغوص إلى حقائق
الأشياء. وهي حياة طليقة. فلا قصور فخمة، ولا أبية ضخمة، ولا أشجار.

باسقة، يأكل العربي فيها لحم الماشية ويشرب لبنها، ويلبس من أصوافها وأوارها
وأشعارها.

فطبيعى إذن أن يكون ما يجيش في صدورهم من معان، وما يلايس أفكارهم
من أحيلة، صورة لحياتهم، فلا أثر فيه للتعقيد، ولا ظلل للتكلف، حتى إن
الفصيحة من قصائدهم، لا تستدعى كد الذهن، ولا إرواق الفكر.

فالعربى الجاهل إذا اشتكى الرجد - مثلا - لا يزعم أنه أضحي كالخلخال، أو
صار مثل الخيال، وعلى هذا سائر معانيهم في مدحهم ووصفهم.

وأما ما قد يطالع باطرقى أدهم مما يحتاج إلى الدقة والعمق، فهو شيء جاء عمرو
الخطار، أو خاضع للتنقيح والتهديب، كقول النابغة:

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المتأى عنك واسع

على أن ذلك قد يكون أثرًا لطل حصاره متى كان يجاهها مع المعين في الحيرة.
ومع ذلك فالندوة طاهرة في البيت فلا تشبيه بالممدوح على ما به من سواد
وظلمة وقياسه به، لا يستسيغه الذوق الحضرى، ولذلك أخذه سلم الخمار فغنى
عه هذ المغمز وقال:

وأنت كالدهر مبثوثا في حباله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكت عان الريح أصرفها في كل ناحية ما فأتك الطلب

فحياتهم قصت غليهم ألا يذهبوا في صوغ المعاني إلى إزعاج الفكر وحثه على
استخراجها من مكان محقق، ولو أتبع لهم ما أتبع لغيرهم من الحصار والمدينة
لكان لهم من المعاني والأخيلة ما يمحو العوارق بين هؤلاء وأولئك^(١).

كذلك التشبيهات المصنوعة الذي يدرك جمالها فرد دون آخر، كقول ابن المعتز
يصف الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة أثقلته حمولة من عتير

(١) انظر أثر المدح، الكريم و النمة العربية ٨٢ الشيخ أحمد حسن الباقورى دلو المعارف طنائيه

فلا يستطيع أن يفهم هذا التشبيه، ويلوك سر حسه إلا من كان يعيش في الحياة المترفة.

وقد قال أحد أمصار ابن الرومي يلومه: لم لا تشبه كتشبهات ابن المعتز^(١)؟ فقال: انشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله، فأشده البيت السابق، فقال له: زدني: فأشده:

كأنَّ الرُّبَّوبَ عِشَاءً هَامِيَةً
مَدَاهِرُ مِنْ دَهَبٍ فِيهَا بَقِيَّةٌ عَلِيَّةٌ^(٢)

فصاح: واغوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ذلك إنما يصف ما عيون بيته، لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظر إذا وصفت أين يقع قولي من الناس، فهل لأحد قط مثل قولي في قوس المعام؟

وقد نشرت أيدي الجنوب مطرد من الجو دُكاً والحوشي على الأرض
يُطرزها قوسُ السحاب بأخضر على أحمر في أصفر إثر مُبَيَّضٍ
كاذِبِال تحوُّد أقبلت في غلائل مُصَفَّاةٍ والبعض أنصر من بعض

وقوله في صبح الرقاق:

ما أنس لا أنس حازاً مررت به بدحو الرقاقة مثل اللحم للصبر
ما بين رؤيتها في كفه ككرة وبين رؤيتها قوزاء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجأة الماء يلقى فيه بالحجر

فليس لنا أن نقدم ابن المعتز لأنه استطاع تشبيه الأزيون بعد المطر بمدهن الذهب فيها بقايا العالية، وليس لنا أن نقدم ابن الرومي لأنه أجاد وصف الحمار وهو يدحو الرققة، فإن المسق هنا وهناك يرجع إلى الظروف التي أتت لئلا تكل من الشعاعين، ومهدت السيل إلى الوصف الدقيق، فكل منهما وصف ما نظره عليه

(١) يشك ابن رشيق في هذه القصة، انظر العمدة ج ٢/١٨٤

(٢) الأزيون زهر أصفر في وسطه من أسود ويبس طيب الرائحة، غيبه بعده غالبه. نوع من الطيب

أسود اللون، مني اللعاب

وقع، وما به الفعل في بيته.

وهذا يذكرنا بالشاعر علي بن الجهم^(١) الذي نشأ بخراسان، ولد وفد على المتوكل ببغداد أنشده في مدحه:

أنت كالكلب في جفاظك لدود وكالتيس في قراع الخطوب
أنت كالذئب لا عذمتك دلو من كبار الدلاء كثير الذنوب

فهم بعض حصرين بيته، لكن خله قد حل عنه ذلك ما وصل إليه عذبه ومشهوده، وأنس في لشاعر قوة الشاعرية وسحر البيان، وطبع أصيلاً في إنشائه، يشوب ذلك أثر البادية، وميسم البيئة القاسية، فالشاعر لم ير لمدينة، ولم تصقله الحضارة، فأسكه قصرًا على شاطئ دجلة فيه بستان يتخلله نسيم لطيف يغذي الأرواح، والجسر قريب منه، فكان يخرج إلى محلات بغداد فيرى حركة الناس ومظاهر مدينتهم، ثم استدعاه بعد ذلك، وقد صفتته الحضارة، وهذبت له المدينة، فأشده رائيته البديعة وقد بدت فيها روح الرصافة وعبر بغداد، وكأنه في سالف دهره عاشه بالكلب، ولا مثل بالتيس، ومطعمها:

عيونُ المها بين الرصافة والجسر جَلَبَتِ لَهْوً من حيث أدرى ولا أدرى
أعذتُ الشوق القديم ولم أكن سنوت ولكن زدتُ جرأً على جر
سلبن وأسلمن القلوب كأنما تُلك بأطراف المثقفة السمر

وقد كان لابن رشيق يد في الكشف عن الترتيب بين التشبيه وبين نفسية سامع، فقد لاحظ أن تشبيه قد يكون مقبولا وبدئاً في مكان ورمزاً وغير مقبول تنفر منه الأذواق، وتنبو عنه الطباع في مكان وزمان آخرين، كما بين أن طريقة لتشبيه عند العرب لقدما قد خولفت إلى ما هو أليق وأشكل حسب العصر والأوان، يقول^(٢):

(١) هو أبو الحسن علي بن الجهم القزويني النسب أحد الشعراء المجيدين نشأ بخراسان ونقل منها إلى العراق فكان بغداد، حصن المتوكل، لكنه كان يأسه بدمعته ومات مقبلاً سنة ٢٤٩ هـ، يطعم الأديب على ما في الذئب من الماء

(٢) العمدة ج ١ - ٢١٤ - ٢١٦

أنت القدماء بتشبيهات رغب المولدون إلا القليل عن مثلها استشاعاً لها، وإن كانت بديعة في ذاتها، مثل قول امرئ القيس :

وَنَعُطُو بِرَحْصٍ غَيْرِ شَيْءٍ كَأَنَّهُ أَسَارِيْعُ طَيِّبٍ أَوْ مَسَاوِيْكُ إِسْحَلٍ^(١)

وهو شبهة بالأسروعة - وهي دودة تكون في الرمل، فهي كالحسن البنان ليا، وبياضاً، وطولاً واستواء، ودقة، وحرارة رأس، كأنه ظفر قد أصابه الخناء، إلا أن نفس الحضري المولد إذا سمعت قول أبي نواس في صفة الكأس :

نَعَاطِيهَا كَفَتْ كَأَن بَنَانَهَا إِذَا اعْتَرَضَتْهَا الْعَيْنُ صَفٌّ مَذَارِي

أو قول عبي بن العباس الرومي :

أَشَارَ بِقُصْبَانٍ مِنَ الدَّرِّ قُمَعَتْ يَوَاقِيْتُ حُمْرًا، فَاسْتَبَاحَ عَفَاقِي

أو قول عبد الله بن المعتز :

أَشْرَنْ عَلَى حَوْفٍ بِأَغْصَانِ قُضْبَةٍ مَقُومَةٍ أَثْمَارُهَا غُفَقِي

كان ذلك أحب إليها من تشبيه البنان بالدود في بيت امرئ القيس، وإن كان تشبيهه أشد إصابة.

وقد استبشع قوم قول الآخر يصف روضاً :

كَأَنَّ شَفَاتِي التَّعْمَانَ فِيهِ ثِيَابٌ قَدْ رَوَيْنَ مِنَ الدِّمَاءِ^(٢)

فهذا وإن كان تشبيهاً مصيباً، فإن فيه بشاعة ذكر الدماء، ولو قال من العصفور - مثلاً - أو ما شاكله لكان أوقع في النفس، وأقرب إلى الأنس.

أَجْرَى النَّاسُ هَذَا الْمَجْرَى قَوْلَ صَرِيحِ الْغَوَايِ - على أنه لم يقع لأحد مثله -

وهو -

(١) نَعُطُو نَتَلَوُ، وَرَحْصٌ : لَبَنٌ، شَيْءٌ عَلِيْظٌ أَسَارِيْعٌ : حَوْضَانُهُمْ، طَيِّبٌ : مَكَانٌ، إِسْحَلٌ : شَجَرٌ يَتَحَدُّ مِنَ الْمَسَاوِيْكِ.

(٢) شَفَاتِي التَّعْمَانَ : سَمَاتُ أَحْمَرِ الزَّهَرِ وَهُوَ الْفَوْحُ، وَاسْتَبَاحَ : وَاصْبَحَ إِلَى الْعَمَانِ بِنِ الْمَلِكِ، لِأَنَّهُ جَاءَ إِلَى مَوْسَعٍ وَفِيهِ مَوْرُ الشَّقَاتِي مَارَاهُ، فَقَالَ : مَا أَحْسَنَ هَذِهِ الشَّقَاتِي لِي، أَحْوَاهُ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ حَامَاهَا وَسَمَّى إِلَيْهَا وَعَرَفَهَا بِهِ، وَسَمِيَ بِهَا أَحْمَرُهَا تَشْبِيهاً لَهَا بِشَفَقَةِ الْبَرْقِ.

فَعَطَّتْ بِيَدَيْهَا ثَمَارَ نُحُورِهِمْ كَأَنَّهُى الْأَسَارِي أَنْفُسُهَا الْحَوَامِغُ

فهذا تشبيه مصيب جداً، إلا أنهم عاوه

ومثله قول أبي نوحن الثقفي في وصف قبة

سَرَفٌ صَوْتِ أَحْيَا وَتَحْمُضُهُ كَمَا يَطْنُ ذُبَابُ الرُّوْضَةِ الْغَرْدُ

فأى قبة تحب أن يشه بالذباب؟

وكما اختلفت الأذواق في قبول التشبيه لاختلاف البيئة، اختلفت أيضاً لاختلاف شخصية الأديب، وتضلعه في اللغة، وتذوقه للأدب، وإدراكه المعنى المراد.

استشد سيف الدولة أما الطيب يوماً قصيدته التي مدحه بها، وقد سار لباء الحدث^(١) وأولها :

عَلِ قَدَرِ أَهْلِ الْعَرَمِ ثَانِ الْعَرَامِ وَثَانِ عَلَى قَدْرِ الْكَرَامِ الْمَكَارِمِ

فما بلغ إلى قوله :

وَقَفْتُ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِبٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرُّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةً وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَفَرُّكَ بِاسْمِ^(٢)

قال سيف للدولة : قد انتقدتها عليك، كما انتقد على امرئ القيس قوله :

كَأَنَّ لَمْ أَرْكَبْ جِسْداً لِلدَّيْ وَلَمْ أَتَبَيَّنْ كَاعاً ذَاتَ حَلْخَالٍ

(١) الحدث : بَلَدٌ بِالرُّومِ كَانَ أَهْلُهَا حَمِيرَهَا لِأَمِيرِ الرُّومِ «الدمستقي» فصار إليها سبيد الدولة ليسترددها، وبيت قدمها وقد نازله الدمستقي فعمل عليه سبيد الدولة فظفر به وأقام حتى بنى الحدث سنة ٢٤٣ هـ فقال هذه القصيدة بمدحه بها.

(٢) وَضَعْتُ غَيْرَ مَتَّيْبِ الْمَوْتِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ لَمْ تَقْدَمْ تَقْصِيكَ، وَكَانَ الْمَوْتُ نَائِمٌ وَمَعْرُضٌ هُنَا وَالْأَبْطَالُ تَمَرُّ بِكَ وَهُمْ يَجْرَحُونَ مَتَّيْبُونَ، وَلَكِنْ ذَلِكَ لَا يَتَنَبَّأُ هَرَمُكَ، وَلَا يَضْمَعُ تَضْلُكَ لَمْ تَكُنْ بِسَائِمًا غَيْرَ مُتَضَجِّرٍ وَاتَّقَا مِنْ اللَّهِ بِالْعَصْرِ.

ولم أسأ الرُّقَّ الرُّوَّى ولم أقلَّ لَحْنِي كُرِّي كَرَّةً بعد إجماع^(١)
فيناك لم يتم شطراهما، كما لم يلتم شطرا بيتي امرئ القيس، وكان يسعى له
أن يقول:

كَأَنَّ لَمْ أُرَكَّ حَوْدًا وَلَمْ أَقُلَّ لَحْنِي كُرِّي كَرَّةً بعد إجماع
ولم أسأ الرُّقَّ الرُّوَّى لِلذِّةِ وَلَمْ أَتَطَّنْ كَاعًا ذَاتَ حَلْخَالٍ
وكذلك كان يسعى أن تقول:

وَقَعْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَافِقٍ وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَفْرُكٌ بِاسْمٍ
تَمُرُّ بِكَ الْأَطَالُ كُلُّهُ هَزِيمَةٌ كَأَنَّ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

فقد نسي سيف الدولة إلى أن تناسب المعاني في التشبيه يستلزم عكس الترتيب
بحمل الشطر الثاني من البيت الأول في موضع نظيره من البيت الثاني، مرها على
ذلك بأنه إذا وقف والموت لا شك فيه فكأن وضاح جبين باسم سرور فبدت
عن نهائى شجاعته إذ يضحك في مقام البكاء، ويشرق جبينه على حين يشتد
العوس وتكهمر الوحوه، وكذلك إذا كان لم يسلم من ضرر القتال أحد ثم كان
المدح مصوناً كأنه في جفن أطلقه النوم، كان ذلك أدل على إرادة الله له الحفظ
وتعديده له السلامة.

فقد نسي ب. ص. أن لدى سديك عن امرئ القيس أعلم منه بشعر بعد
أخطأ امرؤ القيس، وأخطأت أنا، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البراز كما يعلمه
الحائك، لأن الراوي يعلم جملة، والحائك يعلم حلة وتفصيله، لأنه أخرجه من
العزلة إلى التوبة، وإنما قرأ امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد
والشجاعة في مراكبة الأعداء بالسباحة في شراء الخمر للأصباغ للتصايف بين كل
من الفريقين، وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول، اتبعته بذكر الردى
في آخره، ليكون أحسن تلاؤماً، ولما كان وجه الخربج المنهم عوساً، وعينه باكية،

(١) لم أنظر لم سمعها بظاه. أي على معنى طلبها، الكتاب التي برو نديا، يريد أن الشاب ذهب، وكان
حاله من لدائه لم يكن أسأ الخمر اشتراها لا ليح ولا لتجارة الرق وعاء الخمر الروي بالمعنى، الكر
"عن العيون الإجماع لاغرام (ديوان القيس ج ٣/٣٨٩، عوار الشعر الجامع ج ١/٤٠)

قلت: ووجهك وضاح وتفرك باسم، لاجع بين الأضداد في المعنى.
فأعجب سيف الدولة كلامه، ووصله بخمسة دنانير^(١).

ورد كـ هـ شـاء بعض تشبيه بعض الشعراء والاختلاف في تقديرها
وتقويمها، فإنا نجد أن تشبيهات القرآن من التشبيهات الخالدة مخلود الزمن،
لدائمة دوام الدهر، صنعها رب العباد ونائها على شيء طبعي، لا يكاد يختلف
باجتلاف لعصور، ولا يتفاوت بتفاوت الزمن، عاصره عاصره لطبيعة ساطقة
بعظمة الله، شهدة بأثاره، مثلة آدم بشر، معروفة لديهم، شائعة بينهم
وحاصرة بين أيديهم، فلا نجد نفس موصلة بتردد في قبوه أو لشك في معقولته،
لذلك نجد مدار التشبيه وعماه على اقتراب الصورتين في النفس، وشدة وضوح
الطرفين للسامع بصرف النظر عن نفاسته أو تعذبه.

فجد أن القرآن الكريم يأخذ صور تشبيهاته من نبات الأرض، وحيوانها
وجادها، التي بين أظهرهم، وتحت أعينهم.

يقول سبحانه: (والقمر قدره مدرج حتى عاد كالعرجون القديم) (يس ٣٩)،
بهذا القمر الذي يملأ سبل سبعة وصب ويجل وحشته أساء، يصح بحيل مقوساً
تخطئه العيون، وتزديه الأبصار.

ويقول: (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مشتهر، نزع الساس
كأنهم أعرج نخل متقع) (القمر ١٩، ٢٠)، فالتشبيه بأصول النخل المقتلع من
لأرض، مشوياً لها وهك، صورة قريبة لمثل هؤلاء كعصر صرعى حين تهب
عليهم لرياح فتقتلعهم من أماكنهم، وهذه الصورة تميز العاطفة، وتثير الاعمس،
وتأخذ مكانها من الأمثلة والألباب.

ويقول (محمد رسول الله ودين معه أشياء على كبر رُحاهم بينهم ومثلهم
في لإجل كورع أخرج شقاه فأرره فاشعبط فاستوى على سوفة، يعجب
رُراع، ليعيظ بهم الكفار) (الفتح ٢٩)، فالرسول ﷺ وأصحابه يدهوا قلة، ثم

صاروا قوة عملاً الرسول أملاً والكمار غيطاً، فشبههم بصورة الزرع وقد بيت ضعفاً ثم لا يلبث أن يقوى ويشد بما حوله من البراعم حتى يصبح هبة للناظرين.

ونلاحظ هنا أن: المشبه به - الزرع - استغرق فقرات كثيرة، ذلك لأنه من نعم الله على البشرية، فإقران سطى في عرصها، ويتمهل في إظهارها، لتصرع تلك النعم مسامع الناس وقتاً طويلاً.

ويقول (مثل الدار أعدوا من ذون الله أولياء، كمثل العكبوت أئخذت بيئاً، وإن أوهن البيوت لبئت العكبوت لو كانوا يعلمون) (العنكبوت ٤١)، فالآية تصور المشركين من قوم نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وعاد وثمود، وقارون وفرعون وهامان، و... اعتمادهم على غير الله، واعتقادهم في آلهتهم الخيرة - والخير منهم بعد - مثلهم في ذلك كمثل العكبوت، ذلك الحيوان الذي يتبع نفسه في البلاء، وجهده ضائع، إذ لا يبنى إلا أوهن البيوت.

وعندما اخبر^(١) كشموا أن العكبوت أئزس الحبوب وقد بلغ من شرارته أن لام تقتل لأب بل الأولاد أباً، ثم هو يحوك به من حبوط وهي على سمكها لسيط أقوى من مثلها من يصلب بأكثر من مرتين، ويتجمل هذا الحيط بنقط لراحة تساعد على اصطيد الفريسة بسهولة.

والبيت هذه الصورة التي اكتشفها علماء الحيوان صورة مهلكة لمن يدخله أو يلتجئ إليه، وليس فيه أي صفة من صفات الأمان والاستقرار.

وعلى صوء هذا الفهم الجديد للآية يكون معنى التشبيه أن لجوء المشركين لأههم تلك مهيت لهم وميت كمن يلجأ من الحشرات إلى بيت العكبوت فعلة الدمار والهلاك ووقد ختمت الآية بما يفيد أن هذا العلم صعب وغير ميسور للجميع وإنما يفهمه ذوو العلم والإدراك.

ويقول، (خُشْعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتَشِّقٌ) (العر ٧) فالمشبه به الجراد الدائم الانتشار حتى يكون التشبيه دقيقاً في تصوير تلك

(١) ملخص حديث من برنامج «العلم والإيمان» في «التليميون» للدكتور مصطفى محمود

الجموع الخارجة من الصور المشبهة في كل مكان.

ويقول: (مثل الذين حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كمثل الحمار يحمل أسفاراً) (جمعة ٥)، فهو يصور اليهود الذين يقرءون التوراة ولا يعملون بما فيها بالحمار المعنى الذي يحمل أسفار لعلم ولا يدري مما خُصَّته شيئاً.

ويقول: (وتكون الجبال كالمنفوش) (القارعة ٥)، فالجبال الشم الصلابة يوم القيامة تكون خفيفة هشة كالمنفوش، وقد شهت الجبال بأصعف ما يكون وأرخاء، لإظهار قدرته تعالى، مبالغة في الرد على من أنكر المعاد، وتكذيباً لمن حاك في صدره استبعاد ذلك.

ويجوز (ورد) فيهم بُفَحَّتْ أَسْنَانُهُمْ وَ... بِقُوَّةٍ تَنْفُخُ سَوْفَهُمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبَتُ مُسَدَّةٍ) (المافقون ٤)، فالمافقون مثل الخشب المسندة على الحائط والتي لا قائمة فيها، لأنها ليست خشباً قائمة في أشجارها يرحى منها الجبال والطن، وليست مثبتة في جدار ترفع السقف أو مستعملة في النوافذ والأبواب ولكنها خشب مسددة لا نفع بها، ولا خير في وجودها، فهي أشبه بالزوائد التي يجب أن تتأصل والنفثات التي ينبغي أن تُلقي.

ويقول: (وعندهم قصاصات الطرب عين، كأنهن يتضنن مكنون) (الصفات ٤٨، ٤٩)، فالخور العين في ألجة مشبهات بلبيض المكنون في نقاء اللون ووجوب التعامل معه بالرفق والحذر حتى لا يندش أو يصاب.

والقرآن الكريم إذا لم يجد في بعض التشبيهات المشبه به الفائق على المشبه - حقاً وواقعاً - تخيره عما هو المثل الأعلى في نظر المخاطبين وإن لم يكن من هذا النوع على القدر المطلوب، كقوله تعالى: (الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، مِثْلُ نَوْرٍ كَمُشْكَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ) (الأنور ٣٥).

وهكذا نجد أن عناصر التشبيه في القرآن تستمد من الطبيعة أمام أعين الناس، لقريبة من أدهانهم عما جعلها خالدة وباقية على عمر لعصور، وإن قل المشبه به وضؤل أمره، فهو لا يعنى بنعاسة المشبه به، وإنما العناية كلها باقتراح الصورتين في

النفس وشدة وضوحها^(١)، فالقرآن يختار من الصور الأدبية ما يمكن أن يكون من الصور العالمية التي تظل موحية والتي يظل فعلها القوى الساحر، مهما اختلفت البيئات وتتابع الزمن.

أغراض التشبيه

المتحدث لا يلجأ إلى التشبيه إلا لهدف يرمى إليه، وغرض يقصده منه، وهذا الغرض وذاك الهدف، منه ما يعود على التشبيه، ومنه ما يعود على التشبيه به، فأما ما يعود على التشبيه فإليك بيانها:

١ - بيان صفة التشبيه :

وذلك إذا كان التشبيه مجهولاً وغير بين الدلالة، فنقيه بمشبه به معروف وغير مُكرّر، فيتصح تشبيهه، ويُسَمَّى المجهول، كقول: الأرض كالبيضة في الشكل ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (وَأَمَّا عَادُ فَأَتَلُكُوا رِيحَ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَمْعَ لَيْلٍ وَنَهْبَةَ أَيْمٍ خُشُوفًا، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغِصِرَ نَحْلٌ حَافِيَةٌ) (الحاقة ٧٤، ٧٥)، أراد الله سبحانه أن يوضح حال عاد - وهم قوم هود في الأمم العائرة - حين أرسل عليهم ريح العاتية سمع ليل ونهبة أيام تمتدعة مشبههم بما هو مألوف عندهم، واضح أمامهم، وهو أصول النخل الفارغة.

وقوله: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيَّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَتَّاشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ) (القمر ٣١)، وحينما أراد الله أن يوضح حال ثمود - وهم قوم صالح من العصور البائدة - عندما أهلكهم بالصيحة، شبههم بما هو عندهم معروف، وهو الشجر اليابس المتكسر الذي يعمل منه الخطائر.

ومن قول السابعة في العمان بن المنذر:

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَتَذَمَّتْهُنَّ كَوَاكِبُ

(١) راجع بلاغة القرآن ١٩٦ وما بعدها

وبلاحظ أن التشبيه به معروف لدى المخاطب، لئلا يؤدي إلى التشبيه بالمجهول، لأن النفس تهش لما تعرف، يقول تعالى في معرض الامتنان على أهل الجنة: (كُلُّهُمْ رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا: هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُتُوا بِهِ مُتَشَبِّهِينَ) (البقرة ٢٥) قال المفسرون في تعديل تشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة:

إن الإنسان بالمألوف آنس وإلى المجهود أميل^(١).

وهذا النوع من التشبيه يكثر في العلوم والفنون لمحدد البيان والإيضاح وتقريب الحقيقة إلى الأذهان.

٢ - تقرير صفة التشبيه في ذهن السامع :

هذا الغرض يكثر في تصوير الأمور المعنوية والذهنية في صور حسية مشاهدة، حتى تتمكن الصورة في نفس السامع، وتستقر في ذهن المخاطب لأن النفس إلى الحس أميل، وكما قالوا: من فقد حساً فقد فقد علماً.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسُوهُ الْغَمَامُ مَاءٌ، حَتَّى إِذَا حُدُّوا لَمْ يَجِدُوا شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عَذَابَهُمْ خُشْفًا يُغَسِّقُهُ مَوَاجٌ مِنْ فَوْقِهِمْ مَوَاجٌ مِنْ فَوْقِهِمْ سَحَابٌ مُلْتَمِتَةٌ فَمَعْصِفَةٌ بِمَعْصِفَةٍ تَافِتَةٌ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا نِجَاءٌ) (النور ٣٩ - ٤٠).

بصور الله أعمال الكفار - وهي من الأمور المعنوية - بصورتين حسيتين: إحداهما، السراب الخادع الذي يراه الناس كثيراً في الصحراء، ومرة أخرى بالظلمات المتركة في البحر الدحي، وهذا التصوير استقرت صفة الصبغ في ذهن السامع. ونظرة إلى الآيات القرآنية في تشبيه المعقول بالمحسوس نجد أنها من هذا القبيل.

ومن قول الشاعر:

إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَنَافَرَتْ وَدَّهَا مِثْلُ الزَّجَاجَةِ كَسَرَهَا لَا يُجْبَرُ

(١) تيسر النظم ج ١/٢٢

فالشاعر لما أراد أن يقرر أن الملوب المتأخرة لا تعود إلى الصفاء أبرزها في صورة تشاهد بالعين لتؤمن به النفس إيماناً قوياً، وليس من شك أن التثام الرجاجة بعد كسرهما من الأمور المقطوعة تتعددها.

ومثله قول الشاعر يصف اليوم بالطول:

يوم يحِطُّ الرِّيحُ، قَصْرُ طَوْلِهِ ذَمُّ الرِّقِّ عِنا واصطكاك المزاهر^(١)
شبه اليوم الطويل بظل الرمح، وطل الرمح يضرب به المثل في الطول عند العرب.

وقول الآخر يصفه بالفصر:

طللنا عند باب ابن نعيم يوم مثل سالفة الذباب^(٢)

وبالموازنة بين قولنا: يوم طويل لا آخر له، أو قصير جداً، وبين سببين السابقين نجد أن مجسم المعنويات وعرضها في صورة ملموسة يكون أمكن في النفس، وأقوى في القلب.

ولهذا يجب أن يكون المشبه به أتم في وجه الشبه في المشبه ليتقرر في ذهن السامع ويزداد به إيماناً.

٣ - بيان مقدار صفة المشبه من الزيادة أو النقصان أو القوة أو الضعف: وذلك إذا كان المخاطب يعرف حال المشبه معرفة إجمالية، ويجهل مقدار هذا الحال، فيقاس حينئذ بشيء يعرف المخاطب مقدار حاله.

كقوله تعالى: (وتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَانِبًا ذَهِبًا تَجْرُ مِنْهَا نَافِثَاتٌ مِنْ فُجَارٍ وَهِيَ كَالَّذِي يَرْفَعُ أَوْدَانَهُ مِنْ مَحْدٍ مِنْ جَنْبِ الْمَدِينَةِ) (النمل ٨٨)، فالمخاطب في الآية كريمة يعلم أنها جبال غير سريعة، ولكن لا يدرى مقدار هذه السرعة، فوضّح التشبيه مقدار السرعة تلك بسرعة مرور السحاب.

(١) دم الرق: أي شرب دم الرق، على تقدير مضاف، الرق: وهاء الحصره المزاهر: جمع مرمر وهي آلة من آلات الطرب - المود - اصطكاكها: تحريكها بالعرب
(٢) سالفة الذباب: معتم أعناقهم ويضرب به المثل في الفصر

وكقوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ مِنْهَا أَصْنَاوُنَ كَذَّبْتُمْ، لَا تَأْكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ، وَلَا تَلْبَثُونَ فِيهَا طُلُوتًا، فَشَارَبْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ، فَشَارَبْتُمْ مِنْ شَرِّتِ الْحَمِيمِ) (الزمر ٥١ - ٥٥)، فالمخاطب يعلم يقيناً بشرب الكفار من الحميم - وهو الماء الحار - ولكنه لا يعلم مقدار اندفاعهم على هذا الشراب مع حرارته الشديدة، فوضّح التشبيه أن اندفاعهم كاندفاع الإبل العطاش التي لا تروى لذاء عندها، ولا تزال تشرب حتى تهلك.

ومنه قول الأعشى:

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِهِ جَارَتُهَا مَرَّ السَّحَابَةِ، لَا زَيْتُ وَلَا عَجَلُ
فوضّح الشاعر المشية بأنها لا تسرع ولا تنطأ كالسحابة.

وقول الشاعر:

بِذَاذٍ مِثْلُ خَافِيَةِ الْغُرَابِ وَأَقْلَامُ كَمْهَفَةٍ جِدَاذٍ^(١)

ومن هنا ترى أن المشبه به في بيان مقدار حال المشبه يكون على حد المشبه في وجه الشبه لا أكثر ولا أقل.

والفرق بين بيان الحال والمقدار: أن بيان الحال يكون للمشبه المجهول والتشبيه يوضحه، وبيان المقدار: المشبه معروف والتشبيه يحدد قدره.

٤ بيان إمكان وجود المشبه:

وذلك إذا كان المشبه أمراً غريباً يمكن أن يدعى امتناعه، فيشبه حينئذ بشيء مسلم الوقوع، ليكون كالدليل على إمكانه، كقول الحسين بن مطير يرثي معن ابن زائدة:

فَتَى عِيشٍ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ تَجْرَاهُ مَوْتَعَا

(١) نداء: الحيرة الخافية: ريش في الصائر يحس إذا صم جناحيه، المرمصة: للرق، الخداد: جمع حديد، وهو القاصع

والشاعر يقول : إن الناس قد عاشوا في معروفة بعد موته ، ولكنه لما توهم أن السامع قد ينكر عليه دعواه أو يشك فيها ، أتى بمشبه به مسلم الوقوع ، وهو أن السيل يغمر الأرض حتى إذا انقطع عنه وجف مجراه نبتت فيه المراعى ، فترعت فيه الماشية ما شامت أن ترتع ، فالمشبه به برهان على صحة دعواه ، وبيان لإمكان مدعاه.

وصه قول الشاعر :

إِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ «الغلباء» عُصْرَهَا فَإِنْ فِي الْخَمْرِ مَعْنَى لَيْسَ فِي الْعَنْبِ
والشاعر يقول : إن هذه المرأة «الغلباء» من قبيلة تغلب ذات العز والشرف فإن فيها من معنى الكبر ما جعلها تفوق قومها وتدفع فينها ، ثم دلت على هذه مدعى بما يؤيدها وهو أن العنب - أصل الخمر - ولكنها فضلت عليه لمعنى اختصت به دونه.

وقول الشاعر في المدح :

مِنْ الْوَرَى هُوَ، لَكُنْ فَاقَهُمْ كَرَمًا كَذَلِكَ الدَّرُّ وَالْحَصْبُ أَحْجَارُ
وقول ابن الرومي :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تُكثِرُنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

ومن هنا نرى أن المشبه به لا بد أن يكون مسلم الوقوع عند السامع.

٥ - تزيين المشبه :

يُزَيَّنُ المشبه ويظهر في صورة محنة للنفس ليتخيله المخاطب كذلك ، وقد حفل القرآن بتشبيهات ترغَّب في الجنة ، وتزين المقام بها وسط السعادة المادية التي تمت الراحة في النفس ، والاطمئنان إلى سحرة الخلود.

يقول تعالى (وَأَسْقِى فِي حَافَاتِ نَعِيمٍ ، فَأَكْهَبُوا مِنْهُمْ رِجَالَهُمْ وَأَمْدَدَهُمْ
بصاحب ولحم يمشي ، يسرعون فيها كأنما لا عو فيها ولا تأثم ، ويظوف

عليهم غلمان لهم كأسهم لَوَلُّوا مَكْنُونِ (الطور ١٧ - ٢٤)

ويقول (مكّنير فيها على الأرائك لا يروون فيها شمس ولا رمهريرا ، ودابة
عليهم جلالها ويصوف عليهم وأندس محذون إد رأيتهم حسنتهم نؤوا مشورا
(الذهر ١٣ - ١٩).

ويقول : (والسابقون السابقون ، أولئك المقربون... يظوف عليهم ولذان
مُحْدُون ، ناكوب وأدريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا يرفون ، وماكها
عما يتحرون ، ولحم طير عما يشتهون ، وحور غير كأمثال نؤوا لمكوب ، حراء عما
كانوا يعملون) (الواقعة ١٠ - ٢٤).

فالمشبه به في الآيات السابقة المراد به : تحسين أحوال المشبه وتزيينه ، وإن أريد به بيان الحال.

ومنه قول الشاعر :

تقارب شيب في الشباب لوامع وما حزن ليل ليس فيه نجوم
فالشيب وقعه على النفس اليم ، ومظهره أمام العين قبيح ، ولكن الشاعر حسنه
في هذا التشبيه الضمني ، فقد شبه الشيب بلمع بين سواد الشعر بحل النجوم
تتالق في جنح الليل ، لتزين المشبه في عين المخاطب.

٦ - تقييد المشبه

يُقَيِّدُ المشبه ويظهر في صورة منفرة منها النفس ، ليتخيله المخاطب كذلك
فيرغب عنه ، وقد حفل القرآن بكثير من هذه الصور ليقبح الاعتقادات الباطلة
ويزيغ العادات التي تعودوها في جاهليتهم.

يصور الله تعالى آكل الربا بصورة منفرة فيقول : (الذين يأكلون الربا لا يقومون
إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) (البقرة ٢٧٥).

فآكل الربا يظهر بصورة من أصابه مس من الشيطان ، فهو لا يهضم حتى
يسقط ، ولا يقوم إلا ليقع.

ويصاحم القرآن المنافقين ويصورهم بصورة تحطم نفسيهم، وتبعث في القلوب كراهتهم، فيقول تعالى: (إذا خاءك المنفقون .. وإذا رأيتهم تُعْجِبْكَ أحوالهم، وإن يقولوا تسمع لعبدك، كأنهم ضُتُّ مسنةً) (سافات ١ - ٤) ويقول: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي يبيع بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، ضُمٌّ، بكم، عمى، فهو لا يعقلون) (القرة ١٧١).

ويقول: (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ولنرُ قنوى لهم) (محمد ١٢).

تشبيههم بالصم، والبكم، والعمى، والدواب السائمة، يزد يهروجهم من دائرة البشرية، مما يوجهم، ويفر الناس منهم.

ومنه قول الشاعر:

وإذا أشاز عذثاً فكانه فرد يفقه، أو عجزاً تلطم

وقد حسن ابن الرومي العسل وذمه فأن بالعرضين في وقت واحد، فقال:

يقول: هذا مجاج النحل تمدحه وإن تعب قنت: ذا قراء الزناير

٧ - استطراف المشبه:

وذلك بأن يبرز المشبه في صورة أنيقة تحلب القلب، وتبهز العقل، وتبعث في النفس الراحة، وتثير فيها المتعة، ويظهر ذلك في صورتين:

(١) أن يبرز المشبه في صورة ممتعة الوجود في الخارج في العادة والعرف كقول ابن المعتز:

كأن عيون الرجس الغص حولنا مدهن دُرْ خشوهُنَّ عقيق^(١)

فقد شبه زهر الرجس بمداهن الدر يتوسطها العقيق، وهي صورة طريفة

(١) المجاج: الريق، ومجاج النحل: العسل، الزناير: من فصيلة الذباب دولج الم

(٢) راجع: فصل أساليب تأثير التمثيل في النفس

لا توجد إلا في الخيال، لإبراز المشبه في صورة الطريف البديع.

ومنه قول الصنوبري السابق^(١):

وكأن تخمر شفق إذا صوب أو تصعد

أعلام ياقوت تُشِرْنَ على رماح من زبرجد

(ب) أن يبرز المشبه في صورة يندر حضورها في الذهن عند حضور المشبه به، كقوله تعالى: (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) فصورة «العرجون القديم» غير نادرة الحضور في الذهن، بل هو شائع ومطروق، ولكنها تندر عند استحضر صورة القمر، للون الشاسع بين الصورتين فإن القمر مسكه في السماء، والعرجون مقره في الأرض، والقمر مثال العلو والهدية، والعرجون شيء تده، وشتن ما بين الصورتين.

ومنه قول الشاعر:

ولا زوردية تزهو بزرقها بين الرياض على حمر اليواقيت

كأها فوق قامات ضعفن بها أوائل البار في أطراف كريت^(٢)

كان المناسب للشاعر أن يشبه أرهار البفسح وهي على سيقانها بما يماصها من الأرهار، لكنه شبه بصورة أوائل البار في أطراف الكريت عند شوبها فاشبه به غير نادر الحضور في الذهن، إذ هو منتشر بين عامة الناس، لكنه يندر حضوره عند حضور صورة البفسح وهي على سيقانها، لما بينها من بعد الوطن فهذا زهر ندى، وذلك لم يحرق.

ويذكر في هذا نصوص حكمة المعروفة من حديث عدي بن ربيعة، قال جرير: أنشدني عدي * عرف لديار توها فعتادها *

فلما بلغ إلى قوله:

* تزجي أعن كُنْ إبرة زوقه * رحته، وقلت قد وقع، ما عساه يقول وهو

(١) راجع (فصل طرق التشبيه المقول والمحمول)

(٢) راجع ص ٦٣.

أعرابي جَنَفَ جَانِبًا؟ فلما قال: * قَسَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَةِ مِلَادَهَا * استحالت
برحة حسداً، فمن كانت برحة في لأوى والحسد في الدنيا إلا أنه رآه حين افتتح
التشبيه فذكر ما لا يمحصر له في أول الفكر وبديهة الخاطر، وحين أتم التشبيه وأداه،
صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أعدد موصوف، وعثر على خبيء مكانه غير
معروف؟^(١)

أما الأغراض التي تعود على المشبه به فهي في صورتين:

١ - التشبيه المقلوب:

وذلك بأن يقصد المتكلم إيهام أن المشبه به أقوى وأتم من المشبه في وجه التشبه،
كقول البحتري في وصف بركة المتوكل:

وَبَدَتْ كَأَنهَا حِينَ لَجَّتْ فِي تَدْفِيقِهَا يَدُ الْخَلِيفَةِ لَمَّا سَالَ وَادِيهَا
فالشاعر أراد أن يوهم أن يد الخليفة أقوى تدفقاً بالمعطاء من البركة بالماء.

ومثله قول محمد بن وهيب يمدح المأمون:

وَبَدَا الصَّاحِ كَأَن عُرَّتْهُ وَجْهُ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُتَدَحَّحُ

وهذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيه الوجه بالصباح، لأن تشبيه الوجه بالصباح
أصل متفق عليه لا ينكر ولا يستنكر، إنما الذي يستنكر تشبيه الصباح بالوجه.

٢ - بيان الاهتمام بالمشبه به. كأن يشبه الجائع وجهًا جميلًا بالرغيف في البياض
والاستدارة، فيدل بهذا التشبيه على اهتمامه به ورغبته فيه وأنه لا يغيب عن خاطره
لحوقه، ولولا ذلك لشبهه بلبلر مثلاً، إذ هو المتبادر إلى الذهن، ويسمى هذا
طهار المطلوب.

ولو تتبعنا جميع الأغراض التي ذكرناها لوجدنا أنها مما تتعلق بالنفس إذ لا تعلق
أن تكون تأثيراً في الفكر، أو إثارة للوجدان والعاطفة.

(١) تزجي: تسوق والصبر لبظية، الأغصان من الغزلان الذي في صوته غنة - وهو ولد الطيبة، الروي
القرن، إبرته: طرفه (الأسرار ١٣٢)، وتمصيل القصة في «فصل مكانة التشبيه من البلاغة» ص ١١٨

• التشبيه المبطل والتشبيه الغريب •

• يتنوع التشبيه - باعتبار وجه الشبه - إلى نوعين:

أحدهما: قريب مبتذل، والثاني: بعيد غريب.

والقريب المبطل: كل تشبه يتم فيه من المشبه إلى المشبه به من غير حاجة إلى
تفكير وتأمل، بسبب وصوح وجه الشبه فيهما، كتشبيه الوجه بالصبح، والشعر
بالليل، والفرس الأسود بالغراب، وجسم المرأة بالحرير، والشجاع بالأسد،
وبالسيف، والعين الرمضاء بالخمرة، والمحوبة بالشمس، وبالعصن، وبالطوى،
كقول الشاعر:

وَالْوَجْهُ مِثْلُ الصَّبْحِ مُبَيَّضٌ وَالنَّفْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدٌ
ضِدَانٌ لَمَّا اسْتَحَمَا حَسَنًا وَالضُّدُّ يَظْهَرُ حَسَنَ الضُّدِّ

وقول الآخر في وصف الفرس:

وَأَدْهَمُ كَالْغُرَابِ سَوَادٌ لَوْنٌ يُطِيرُ مَعَ الرِّيحِ وَلَا جُنَاحُ

وقال آخر:

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الْخَرِيرِ وَمَنْطِقٌ رَحِيمٌ لِحَوْشَى، لَا هَرَاءَ وَلَا سُرْرُ

وقال آخر:

أَنْتَ كَاللَّيْلِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْإِثْرِ دَامَ، وَالسَّيْفِ فِي قِرَاعِ الْخَطُوبِ

وقال غيره في عين أصابها الرمذ:

عَدَّتْ عَيْنُهُ كَالْخَمْرِ حَتَّى كَانَتْهَا سَقَى عَيْنَهُ مِنْ مَاءِ تَوْرِيْدِهِ الْخَدَّ

(١) الحواشي: جمع حاشية وهي الجانيء المراد المنطق الكثير أو الماسد التزو: النسيب

وقال لحنري

دانت حُسُّو اشتدَّتْ من الحُسْنِ من إليه لم أَصَابَتْ مرْسدا
فهي كالشمس بهجة، والقصب اللذَّ ن قَدْأ، والرُّثْم طَرْفًا وَجْدًا^(١)
فكل هذه التشبيهات في تناول العامة، ويكثر تداولها بين الناس، ويتقل فيها
من المشبه إلى المشبه به من غير حاجة إلى روية وإعمال فكر.

والسبب في ذلك هو أنه إذا كثرت تكرار المشبه به على الحواس اقتضى ذلك
حصوله في الذهن، وثبت صورته في النفس، وهذا كانت الحكمة في مداورة
العلوم وتكرارها على السامع، ففي ذلك سلامتها من النسيان ومانع لها من
الغفلت.

* * *

وأما التشبيه البعيد الغريب : فهو كل تشبه لا ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به
إلا بعد فكر وتأمل، لأن وجه الشبه حمي لا يقع في النفس عند بدء النظر، بل
بعد تثبت ونظر، وأسباب خفاء الوجه هي :

١ - أن يكون في وجه الشبه تفصيل يحتاج إلى دقة الملاحظة وكثرة النظر والناس
والتفصيل على وجوه :

الأول : أن يؤخذ بعض الأوصاف - وهو ما دخل في تحقيق التشبيه - ويترك
بعض - وهو ما ليس به دحر في تحقيق التشبيه، كقول امرئ القيس في وصف
لسيف

هَلَّتْ رُقَيْيَا كَانَ بِنَانُهُ سَاءَ لَهَبٍ لَمْ يُتَصَلْ بِدَحَانٍ^(٢)

فالشاعر شبه سنان الرمح بلهب ذي ساء في الشكل واللحم والزرقة

(١) انصبت بعض من السيف، القد، القامة، الرثم : الطية الطرف - العين، الجيد : العقب
(٢) الرقيي : الرمح المنسوب إلى ربيعة، وهي اسم امرأة كانت تصنع السيوف، وكان زوجها «سمهرة» يجيد
صناعتها أيضًا وتنب إلى الرماح السمهرة

الصفاء، ولكن الشاعر بعد التروي والنظر رأى أن في المشبه به شيئًا يمنع تحقيق
وجه لوجه وهو دحان حتى يعبر رأس شعبة، بدلس في رأس ساء
ما يشبه ذلك - ووجد أن مقتضى الدقة أن يستثنى لدحان معنى تصديه - ساء،
ويكون المشبه به فقط : «لهب ذو السنا المحرود عن الدحان» تحققت تشبيهه،
وتحقيق التشبيه على هذه الطريقة لا يأتي عقو الخطأ، بل لا بد من بذل مجهود
فكري، ومزيد من النظر والتأمل.

وقد كان لامرئ القيس - لهذا التفصيل - فصل السق على قول هنترة العبيس
في ورد بن حابس، وقد أراد قتل فضلة الأسد لثأر بينهما :

يُتَابِعُ لَا يَتَنَفَسُ غَيْرُهُ بِأَبْيَضِ كَالْفَيْسِ الْمَتَهَبِ^(٣)

فالمشبه به واحد فيهما، ولكن لامرئ القيس فصل التفصيل وتحقيق التشبيه
ونفى ما يعيبه.

ومثله قول زهير بن أبي سلمى :

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعَيْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ، حَتَّى الْعَيْنَا لَمْ يُحْطَمَ^(٤)

فقد شبه الشاعر ما يتساقط من الصوف المصوغ، المعلق على الهودج - في كل
منزل نزلن به - بحب العينا الذي لم يحطم، وقد نفى عن المشبه به التحطيم تحقيقًا
للتشبيه، لأنه إذا كسر تغير لونه عن الحمرة.

ومثله قول الشاعر :

كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ حَائِنَا وَأَرْحُلُنَا اجْزَعُ مَلْدَى لَمْ يُثْقَبْ^(٥)

(١) الأبيض : السيف، القيس : شعبة، نثار : المعى : أن ورد من حابس ينابع قتل فضلة لا يريد غيره لثأر منه
سيف كشعله نثار

(٢) الفتات : اسم ما سقط من الشيء - أي قطع ونفرت : المعنى : الصوف المصوغ، حب العينا : حب الثعالب
وهو شديد حمرة

(٣) الحناء : البيت من الشعر، أرحن : جمع رجل وهو ما يحمل على الجريد (خروج) يفتح الحميم أو كسرهما
وسكون الراء : عبق فيه ذراته بيض وسود، وفي البيت ما يسمى «بالإيمان» فجملة «لم يثقب» ومع المعنى بدونها
ولكنها رادف لتحقيق التشبيه ومثلها «لم يحطم» في البيت الثاني

فقد شبه أعين الوحوش التي كانوا يرمونها حول أخبيتهم بعد أن كانوا يأكلون لحمها، بالجرع الذي لم يثقب، وقد نفى التثقيب عن الجزع تحقيقاً للتشبيه وبين تساوى الطرفين في وجه الشبه، لأن الجزع إذا ثقب خالف العيون.

الثاني: أن يستعرض أوصاف المشبه كلها ثم يطبقها في المشبه به كذلك حتى يجعل المراتب واضحة وضوحاً يحمل القارئ ما يدرى أيقراً صورة مسطورة، أم يشاهد منظرًا من مناظر الوجود؟ كقول ابن المعتز:

كأنَّ وضوء الصبح يستعجل الدجى نطيرُ غراباً ذا قوادم جون^(١)

فالشاعر استعرض هيئة الليل وطلامه الخالك الذي يبدو فيه ضوء الصبح، وطلب هيئة شبيهة بذلك فأصابها في الغراب الأسود ذي القودم البيض، ولحرص الشاعر على تكامل هذه الأوصاف جميعاً راعى أن تكون قوادمه بيضا ليطابق أطراف النور في قطع الليل المظلم، وقد جعل الشاعر ضوء الصبح لقوة دفعه للعلام كأنه يستعجل الدجى ويخنها على الرحيل، ولا لاحظ ذلك في المشبه لاحظته كذلك في المشبه به، فعلى نطير غراباً، لأن الدجى إذا كان وقفاً في مكان ثم أزعج وأطير كان ذلك أسرع بطيريه، وادعى لإحساسه حيث لا تراه ليوطر، بخلاف ما إذا طار عن طواعية واختياره، فقد يبطئ في الطيران أو يطير إلى مكان قريب تراه فيه العيون.

ومثل ذلك قول الشاعر:

وقد لآخ في الصبح لثريا لم رأى كعنقود ملاحية حين نور^(٢)

ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من تقارب الصور البيض المستديرة الصغار

(١) الدجى: الظلمة، القوادم: أوائل ريش الطائر في مقدم الجناح، والجون: بضم الجيم جمع جون بمعنىها.

يطبق على الأبيض والأسود والمواد الأبيض

(٢) الملاحية بضم الميم وتشديد اللام مع كسر الحاء وتشديد الياء: هب أبيض طويل، نوراً: أخرج نوراً.

المقادير في حالة ليست متلاصقة ولا متباعدة على شكل مثلث، وقد استعرض الشاعر هذه الصفات في المشبه وطلبها في هيئة أخرى شبيهة بها فوجدما في عنقود الملاحية.

وكذلك قول شهاب التلعفري^(١) في وصف الشمس حال طلوعها:

ولآخت الشمس تحكى عند مطلعها امرأة يسر في كف مرتعش

فقد شبه الشمس حين تطلع حمراء لامعة مضطربة بمرأة من ذهب تتحرك في يد مرتعشة، ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق والحركة السريعة المتصلة، وقد روعى في المشبه به التفاصيل الكثيرة التي روعيت في المشبه من ملاحظة الشكل واللون والحركة الدائمة المضطربة مع التمزج.

ومثله قول بشار يمدح ابن هيرة:

كأن مثار القمع فوق رؤوسنا وأسيافنا، ليل تهاوى كواكب

بعد شبه بشار حال الترب لمفقود فوق المحاربين في المعركة والسيوف تلمع وتعلو وتنخفض في حركات كثيرة إلى جهات مختلفة، بالدليل لمطم تهوى كواكب ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من سقوط أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار في جوانب شيء مظلم، وقد راعى الشاعر التفصيل في التشبيه حيث نظر إلى الغبار المنعقد فوق الرؤوس في ميدان القتال، وقد لمعت فيه السيوف، وهي تعلو وترسب، وتحمى وتذهب، شبه تلك الصورة بالدليل المظلم تلمع فيه الكواكب.

ففى كل تلك الصور ترى الشاعر يصور المراتب وصفاً يحس القارئ ما يدرى أيقراً صورة مسطورة، أم يشاهد منظرًا من مناظر الوجود؟

وبشار تفصيله السابق فاق كثيراً من معاصريه في المعنى نفسه، فقد قال كلثوم ابن عمرو العتابي التلعفي يمدح هارون الرشيد:

(١) التلعفري: نسبة إلى تلعف، في الشام وهو من شعراء الدولة الأيوبية، التبر: الذهب

تبقى سابكها من فوق أزوسهم سققا كواكبها البيض المبائر^(١)

وقال المتنبي في رثاء محمد بن إسحاق التتويحي:

يزور الأعدى في سماء عجاجة أسته في جانيها الكواكب^(٢)

وقال مسلم بن الوليد:

في جحفل تشرق الأرض القضاء به كالليل أنجمه القضبان والأسل

وقال ابن المعتز:

إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا وسارت ورائي هاشم ونزار
وعم السماء النفع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار^(٣)

فالكل نظر إلى التراب المعقود فوق الرموس، في ميدان القتال، وقد لمعت فيه السيوف، لمعان الكواكب.

إلا أننا نرى لبثت بشار من المزية والتأثير ما لا ينكر، وذلك لأنه راعى هيئة سيوف وقد سلت من أعمادها وهي تتحرك في جهات مختلفة عرسا وطولا، وعلوا واحدا، وقد عبر عن هذه الدقائق بكلمة واحدة هي «تنهوى» لأن الكواكب إذا نهاوت انحامت جهات حركاتها، وكان لها في حال سقوطها تداخل وتدافع واستطالة لأشكالها، وارتدعها مرة واحدا مرة أخرى، وغير ذلك، وبذلك يكون هذه الرعدة التي ردها سحر حظ من الدقة، ونصيب من الفصل والمربة ما لبس لشبه الآخرين، وإذا عرفنا أن سحر كان أعمى يدرك أن هذا البيت هدهد الوصف يعد من براعاته المشهورة.

(١) السابك: جمع سبك كقصد وهو طرف الحافر، البيض: جمع أبيض وهو السيف، المبائر: جمع مبائر وهو ما طم.

(٢) العجاجة: المبار، وسماه عجاجة: من إصافه المشبه به إلى المشبه، مثل: يلجئ الماء.

(٣) أحسن ابن المعتز حيث غلب الصورة ونقاها بقوله: «وعم السماء النفع» حيث دل على كثرة الجيش واشتداده، بشار قال: «فوق رؤوس» فجعل الصورة حادة بيا الدليل لا يخفى رؤوسهم لعموم ظلمة الأفق.

٧ - السبب الثاني لخصاء وجه الشبه في التشبيه البعيد هو:

تدور تكرار المشبه به على الخواص، وذلك يستدعي مطء حضور المشبه به في ذهن عند حضور المشبه، وذلك لعدة أسباب:

أما لبعده المناسبة بين الطرفين، كقوله تعالى: (والقمر قدوثنا سازل حتى عاد كالعرجون القديم) قصورة «العرجون» بذاتها ليست بعيدة الحضور عن الذهن، ولكنها تندر عند استحصال صورة «القمر»، للفرق الشاسع بين الصورتين، والقمر مسكنه في السماء والعرجون موطنه في الأرض، والقمر مثال للهداية والرفعة، والعرجون شيء ناله حقير ليس له فائدة تذكر.

ومثله قول الشاعر:

وبين الخد والشفق خال كزنجي أتى رؤسا صاخا

تخبر في الرياض فليس يندري أيمن الوردة أم يمين الأفاحا^(١)

وقول ابن المعتز السابق يصف زهرة البنفسج^(٢):

ولا زورديّة تزهو بزرقنها بين الرياض على نحو اليافيت

كانها فوق قامات ضمقن بها أوائل النار في أطراف كبريت

فصورة النار في أطراف الكبريت من الذبوع والشهرة بحيث تتكرر على الحس في أوقات كثيرة، ولكن يندر حضورها في الذهن عند حضور زهرة البنفسج روى المشبه -

ومن ذلك القصة السابقة لعدي بن الرقاع مع جرير في قوله^(٣):

نرحى أغن كأن إبرة روقه فلم أصاب من الدوايد مداها

(١) الأفاحي: جمع أقحوا وهو دهر.

(٢) راجع ص ٦٣.

(٣) راجع فصل وأعراض المشبه ص ٨٥، وجعل إمكانية التشبيه من اللامعة ص ١١٨.

وقد يكون ذلك لأن المشبه به وهمي كقوله تعالى: (طَنَعَهَا كَأَنَّه رُمُوسٌ الشَّيَاطِينِ) (الصافات: ٦٥).

وقوله: (وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُشِجُّ كَأَنَّهَا خِثْلُ بَازِلٍ وَلَمْ يُعَفِّ) (الملك: ١٠).

وقول الشاعر السابق:

أَيْفُلِي وَالشَّرْقُ مُصَاحِمِي وَمَسُونَةُ رَرْقٍ كَأَنَّهَا أُنْعُو؟

وقد يكون ذلك لأن المشبه به مركب خيالي، كقول الصنوبري السابق:

وَكَأَنَّ غَمَمَرَّ الشُّبُقِ إِذَا نَصُوبٌ أَوْ تَصْعَدُ

أَعْلَامٌ بِأَقْوَابٍ تُبْرِزُ عَنِ رِمَاحٍ مِنْ رُوحِهِ

وقوله أيضاً:

كُلُّهَا بِأَسْطِ الْيَنْدِ نَحْوُ بِلُوفٍ يَدُ

كَدْبَابِيسٍ غَنَحِدٍ فَضُّهَا مِنْ رُوحِهِ

وقول ابن المعتز:

كَأَنَّ عَيُونَ التَّرْجَسِ الْعَصُ حَوْلَنَا مَدَاهُنْ فُرْ خُشُونْ عَفِيقٌ^(١)

وقد يكون ذلك لأن وجه المشبه مركب عقلي، كقوله تعالى: (مِثْلَ الَّذِينَ حَمَلُوا الثُّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) وقوله: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا حَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَحَدَهُ اللَّهُ عَذَابًا)^(٢)

وقول كثير عزة:

لَقَدْ أَطْمَعَنِي فِي الْوَصَالِ تَبْسًا وَتَعَدَّ رَحْمِي اغْرِصًا وَبَوَّتْ

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْمًا عَطَاشًا غِيَامَةً فَلَمَّا رَجَعُوا أَفْشَعَتْ وَجَلَّتْ

(١) راجع من

(٢) الآية الأولى في سورة الحمة ٥٤، ووجه التشبيه: التعب في استصحاب الشيء الواقع بلا مظنة، والثانية سورة النور ٣٩، ووجه التشبيه: أهية الحاصلة من الأمل للمطمع والنهاية المؤيعة

فهذا تصوير لحال المصطر إلى الشيء الشديد الحاجة إليه، وقد لاحظت له علامات الطفر به، ثم يفوته ذلك، ويبقى بعد بحسرة فوته

فقد شبه الشاعر حال محبته وقد أطمعته في الوصال ثم أعرضت عنه فغضب أمله فبقى في حسرة، بحال قوم عطاش يتلهعون على الماء وقد رأوا صحابة تريق وطمعهم في عيش ثم أناسهم بموته ودهسها، فبقوا في ألم وحسرة، ووجه التشبيه ظهور أمرت ظمير المقصود للمحتاج، به ثم حتموه وصره في كمد وترج ووجه التشبيه إذا كان عقلي لا يجيء عفو الخطأ، ومن أول وهلة، بل لا بد من طول الأناة وامتداد الرؤية لسيرة مروءة على الخطر.

تحويل التشبيه القريب إلى تشبيه غريب

عرفنا أن ابتذال التشبيه متى على سرعة حصول المشبه به إلى الذهن عند حضور المشبه، كالتشبيه بالأسد في الشجاعة، وبالبحر في الجود، وبالقمير في الصياء، فربما لا يجد في برد وعكس، لأنه في حكم المظهر لمركبة في الطع، ولغرائز المستكة في الفرس، بخلاف التشبيه البعيد فإنه لا يزال ولا بالتعب والاجتهاد في الطب، فهو كمروق الذهب المخبوة في باطن الأرض لا تظهر بسهولة، بل لا يُظفر بها إلا بالخصر، وبذل العرق لا صطيادها ولتتمكن منها. لكن هذا التشبيه القريب قد يلحقه من الصنعة، ويدخل عليه من التجويد والإبداع، ما ينقله إلى الغرابة والبعد، كقول المتنبي:

مَنْ نَحَتْ دُحْتُ سَحَابٍ وَمَا حُتَّ بِهِ فَصِيْهَا الرُّخَصَاءُ

لَمْ تَنْقُ هَذَا وَجْهَ شَمْسٍ هَرَبٍ إِلَّا بِوَجْهِ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءٌ^(١)

تشبيه الجود بالسحاب قريب مبتذل، ولكن الشاعر حالف التشبيه المألوف

(١) النائل المظهر: حوت: أصيب بالحمى، الصيب: المصوب، الرخصاء: عروق الحمى، وسحابها: بمعنى الجمع وبذلك أنت المظهر والتجويد كقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا أَتَلَسَّ سَحَابًا فَأَقَالَهُ)

فجعلته تشبيهاً ضمنياً^(١) مصمراً في النفس، ثم زاد في الصعقة فأوهم أن السحاب من قبيل الأحياء فهو حسود، فهو في جوده بالنظر لا يحكى الممدوح في العطاء - لأنه لا يقدر على ذلك لأن عطاء الممدوح أكثر منه - وإنما المطر المصوب هو عرق الحمى التي أصابته نتيجة لحسده للمدح، وبهذه الصعقة اكتسب التشبيه العراة والإبداع

كذلك البيت الثامن، فقد شبه الشاعر الوجه بالشمس في الهجة - قريب متدل لكن صعقة نسي أكنه عراة والعد، فجعل الشبه صمياً مصمراً في النفس، ثم زاد في الإبداع فأوهم أن الشمس كائن حي يستحي ويتوقع، ولو أنها تجملت بالأحياء لتوارت خجلاً من الممدوح، وبهذه الصعقة اكتسب التشبيه العراة والإبداع، وهذا لا يتأتى إلا بالتأمل والنظر.

ومثله قول بديع الرمان الحمذاني:

يكاد يحكى صُوبُ العَيْثِ مُسْكناً لو كان طُلُوُّ سَحَابٍ يُبْطِرُ الذُّهَبَ
والبدر لو لم يَفِثْ، والشمس لو نَطَقَتْ والأسد لو لم تُصَدِّ، والبحر لو عَدَّتْ

فالشاعر شبه الممدوح بالعَيْث، وبالبدر، وبالشمس، وبالأسد، وكلها تشبيهات قريبة، لكن الشاعر اجتهد في إخراج هذه التشبيهات من الابتذال والامتهان، فعكس التشبيه فجعل المشبه به مشبهاً مبالغاً، ثم زاد ما ضاعف من روعته، فبعد كل واحد من هذه التشبيهات بقيد وجعله شرطاً يتوقف عليه جمال التشبيه، لذا ارتفع هذا النوع إلى مرتبة الغريب البديع. ويسمى هذا التشبيه «تشبيهه المشروط».

ويقول أبو تمام يصف النساء:

مَهَا الْوَحْشِ، إِلَّا أَنْ هَاتَا أَوَانِي فَمَا الْخَطُّ، إِلَّا أَنْ تَلَكِ ذَوَالُ^(٢)

(١) التشبيه ضمنى هو ما يندرج لحدا من معنى - دسوقي بيده

(٢) منها - البحر الوحش، القنأ: الرماح، واحداً قنأة، الخط: اسم موضع بالهامة تنطق فيه الرياح، ذوال: من الذول والضعف والصلابة.

فتشبه عيون النساء بعيون المها، والقوام بالرمح، تشبيه متدل، لكن أنا تمام أخرجه من الابتذال بهذا الاستثناء البديع، فقد أوهم أن النساء - وهن مشبهات - بعضهن - البقر الوحشى - وهن المشبهات هن - لأهن أواس يأنس بهن من يلقاهن ويأنس به، بخلاف البقر الوحشى فلأنهن نوافره، وكذلك المرأة ذات القوام المعتدل فإنها تفصل الرمح، لأنه جاف، وهى غضة طرية، وهذا أيضاً من قيل التشبيه المشروط.

ويقول البحتري في العزل:

فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ شَيْءٌ مِنْ تَحَابِنِهَا وَلِلْقَضِيبِ نَعِيبٌ مِنْ تَشَبُّهِهَا

فتشبه الوجه بالبدر، والقوام بالغصن تشبيه متدل، لكن البحتري أدخل عليه من الصعقة ما أخرجه من الامتهان، فعكس التشبيه، ثم زاد في بحث الحياة في التشبيه، فأوهم أن البدر - وهو المثل في الحسن والجمال - فيه شيء - من محاسنها، وكذلك فعل في الشطر الثاني فعكسه، ثم رد فأوهم أن لعص - وهو أصل في الاعتدال - فيه نصيب من تشبهها.

وبهذا ترى أن التشبيهات المتدلة تحولت إلى بعيدة وعريضة لصعقة أدخلت عليها وجهه بذل فيها.

التشبيه المقلوب

تعارف الأدباء والنقاد من قديم على تشبيه الخلد بالورد، والثدي بالرمان، ولأعحر بالكُثْد، ولعيون بالرحس، واللُغُور بالأقحوان، والسيد بالخبز، والعنق بإبريق العصاة، والشعر بالليل، والشجاع بالأسد... إلخ.

لكن أرباب الصاعقة البيانية المتفنون في طرق الأداء، لم يقفوا عند التشبيه العادي، لأنهم يرون أن هذه المبالغة المعتدلة أقل من أن تشبع رغبتهم فيما يتوحدونه من أغراض الكلام في الغزل والمدح والثناء وما إليها، فكان أن سلكوا لذلك طرق القلب في التشبيه توصلوا هذه المبالغة المشوذة

عل أن التشبيه من حيث هو لم يرص نزعة بعض الشعراء المحيين للإغراق،
لعضهم (زجرى التشبيه أصالة، كقول المتنبي يفجر بنفسه:

أَمْطَ عَمَكَ تَشْبِيهِى بِمَا وَكَأَنَّهُ فَمَا أَحَدٌ قَوَّى وَلَا أَحَدٌ مَثَلٌ^(١)

فالمتنبي وغيره من الشعراء لم يرضوا عن التشبيه مع افتنائهم في تلويته بمختلف
الأصاع

والتشبيه المقلوب نفسه - مع ما يجويه من مبالغة واضحة - لم يجدوا فيه مقنعاً
فمجتنون ليل يقول:

أَخَذْتُ عِمَاسِي كُلَّ مَا خَنَنْتُ عِمَاسِي بِهِ
كَادَ الْغَزَالُ يَكُونُهَا لَوْلَا الشُّوَى وَتُشَوِّزُ قَرْبَهُ^(٢)

فالغزال يقرب منها شها لو لم تكن فيه هذه العيوب الطبيعية^(٣).

وقال عبد القاهر في معناه: «جعل الفرع أصلاً، والأصل فرعاً»^(٤).

ومعنى كونه مقلوباً: أن يجعل ما الوجه فيه أتم مشبهاً، ليتوهم السامع أن
لمشبه به المقصود بالمبالغة أتم في وجه الشبه من المشبه - الذى أصله مشبه به -
اعتماداً على القاعدة المقررة من أن الوجه في المشبه به أتم، وذلك كقول ذى الرمة:

وَرَمَلُ كَأَوْرَاكِ الْمَذَارَى قَطَعَتْهُ وَقَدْ أَلْبَسَتْهُ الْمَظْلَمَاتُ الْحَادِسُ^(٥)

فهو الرمة جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً، وذلك أن عادة العرب، أن تشبه
أعجاز النساء بكثيران الأنقاء، وهذا مطرد عندهم، كقول ذى الرمة أيضاً:
تَرَى خَنْفَهَا بَصْفًا قَنَاءَ قَوْمَةٍ وَنَصْفًا نَقًا يَزْتَنُّجُ أَوْ يَتَمَرَّمَرُ^(٦)

(١) يرصد «ما وكأنه» ما أشبهه بكذا وكأنه كذا

(٢) الشوى - الأظرف

(٣) في التشبه ج ١/ ٢٦٠، ٢٦٦

(٤) أمراء البلاغة ١٩٤

(٥) ألبسته ماله بالمعجول - عطته

(٦) النقا معصورة، كتيب الرمل، يتعمر يتحرك ونية

ويقول المتنبي:

أَيْنَ الْغَزَالُ الْمَشْعِيرُ مِنَ النَّقَا كَمَلًا، وَمِنْ مَوْرِ الْأَفَاجِي مَسِيًا^(١)

فمكس ذو الرمة ذلك وشبه الأنقاء بأعجاز النساء، وقد فعل ذلك مبالغة،
فأثبت هذا المعنى لأعجاز النساء فصار كأنه الأصل حتى شُهِتَ بها كثيران الأنقاء.

وقد ذكره ابن جني وسماه «غلبة العروع على الأصول»^(٢).

وقد ورد التشبيه المقلوب في القرآن في آيات معدودات، منها ما حكاه - جل
وعلا - عن مستحل الربا من قولهم: (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) (البقرة ٢٧٥)، وقد
قالوا ذلك في مقام: (إِنَّمَا الرِّبَا مِثْلُ الْبَيْعِ)، لأن الكلام في الربا لا في البيع، ذهاباً
منهم إلى جعل الربا في الحل أقوى وأعرف من البيع.

ومثله قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)؟ (الحل ١٧)،
خطب بعده لاوتس رد كسوا قد سموا آله، وحموا عبر الخلق عبرة الخلق في
استحقاق العادة، وكان مقتضى ظاهر المقدم أن يقول: «أفمن لا يخلق كمن
يخلق»، فخولف في خطابهم، لأنهم بالعوا في عبادة الأصنام، وغلوا فيها حتى
صارت عندهم الآلهة الجهاد أصلاً، والخلق - سبحانه - فرعاً.

والمراد «بمن لا يخلق» على هذا: هو الأصنام، بدليل قوله تعالى: (وَالَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (النحل ٢٠) و«بمن»
المختصة بأولى العلم والعقل، لأن الله خاطبهم على معتقدهم لأنهم سموها آله
وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم، ولغرض من الخطاب الإيهام، ولو خاطبهم
على خلاف معتقدهم ومفهومهم فقال: «أفمن يخلق كما لا يخلق» لا اعتقدوا أن
المراد من الثاني غير الأصنام من الجهاد

وقل اس لأسرى (ما حركت لأب ذكرت مع عالم فعلت عنها حكمه في
اقتضاء (من) كما في قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَفَسَّحَ مِنْ يَمِينِي عَلَى

(١) الكحل السحر

(٢) خصائص ج ١/ ٣٠٨

بَطْنُهُ) (السور ٤٥)، وكما في قول العرب: اشتبه على الراكب وجهه، فما أدري من ذا ومن ذا؟^(١).

وللسكاكي في هذا التشبيه رأى، فيقول: «هو لمزيد التوبيخ، دون أن يقول: أعمى لا يخلق كمن يخلق، مع اقتضاء المقام بظاھر إياه... وعندي أن الذي تقتضيه البلاغة القرآنية هو أن يكون المراد: بمن لا يخلق، الخى العالم القادر من خلق، لا الأصنام، وأن يكون الإنكار موحى إلى توهم تشبيه الخى لعالم قادر من الحق به»^(٢) تعالى وبقدس عن ذلك تعريضا به عن أبداع الإنكار لتشبيه ما ليس بـخى عالم قادر به تعالى، ويكون قوله «أعلا نذكرون» نية وتوبيخ على مكان التعريض»^(٣).

ولفرق بين القولين . أن إنكار تشبيه الأصنام بالله يكون مستبعد من ذلك على سبيل التعريض عند السكاكي، وعلى سبيل التصريح عند غيره.

ومنه قوله تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَمَرِّ كَالْعِشَارِ؟) (ص ٢٨)، وقوله: (وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ رَهِيمٌ جَنَّاتُ النَّعِيمِ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ؟) (القلم ٣٤، ٣٥).

فقد تحمست الصورة التشبيهية أصدها في الآتين، لأن الكفار لما كانوا يقولون : نحن سود في الآخرة كما سود في الدنيا، جاء الجواب على وفق معتقدهم أنهم أعلى والمسلمون أدنى^(١).

ويصح أن يقال^(٤٠): إن التشبيه في الدم يُشَبِّه الأعلَى بالأدنى، لأن الدم مقام

(١) مسائل الرزى وأجوبتها ص ١٧١، الكشف ج ٢/ ١٦٦.

(٢) ويكون الحق. أن من يتلقى ليس كمن لا يتلقى من أولى العلم فكيف بما لا علم عند كالأصنام مثلاً ؟
(٣) المستح ١٦٣

(2) بنية الإيضاح جـ 2/15، المواهب الفتحية جـ 1/129

(٥) والفرق في بعض تشبيهاته يجري على التوقع بالكمال أنه يستلزم بالنقص ليقدمه عليه، وذلك في حالات هي ٤٤ الأحراب ٣٢ أو ما يجري مجرى النفس في قوله تعالى (أُنحِمْ لِسْهُمْ كُنُوزَهُمْ) أو يجعل نفس كالمعبر، وإن مراد من الاستعفاء نفس، ومنها (أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ لَا يُفْجَرُونَ) فلم يبق إلا به سربا واسع إلى هي نفس في التشبيه المقلوب

الأدنى، ومنه قوله تعالى: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ) (الأحزاب ٣٢)، أى فى النزول من العلو، أو فى النزول والامتحان كقولهم: ماسٌ كالزجاج، ودرٌ كالخرف، ويكون التقدير فى الآيتين: أنجعلهم مثلهم فى سوء الحال، وانحطاط المنزلة^(١).

وما هو مصبوب في هذا القالب قوله تعالى : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) (الجنانية ٢٣)، بدل - أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ هَوَاهُ إِلَهَهُ^(١).

قِيَمَةُ الْبَلَاغَةِ:

أشار العلماء إلى جمال التشبيه المقلوب، فقد سماه ابن جني «غلبة القروع على الأصول»، وقال: إنه فصل من فصول العربية طريف تجده في معاني العرب كما تجده في معاني الأعراب، ولا تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض منه المسالفة»^(١).

وقال الوطوط^(١) : أحمل تشبيهات وأكثرها قبولا لدى الطباع، هي التي إذا انعكست وشبه فيها المشبه به بالمشبه، فإن الكلام يستقيم مع صحة المعنى وسلامته، وبحساب التشبيه وصحته، مثل تشبيه الطرّة بالليل البهيم فإنهم إذا شبهوا الليل البهيم بالطرة كان التشبيه جميلا مقبولا، ومثل تشبيه الهلال بنعل الجواد، فإنهم إذا شبهوا نعل الجواد بالحلال كان التشبيه كذلك حسنا.

وقد قطع دو لدوق السليم إلى حمار تشبيه لمفلوب، وعنو مرلته في ديين قل
الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : إنكم معاشر أهل الحضرة، لتخطتون المعنى،
إن أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول : كأنه الأسد، ويصف المرأة بالحسن
فيقول : كأنها الشمس، ولم لا تجعلون هذه الأشياء هم أشه^(*).

(١) الصور الآية ١٧٢

(٧) المصاحف ١٦٤

(٢) الخصائص ج ١/ ٢٠٨

(٤) حمد ثنى السحر ١٣٨

(٥) شهادة الأرب ج ٢/١٨

صياح منزلته، وإخفاقه في آماله وأمانته.

وفي الثالث: يعلل ما أصابه من مصائب وهموم بأن الكوارث لا تصيب إلا العظماء ويستدل على ذلك بأن الرياح لا تعصف بالبات الصغير أو العشب الحقيق، وكذلك الكسوف لا يكون إلا لنكواب العظم.

فهو يشبه أعداءه بالنجم من البات، كما يشبه نفسه بالشمس والقمر، إلا أن هذا التشبيه لم يوضع بالشكل المعروف «مشه ومشه به» كالبيت الأول، بل يستنتج من الحملة استنتاجاً ويلحظ منها خطأ، وهذا يسمى «تشبيهاً صغياً» لأنه يفهم صغناً لا صراحة، ويؤق به عادة للبرهان على صحة حكم، والتدليل على دعوى، بأنها ممكنة وصحيحة، فأحياناً يذكر المتكلم أمراً غريباً يستبعد حصوله ويحد في نفسه حاجة إلى أن يسوق ما يكون كدليل يربطه عن عرابه، ويحميه من الأمور الممكة التي لا تُعَد في حصولها، وحيث لا يأتي بتشبيه يبدو وكأنه البرهان والدليل، وإن لم يكن على صورة من الصور المعروفة للتشبيه الصريح.

ومن السهل تحويل هذا التشبيه الضمني إلى تشبيه صريح، فيقال في هذا البيت: إن الحقيق من الناس لا تنزل به حوادث كالبات الصغير لا تعصف به الرياح، وأن الكوارث لا تمحل إلا بالعظماء، كالكسوف والخسوف لا يكونان إلا للشمس والقمر.

وفي البيت الأخير يقول: لا عجب أن يطول سجنى، وليس في ذلك عيب أو نقیصة، فما هو السيف القاطع يحبس في عمده، ولا يعد ذلك نقصاً فيه.

وقد شبه نفسه بالسيف المغمدة في جرابه، وقد أتى بهذا التشبيه الضمني لينال على أن ما قاله صحيح ويمكن، وفي الإمكان تحويله إلى تشبيه صريح فيقال: ليس مستبعد أن يسجن مثلى كما لا يستبعد أن يغمد السيف القاطع.

فالتشبيه الصغى: هو ما يلح من المعنى لمحا، ويؤق عادة للدلالة على أن الأمر الذي أُسَد إلى المشه ممكن ومحقول

التشبيه الضمني

ظل الشعراء حتى أوائل العصر العباسي، وجلهم يقتصر في شعره على الثقافة العربية الخالصة، فلم يكن في وسعهم أن يلويها بثقافة الفرس ولا بفلسفة اليونان، لذلك لم يعتمدوا في تشبيهاتهم على التعليل المنطقي، ولا التدليل الفلسفي.

ولما أطلهم العصر العباسي بثقافته المتنوعة، اتصل الشعراء بالثقافة الفارسية واليونانية، وغمرسوا بأساليبها، فحفلوا بالتعليل، وأكثروا من الاستدلال، ومن هنا كثر لون جديد في التشبيه حماده الأدلة المنطقية والتعليلات الفلسفية.

يقول ابن زيدون^(١) وهو في سجنه في قصيدة يمدح بها ابن جهور:

لم تَطْبُو بُرد شاي كثرة وأرى بَرَقَ المشيب اغتلى في غارض الشعر
لا يَبْنِي الشامت المرتاح خاطره أَلَى مُعْنَى الأمان ضائع الخطر
هل الرياح بتجم الأرض عاصفة؟ أم الكسوف لغير الشمس والقمر؟
إن حال في السجن إذ يعي، فلا عجب قد يودع الجفن حد الصارم الذكر

فابن زيدون يقول متضرعاً من حاله: إن شباي كالبرد لم يطوه الحر، ولكنه من أثر الحم يرى الشيب يلح في رأسه كأنه برق يلح في السحاب.

وقد شبه الشاعر شبابه بالبرد، والشيب بالبرق، والشعر بالسحاب، وكلها من صافة المشبه به للمشبه «تشبيه بليغ».

وفي البيت الثاني: يدعو الشاعر على أعدائه المرتاحي الدال الشامتين لما ناله من

(١) هو ذو الراردين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون الفرطى ووزير آل جهور بقرطبة ثم آل حباد بإشبيلية توفي ٤٦٣ هـ. المردس: السحاب للترص بين السحاب والأرض والمراد الخلد المعنى المهموم، الخطر. الكبد وامرلة، النجم، بات لاساق له، الجفن: الغممة، الذكر من السيوف. الصليب منه (زيدون ابن زيدون ١٤٨).

وكذلك قال علي بن الجهم وقد حبسه المتوكل بعد عصبه عليه :

قالوا حُبِسْتَ، عقلت ليس بضائري حسي، وأنى مهد لا يعمد
أو ما رأيت الليث يالف غيلة كثر، وأويأش يساع نردد
والنار في أحجارها تحوة لا تضطري، إن لم تثرها الأزد
والغيث يخطره القمام فما يري إلا ورثته يراح ويرعد^(١)

فانشعر ندعى لنفسه العظمة، وسمى عنه عار السحر فيقول : لا عجب في
حسي فالسيف القاطع يغمد في جرابه، والأسد المفترس يالف منزله ولا يبرح
أخته عظمة وكبراء، بينما صعد لساع تدهب ونحى، ثم إن صمته الحميدة
وحصاه محيدة محوة فلا تظهرها إلا الشدة، كالنار لا تثنى إلا بالاحتكاك بين
الأزد، وكذلك الغيث بمعه الغمام، فلا يتبدد ماؤه، ولا تسر قطراته، إلا إذ هرت
الرياح.

ولما كانت تلك الصفات التي ادعاها يستبعد حصولها أن بالتشبيه الضمى
كالدليل ليزيل الاستبعاد والغربة، ويجعله من الأمور الممكنة والمألوفة.

ومن أمثله قول أبي تمام وقد حجب عن الدخول على المدوح، فقال :

يأيتها الملك الثنائي برؤيته وجوؤه لمراعى جوده كُتِبَ
ليس الخجاء تنقص عنك لي ملاً إن السقاء ترحى حين تحتج

فاحتجبت عن القصاد ليس حدثاً بي وبين عطائك، بل هو دليل على زيادة
الأمل فيك، ولما كان هذا الحكم غريباً، فقد أتى بما يدل على إمكانه، فقال : إن
السقاء يرجى مطرها حين تحتجب بالغيم عن الناس.

وقد أخذ هذا المعنى المتنبي، فقال :

ومن الخير بطنه سيبك عني أسرع السحب في الميبر الجهم

(١) الفيل : الشجر الكثيف الملتصق، والأجم : موسم الأمده يخطره : يحميه ويريق كل شيء : أوله، يراح
من راح اليوم يروح ويحيا، كان شديد الريح، يريده : يبيت الغمام يحسك المطر إذ تهب عليه الريح فجأة ويحدث الرعد
في تحلله فيبدد ماؤه ويتساقط على غير انتظار : وعلى بن الجهم حياته وشعره ١٨٩ هـ.

معطائك إن تأخر عني أحسن من إتيانه سريعاً، ولا عجب في ذلك ولا غربة
فالسحاب الذي يسرع في السير إنما هو السحاب الخالي من الماء.

ويقول ابن الرومي في هذا المعنى أيضاً :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه، فقد أطال هجاءه
لو لم يقتل فيه بعد المشتقى عند الورود لما أطال رشاءه

ويقول أبو تمام في فضل الحاسد على المحسود :

وإذا أراد الله نشر قصيلة طويت، أنح ها سان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاوزت ما كان يعرق طيب عرق العود

فقد شبه حال صاحب الفضيلة الذي يظهر فضله على لسان حسود يحاول أن
ينال منه، بحال العود الذي لا يفوح شذاه إلا بإشعال النار فيه.

التشابه :

التشبيه الحارفي على الأصل : هو ما يلحق فيه الأدنى بالأعلى، والمنجهول
بالمعلوم، والناقص بالكامل، والأصل في ذلك اعتبار وجه الشبه الذي يكون
أوضح وأتم في المشبه به منه في المشبه.

والتشبيه المقلوب : هو ما عكست فيه هذه الأمور، فيدعى أن العلم والجلال
والكمال متوافرة في المشبه على وجه أتم من توافرها في المشبه به بمعاملة في وصف
المشبه به حتى يخيل أنه أصل يقاس عليه

وقد لا ترد المفاضلة بين الشيتين في صفة من الصفات، ولكن يراد إثبات أن
أحدهما مثل الآخر لا يزيد عنه ولا ينقص، وهذا ما يسميه البلاغيون [التشبيه]
ويعزلونه عن التشبيه.

وإذا أريد الجمع بين شيئين في أمر من الأمور من غير قصد إلى كون أحدهما
ناقصاً والآخر زائداً - سواء وجدت الزيادة والنقصان أم لم يوجد - فالأحسن ترك
لتشبيه، لأن العرض أنه لم يقصد إلحاق الناقص بالزائد.

والتشابه يقتضي التساوي، لأن تشابه زيد وعمروه هي في المعنى: زيد يشبه عمرا، وعمر يشبه زيدا، فيكونان متساويين، فيصير مصموم [التشابه] التساوي.

وقيل شرط ذلك أن يكون الفعل لازما مثل [تشابه، مماثل] فإن كان متعديا أفاد التشبه، مثل [يشبه، يماثل].

والتشابه كقول أبي إسحاق الصابي:

تشابه دمعى إذ حرى ودمعى فمر مثل ماق الكأس غبي تنكث
هو لله ما ذرى أوالخمر أشئت دموعى، أم من عرق كت أشرت
فالشاعر لما اعتقد التساوي بين الدمع والخمر ترك (لتنبيه) إلى (التشابه).

ومن التشابه قول صاحب بن عباد:

رَقُّ الزُّجَاجِ وِراقتِ الخَمَرُ وتَشَابَهَا فتشاكل الأمرُ
وكأَنَّما خمرٌ ولا قدحٌ وكأَنَّما قدحٌ ولا خمرٌ^(١)

مكانة التشبيه من البلاغة

التشبيه من وسائل التعبير التصويرية يستمد قوته من الخيال، فكما أن الرسم والتصوير يعتمد على الأصابع والأحجار حتى تؤول وتصفى بمرور طبيعة جميلة أو فتنة ساحرة أو عبقرية نادرة، نجد التشبيه يشاركهما في إفصاح عن الفكرة والتعبير عن العاطفة بما فيه من عصر الخيال الذي يقابل تلك الأصابع والأحجار.

إذا قرأنا لشوقي قوله يصف إحدى مخائل الجزيرة:

وحيلة فوق الجزيرة مسها دهب الأصيل حواشيها ومثوبا
كشرا أهدأ، ولمر زحذ رهوة والمسك ترونا، وسجين معيا

نجد أنه لا فرق بين لوحة رسمت عليها التهمة وقت الأصيل وبين هذين

البيتين اللذين نعثا فيها الحياة والجمال، وعرضت فيها التهمة مرهرة ذات دل وإعجاب.

فاللوحة المرسومة تعرض المظهر دفعة واحدة، وتتعاون جميع عناصره على التأثير في النفس في لحظة واحدة، بينما التعبير التشبيهي في قول شوقي يعرض تلك العناصر متوالية متتابعة في كل بيت جزء حتى ينتهي المظهر عرضا وبياناً^(٢).

والتشبيه أشبه بوسائل الإيضاح، وتماذج الدروس التي تسبق الشرح فتدلل ما عسى أن يكون من عسر في الفهم، وتثبت معانيها في الذهن، هذا إلى خلاصة البيان التي تنبعث منه انبعاث السحر، فتفعل فعلها العجيب في النفس^(٣).

يقول ابن وهب^(٤): «وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه مهم في تشبيهه لطف كان بالشعر أعرف، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحدق أليق»

وقال أبو هلال العسكري^(٥): «والتشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً، ولهذا أطلق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية ما يستدل به على شرفه، وموقعه من البلاغة».

وقال الزمخشري^(٦) عند قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً) (البقرة ١٧)، ولضرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالحفي في إبراز خيالات المعاني، ورفع الأسرار عن الخفاء، حتى يريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والعائب كأنه مشاهد، وفيه تبيكت لنحصر الألد، وقمع لسورة الجامع الأبي، ولا مرام أكثر الله في كتابه المبين أمثاله، وفشا

(١) أصول النقد الأدبي ص ٧٠ ط تائه

(٢) ص ١٨ ط

(٣) نقد النثر الزمان في وجوه البناء ٥٨

(٤) الص ١٨٣

(٥) الكشف ج ١ ص ٥٥

ذلك في كلام الرسل والأنبياء والحكماء، قال تعالى : (وذلك الأمثال تنصيرها للناس وما يعقلها إلا العالمون).

وقد بلغ به عبد القاهر القمة : فقال^(١) : فالتمثيل يكسو المعاني أبهة، ويكسيها منقبة، ويرفع من أقدارها، ويشب من نارها، ويستشير لها من أقاصي الأفتلة صباية وكسفا ومحة وشغفا.

فإن كان - المعنى الممثل - مدحا كان أبهى وأفخم، وأنبى في النفوس وأعظم، وأمر للعطف، وأسرع للإلف، وأحب للمرح وأسير على ألسن وأدكر، وأولى بأن تعلمه غلوب وأحدر، كقوله تعالى في وصف الصحابة (ومثلهم في الإسماعيل كرزج أخرج شطاء فأرره فاشتعلط فاستوى عى شوقه ينجب الرزاع) (لفتح ٢٩).

وإن كان مدحا كان منه أوجع، وميسمه ألدع، ووقعه أشد، وحده أحد، كقوله تعالى في الذي أوتى الآيات فاستسبح منها : (ومثلهم كمثل الكلب يبحل عليه يلهث أو تتركه يلهث) (الأعراف ١٧٦).

وإن كان وعظما كان أشقى للبصير، وأدعى إلى الفكر، وأبع في النسيه وترجر، كقوله تعالى في وصف نعيم لذي : (علموا أنما حياة لذي لعت وهو وريثة وتذخر بيبكم وتكاثروا في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار سته ثم يبيح فتراه مضفرا ثم يكون حطاما) (الحديد ٢٠).

وإذا أعنت الطر في قول البحترى بمدح يعقوب بن نويحت :

داني على أيدي العفاة وشاسع عن كل نبد في التندى وضرب
كالبر أوط في العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب^(٢)

وفكرت في حالك وحال المعنى معك وأنت في البيت الأول، ولم تنته إلى الثاني

(١) أسرار البلاغة ٩٣ وما بعدها

(٢) العفاة - ملاب للمروف والواحد - عاف، الشاسع - البعيد، وهو استدارة، شبه بعد مكانته بالبعد لتكاد، التذائل، السارين - السائرين يلا، جد قريبه : يبالغ العاية في القرب شبه البحترى بمدحه في قرب معه وعلو منزلته، بالقصر في ضيقه وهو مكانته، ووجه الشبه : اعية الحاصلة من بعد المثال مع قرب التوال

ثم قسيتها بعد أن تنتهي إلى البيت الثاني، ووقفت على معناه، وما اشتغل عليه من تمثيل بالمحسن الذي يدركه البصر، فذلك تدرك بعد ما بين حالتك، وشدة تعاوتها في تمكن المعنى لديك.

وتدرك ذلك أيضا في الفرق بين أن نقول : فلان يكذب نفسه في قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئا، ونسكت، وبين أن نقرا الآية الكريمة : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفرا) (الجمعة ٥) أو سند قول مروان بن أبي حفصة، يهجو قوما من رواة الشعر بأسم لا يميزون بين جيده وريثه مع كثرة روايتهم له :

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يذرى البعير إذا غدا بأرأسه أوزاح ما في الغرائر^(١)

وكذلك بين قولنا : نرى قوما لهم بهاء ومظهر وليس لهم خبر، ونسكت، وبين أن نقول بعد ذلك قول ابن الرومي :

فقدما كالجلاف يورق للعب من ويأى الإثمار كل الإباء
وقوله الآخر :

فإن طرة راقنتك فانظر فرما أمر مذاق العود والعود أحضر

فنحن نرى التشبيه - تمثيلا وغير تمثيل - يزيد من أقدار المعاني ويصاعف من نضلها، ويمتد من قواها في تحريك النفوس لها

والبلغ يؤثر أسلوب التشبيه لما يحتويه من فوائد تعود على الأسلوب من وضوح الفكرة، والمبالغة فيها، والإيجاز للوصول إلى الغرض، وقد يوجد ذلك في المثال

(١) بروس - ما عمل عبدا من الإبل وغيرها الأباير - جمع بعير، أوسقه - أحاله الغرائر، جمع غرارة شبه الشاعر رواة الشعر الذين يستكثرون من حفظه ثم لا يميزون بين أحمده والريثه بالأباير التي تحمل العرائر غادة وزالحة وهي لا تدرك ما في داخلها، ووجه الشبه : هو الميزة الحاصلة من تحمل التعب في استصعاف الشيء مع جهته

الواحد، وقد يبدو بعضها أوضح من بعض في بعض أمثله، إذا كان هذا البعض هو المقصود أكثر من غيره

فما يفيد الوضوح والبيان قوله تعالى يصور المشركين وهم خارجون من القبور في انتشار وكثرة: (يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ) (المعارج ٤٣)، وقوله: (حُشِّنَا أَبْصَارَهُمْ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ) (القمر ٧).

وما يفيد المبالغة، قوله تعالى في وصف النار: (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ، كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ^(١)) (المرسلات ٣١، ٣٢) فشررها ضخمة ضخامة القصر، والجمال الصفر، وهي ضخمة غير معهودة، ولا متعارفة للشر.

وهناك قراءة (القَصْر) بفتح الصاد، قال ابن عباس: كأَسَافِلِ الشجر العظام^(٢).

وقال ابن قتية: ومن قرأ بالقَصْر شبهه بأعناق السخل^(٣)، وهذا التصير أقرب إلى البيئة العربية.

ومعنى (الجمالات الصفر) الجمال السود، فاللون الأصفر كثيراً ما أطلقه العرب على لون السود.

وقد علل ابن قتية هذه التسمية فقال: وإنما سميت السود من الإبل صفراء، لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة، كما قيل لبيض الظباء أدم، لأن بيضها تعلوه كدرة، والشرر إذا تطاير يسقط وبه بقية من لون النار يكون أشبه شيء بالإبل السود لما يشوبها من صفرة^(٤).

وقوله تعالى: (سَأْتُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَحَنَّةٍ غُرُصُهَا كَقُرْصِ السَّيِّءِ وَالْأَرْضِ) (الحديد ٢١)، فحمة الحجة لا يدرك العقل مداها، ولا يعرف متنها

(١) جمالة: جمع حمر

(٢) تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ٣٧٧

(٣) تأويل مشكل القرآن ٢٤٥

وما يفيد الإيجاز، وقوله تعالى غداً الكفار، ومقرناً لهم أمر البعث والموتة (كما مدَّكُمْ تَعْوِدُونَ) (الأعراف ٢٩).

وروى أن الرشيد لما حج دخل مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبعث إلى الإمام مالك بن أنس، فلما قدم بين يديه وسلم عليه بالخلقة، قال: يا مالك صف لي مكان أبي بكر وعمر من رسول الله في الحياة الدنيا، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، مكانها معه كما كان قبريهما من قبره، فقال الرشيد: شعيتي يا مالك^(١)

ويقول ابن الأثير^(٢) في قيمته في تحسين الصورة وتلوينها:

«ألا ترى أنك إذا شئت صورة بصورة هي أحسن منها، كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترتيب فيها.

وكذلك إذا شئت صورة شيء أقبح منها، كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً قبيحاً يدعو إلى التنفير عنها. ثم يضرب مثلاً بقول ابن الرومي في مدح العسل وذمه:

نقول هذا مجاج السخل قدحده وإن تيمت قلت: ذا قيء الزنابير^(٣)

فقد مدح وذم الشيء الواحد بالتشبيه المضمحل الذي غيل للسامع خيالاً يحسن الشيء عنده نارة ويقبحه أخرى.

وقد عرف أسلافنا قيمة التشبيه، وموقعه من البلاغة، وتأثيره في الفنون، وتعلقه بالقلوب، فكانوا يخططون فيه، وتعقد له المجالس على مستوى الخلعة والوزراء، ويستدعي رجال اللغة والأدب ليقولوا قوله الفصل فيه.

ونذكر هذا المجلس - مع طوله - لاحتوائه على كثير من التشبيهات، وعقد

(١) العقد المرید ج ٣/٦٤

(٢) النخل السائر ج ٢/١٢٧

(٣) المجاج الرقيق ترمي من العم، لذلك يقال: العسل مجاج السخل، وبعد إليه قوله.

مدحها وذمها وما جاورت وصعها حسن البيان يرى الظباء كالسود

المقارنة بينها والمفاصلة بالدليل، والحجة القاطعة.

يذكر ابن نايقا البغدادي^(١) عن حدثه وهو سالم بن المحسن الكاتب إملاء من حفظه قال: قال الأصمعي: استدعان الرشيد في بعض الليالي، فراعني رسله، فلما مثلت بين يديه إذا في المجلس يحيى بن خالد، وجعفر، والفضل، فلما لحظني الرشيد استدنانا، فدنوت، وتبين ما أيسني من الوجع، فقال: ليُفرَّخ روعك «ليذهب» فما أردناك إلا لما يراد له أمثالك، فمكثت هيهة، ثم ثابت نفسي، فعد.

إني نازعت هؤلاء في أشعر بيت قالته العرب في التشبيه، ولم يقع إجماعنا على بيت يكون الإيماء إليه دون غيره، فأردناك لفصل هذه القضية، واجتناء ثمرة الخطار^(٢) فيها فقلت: يا أمير المؤمنين، التعمين على بيت واحد في نوع قد توسعت فيه الشعراء، وصنعت معاني لأفكارها، ومسرحاً لخطوطها، لعمد أن يقع النص عليه، ولكن أحسن الناس تشبيها امرؤ القيس. قال: في ماذا؟ قلت: قوله: كان عبون الوحش، حول خيابنا وأرجلنا الجُرُج الذي لم يثقب^(٣) وقوله أيضاً:

سموت إليها بقعد ما ننام أهلها سُمُو خباب الماء حالاً على حال^(٤)
وقوله:

كان قلوب الطير رطباً وباباً لذي وكبرها العُتاب والخشف البالي^(٥)

(١) الجهد في تشبيهات القرآن من ٢٢٣ ظ الكوكب، حنية المحاصرة ج ١/١٧١.

(٢) امرؤ.

(٣) عب عيون الوحش لما فيها من السواد والياض بالحرز غير المتقرب، لأن ذلك أصغر له وأتم لحته (ديوان امرؤ القيس ٣١).

(٤) أراد بفت إليها شيئاً بعد شيء ثلاثاً يشمر أحد يكاني، فكنت في ذلك كحبات الماء وهو يعلو بعضه بعضاً في وقت زوال.

(٥) العتاب: حب امرئ مائل إلى الكثرة في حجب قلوب الطير الرطبة، الخشف: أردأ أنواع الشعر، الوكر: العش.

قال: فالتفت إلى يحيى وقال: هذه واحدة، قد نص على أن امرأ القيس أربع تشبهاء قال يحيى: هي لك يا أمير المؤمنين.

ثم قال الرشيد: فما أربع تشبهاته؟ قلت: قوله في صفة القوس:

كأن تشوقه بالضحي تشوق أزرق ذي غلب
إذا بُز عنه جلال له تقول: سليب ولم يسلب^(١)

فقال الرشيد: هذا حسن، وأحسن منه قوله:

فرحنا بكابن الماء يُجَنَّبُ وسطننا تصعد فيه العين طورا وترتقى^(٢)
فقال جعفر: ما هذا هو التحكيم؟

فقال الرشيد: وكيف؟ قل: يذكر أمير المؤمنين ما كان اختياره وقع عليه، وتذكر ما اخترناه ويكون الحكم واقعاً من بعد. فقال الرشيد: أمرضت. قال الأصمعي: فاستحسنتها منه، يقال: أمرض الرجل، إذ قارب الصواب. ثم قال الرشيد تبدأ يا يحيى؟

فقال يحيى أشعر الناس تشبيها النابغة في قوله:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه المود
وقوله أيضاً:

فإنك كالليل الذي هو مذكرى وإن خلت أن المتأني عنك واسع
وقوله أيضاً:

من وحش وخرة موشى أكرعه طابوى المنصير كيف الصبقل القرد^(٣)

(١) التشوق الارتجاع، يز سلب.

(٢) ابن دية: طاور: يجيب: يقاد يجيب ولا يترك إكراماً له. دعي: رحلتا بفرس كابن الله في حخته وصرته، ونظر العين إلى أعلاه وأسطله من إعجابها به.

(٣) موشى أكرعه: بقوائمه نقط سوداء المود: المنقطع الطير الذي لا خيل له، والمراد أنه مسلول من غنمه. المنصير: المني جمع مصراة، مثل رغيث ورغمان، مصراين جمع الجمع، وبيرة: مكان هويش الثور الأبيض بالبيد المسلول.

مقال الأصمعي : فقلت : أما تشبيه مرض الطرف فحسن إلا أنه قد هججه مذكر العلة، وتشبيه المرأة بالعليل، وأحسن منه قول عدى بن ^(١) ع .

وكأنتها بين النساء، أعمارها عينيته أحر من جانيه جاسم
وسنان أفضته العاس فرنقت في عينه سنة وليس يتأثم^(٢)

وأما تشبيه الإدراك بالليل فقد يتساوى الليل والنهار فيما يدركانه، وكأنما كان سبه أب باق ما ليس له قسيم حتى باق معنى يصرده، ولو شاء قدر أن يقول قول النمرى أحسن لوجد مساعداً، وهو قوله :

لو كنت كالمنقاء أو كسموها لخلت لك إلا أن تصد ترا^(٣)

وأما قوله : «كسيف الصيقل الفرد» فالطرماع أحق بهذا المعنى، لأنه أخذه فجوده وزاد عليه، وإن كان النابغة افترعه، وقول الطرماع في وصف الثور :
يبدو وتضميره البلاد كأنه سيف على شرف يستل ويغمد

قال : فاستبشر الرشيد وبرقت أساور وجهه حتى خلت برقا بومض منها، وقال ليحيى بصلتك^(٤) ورب لكمة، ومنفع يحيى، وكان مل قد دُر على وجهه فقال الفضل : لا تعجل يا أمير المؤمنين حتى يمر ما قلته أيضاً بسمعه، فقال :
ن . قال : قول طرفة .

يثنى حباب الماء حيزومها بها كما قم الترتب المغايل باليد^(٥)
وقوله أيضاً :

لغمرك إن الموت ما أخطأ الفنى لكالطول المرتضى وثنيه باليد^(٦)

(١) الجافز : جمع جؤز وهو أولاد البحر الوحشية، جاسم : مكان بالشام

(٢) المنقاء : طائر سمع عنه ولم يره

(٣) سبقتك .

(٤) حباب الماء : أمواجه، الخروم : الصدور، الغيال : ضروب من اللهب، وهو أن يجمع التراب، مغلغل فيه س . ي . يقسم التراب بصفين، ويسأل عن الدين في أيها هو فمن أصاب قمره ومن أخطأ قمره شبه شق شعره .

لأنه يثنى المغايل الرابح، فجمع بيده (المنقاء للزور)

(٥) الطول : أحسن الذي يطول للداية قترى فيه، الإرخاء : الإرسال، والثنى : الطرف . يقول : -

وقوله :

ووجه كأن الشمس خلت فناعها عليه، نقي اللون لم يتحد^(١)

قال : فقلت : هذا حسن كله، وغيره أحسن منه، وقد شرکه في هذا المعنى جماعة من الشعراء، وبعد، فطرفة صاحب واحدة لا يقطع بقوله على البحور، وإنما يعد مع أصحاب الواحدات، قال : ومن هم ؟

قلت : الحارث بن حلزة في قوله . . . والأشعر الجعدي في قوله . . . والأفوه الأودي في قوله وعلقمة بن عبدة النحل في قوله . . . وسويد بن كاهل في قوله . . . وعمرو بن كلثوم في قوله . . . وعمرو بن معدى كرب في قوله^(٢)

قال : فاستخفت الرشيد الأريحية . فقال : أذنه، فلذلك جحيش^(٣) وحلك !
قال : فزاد في عيني نبلا . فقال جعفر متمثلاً :

ألبث قليلاً فقد يلحق الهيجا بجل^(٤)

يعرض بأنه يجوز أن يدرك هو ما يحاوله . فقال الرشيد :

فاتتت والله السوابق بعدها وحشت سكينتا ذا زوائد أربع^(٥)

ورأيت الحمية في وجهه فقال جعفر : على شريطة حلمك يا أمير المؤمنين فقال :
أثراه يسع غيرك ويضييق عنك !!

فقال جعفر : لست أصح على شاعر واحد أنه أحسن بيت واحد تشبيهاً، ولكن قول امرئ القيس :

- أقسم بحياتك أن الموت في مدة إعطائه الفنى بمنزلة حبل طوبى للداية لوحن فيه وطرداه بيد صاحبه، يريد أن لا يتخصص منه . كما أن الدابة لا تفلت مادام صاحبها أخطأ بطرق طوبى

(١) التحدد : التضرع . يقول : وجه كأن الشمس كته حياها وجمها

(٢) مكان التقط أبيات من الشعر

(٣) الجحيش : المتعبد، ويطلق . متفجع الطير

(٤) ورد المثل بصورة أخرى في سيرة ابن هشام ج ٢٢٦/٢ ألبث قليلاً يلحق الهيجا بجل

(٥) السكينت : آخر خيل الحلبة

كَأَنَّ غَلَامِي إِذْ عَلَا حَالُ مَتْنِهِ عَلَى ظَهْرِ بَازٍ فِي السَّمَاءِ مَخْلُقٍ^(١)
وقول عدى بن الرقاع :

يَتَعَاوَرَانِ مِنَ الْغُبَارِ مُلَامَةً غِبْرَاءَ مُحْكَمَةٍ هُمَا نَسِجَاهَا
نُطَوِي إِذَا وَرَدَا مَكَانًا جَامِيًا وَإِذَا السَّنَابِكُ أَسْهَلَتْ نَشْرَاهَا
وقول الباقعة اللذيذيان :

هَإِنِّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَتَدَّ مِنْهُنَّ كَوَكِبُ
قال : فقلت، هذا كله حسن بارع وغيره أبهر منه، وإنما يحتاج أن يقع التعيين
على ما افترعه قائله فلم يتعرض له، أو تعرض له شاعر فوقع دونه.

فأما قول امرئ القيس : «على ظهر بار في السماء مخلق»، فمن قول أبي داود :

إِذَا شَاءَ رَاكِبُهُ ضَمُّهُ كَمَا ضَمُّ بَازٍ إِلَيْهِ الْجَنَانَا
وأما قول ابن الرقاع : «يتعاوران من الغبار ملامة»، فمن قول الخنساء :

جَارِي أَبَاهُ، فَاقْبَلَا وَهَمَا يَتَعَاوَرَانِ مُلَامَةً الْخُضْرُ^(٢)

وأما قول النابغة : «هَإِنِّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ» فقد تقدمه شاعر من شعراء
كندة، فيه يمدح عمرو بن هند، وهو أحق به من النابغة، إذ كان أبو عدرة فقال :

تَكُذُّ تَحِيدُ الْأَرْضَ بِالنَّاسِ أَنْ رَأَوْا لِعَمْرٍو بَيْنَ هَدَى غَضْبَةٍ وَهُوَ قَاتِبُ
هو لشمس متى رأت يوم سميها فافصلت على كل ضوء، والملوك كواكب

قال : فكانني ألقمت جعفرًا حجرًا، واهتز الرشيد من فوق سريره أشرًا وكاد
يطير منه عجبًا وطربًا. وقال :

يَا أَصْمَعِي، اسْمَعِ الْآنَ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اخْتِيَارِي. قلت : ليقبل أمير المؤمنين

(١) حاش منه وسط ظهره، يقول : كان غلام إذا ركب فرسي فمر سريعًا في علوه على ظهر باز قد خلق في
السماء يجمع طهرًا شديد، وسار من طيور حصيد

(٢) انلاء - الغبار وقد قالت الخنساء هذه أبيات في صفة أبيها وأخوها في السابق (انظر أمالي المتنبي
ج ١/٢٦٧)

أحسن الله توفيقه، فقال : قد عينت على ثلاثة أشعاره أقسم، بالله إنني أملك
قصص السبق بأحدها.

فقال يحيى : خفص على همتك يا أمير المؤمنين، فيأبى الله إلا أن يكون المضل
لك.

ثم قال الرشيد : أتعرف تشبه أمحم وأعظم في أحقر منه وأصعره وأقدره،
في أحسن معرض، من قول عنتره الذي لم يسبقه إليه سابق، ولا طامع في مجاراته
طامع؟، حين شبه ذباب الروض العارب في قوله :

وَحَلَا الدَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحٍ حَرْدًا كَقِفْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرْنُمِ
هَزِيحٌ يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدْحُ الْمَكْبُ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ^(١)

ثم قال هذا من التشبهات المعجم.

قلت : هو كذلك يا أمير المؤمنين، وبمجدك آليت، ما سمعت أحدًا وصف شعرًا
أحسن من هذه الصفة.

فقال : مهلا : لا تعجل. أتعرف أحسن من قول الخطيئة يصف لعمام ناقته،
وتعلم أن أحدًا قبله أو بعده شبه تشبيه فيه حيث يقول :

تَرَى بَيْنَ نَحْيَيْهَا إِذَا مَا تَزَعَمْتُ لَعَامًا كَيْتَ الْعَكْبُوتِ الْمَمْدُودِ^(٢)

فقلت : يا أمير المؤمنين، لا والله، ما علمت أن أحدًا تقدمه، أو أشار إلى هذا
التشبيه قبله، فقال : أتعرف أوقع وأبداع من تشبيه الشياخ لعمامة سقطت ريشه
ونقى أثره، حيث يقول.

(١) المعنى : تجمع الذباب بهذه الروضة يصوت تصويبه شارب الخمر حين رجيع صوته والعمامة هرجاء
مصنوعًا، المكب : القبل على شيء، الأجدم : المقطوع اليدين، المعق، يصوت الذباب حال حكة إحدى ذراعيه
بالأخرى مثل قذح النار من رحن مقطوع اليدين
(٢) ترغم الجمال : رعد رغاء (صوته) في المقام التي تحت حنكه، اللحي : منبت الحية. (ديوان الخطيئة
١٥٥)

كأنها مُشَيَّ أَصْحَاب مَأْمُرُطٍ مِنَ الْعَفَاءِ يَلِيهَا التَّالِيلُ^(١)
فقلت: لا والله، فالغيت إلى يحيى بن خالد، فقال: أوجب؟ قال: وحب،
قال: فأريدك؟ قال: وأى خير لم يزدني منه أمير المؤمنين؟ قال: قول الباقية
الجمعة.

رَمَى ضَرْعَ نَابٍ فَاسْتَقْلَ بِطَعْنَةٍ كَحَاشِيَةِ الْبُرْدِ الْيَمَانِيِّ الْمُسْتَهْمِ^(٢)
ثم لم يلبث إلى العصر، فذهب أوجب؟ قال: وحب، قال: أريدك؟ قال: لأمر
للمؤمنين علو الرأي. قال قول عدي بن الرُّقَاق:

سُرِّجِي أَغْنُ كَانَ إِهْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمُ أَصَابٍ مِنَ الدَّوَاةِ مَذَاهِهَا^(٣)
قال: قلت يا أمير المؤمنين، هذا بيت حسد عديا عليه جرير. قال: وكيف
ذلك؟ قلت: زعم أبو عمرو أن جريرا قال: لما ابتداء عدي ينشد:

عَرَفْتُ لُدْيَارَ تَوَهْمًا فَاغْتَاذَهَا مِنْ بَعْدِ مَا شَجِلَ الْبَلُّ أَبْلَادَهَا^(٤)
فت في معنى: لقد ركب مركبا صعبا سيبدع^(٥) به، فما زال يتحصن من حسن
إني أحسن حتى قد.

تُرْجِي أَغْنُ كَانَ إِهْرَةَ رَوْقِهِ

قال: فرحته وظننت أن مادته ستفصر به، فلما قال:

قَلَمُ أَصَابٍ مِنَ الدَّوَاةِ مَذَاهِهَا

حالت الرحمة حذوا.

(١) الأفع: جمع قمعه وهي البثرة، الليث: صفحة العنق، التاليل: جمع ثؤلول وهي الحية تظهر في الجملد
كالجمعة فيما دونها مرصدة: أمرت.

(٢) التام: الناقصة للشيء، المستهم: المحطوط بصور على شكل سهام، استنق القوم مضو وارغمو
(٣) رجي: يسوق برقه والصبر لخطبه، لأغن من يملأ الذي في صوته غنة وهو ولد الغلبة، الروي

الروي: إهرته: طوله

(٤) الأبلاد: آثار الدمار

(٥) من البدعة وهي الحديث في الدين بعد الإكمال

قال: لله درك يا أصمعي، ثم أطرق ورفع طرفه إلى وقال: ... فالسقى لمن؟
قلت: لأمر المؤمنين.

قال: أسهمت لك فيه العشر، والعشر كثير، ثم رمى طرفه إلى يحيى وقال:
إمال - مهديداً ووعيداً - الساعة وأولى لك، قال: فما كان إلا كمالاً ودماء حتى
نُصِّدَتِ الْبُتْرُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى أَنْ كَادَتْ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَرَأَيْتُ ضَوْءَ الصُّبْحِ قَدْ
عَلَبَ عَنِ صَوْنٍ لَشَمْعٍ، فَأَثَرُ لِي خَادِمٍ عَلَى رَأْسِهِ أَلْ مَكَّةُ، وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَلْفٍ
أَلْفٍ دِرْهَمٍ، فَدُونُكَ وَاحْتِمَلُ ثَلَاثِينَ بَذْرَةً، وَانصرفت إلى منزلك ونهض من
مجلسه، وأمر الخدم بمعاونتي على تعجيل حمله، فاحتمل كل خادم بذره، ولا يكاد
يستقل بها، فكانت أسعد ليلة ابتسم فيها الصباح عن فاجذ الغنى.

التشبيه غير المقبول

المهدف من التشبيه إنما هو إبراز الفكرة وتجهينها بجلاء تاماً، كي تؤثر في نفس
المتلقي أقوى تأثير وأشد، ويستجيد المقاد من التشبيه ما كان بهذه الصفة، وهي
لا تكون إلا إذا كان التناسب والانسجام ظاهراً بين طرفي التشبيه، نرى ذلك
واضحاً في تشبيهات القرآن.

يقول تعالى: (وَحَبُّ اللَّيْلِ لَسَانًا) (السا ١٠)، شبه ليل بلسان، لأنه يستر
لسان بعضهم عن بعض من أراد هرباً من عدو، أو إخفاء ما لا يحب لاطلاع
عنه، وهذا مما سبق إليه القرآن.

ومثله قوله: (نَسَاؤُكُمْ خَرْتُ لَكُمْ) (البقرة ٢٢٣)، وهذا يكاد ينقله الناس
ولا يستخدم عن درحة المحاز إلى الحقيقة، فخرت هو الأرض التي تحرث للزرع،
وكذلك الرحم يزرع فيه الولد كما يزرع البذر في الأرض.

ومثي فقد التشبيه وظيفته من البيان، وخصائصه من الوضوح والتأثير، وسم
بالصح وعدم القبول، يقول صاحب الطراز^(١).

١ - ومن ذلك قوله أبي نواس في وصفه الخمر:

كَأَنَّ يَوَاقِيتَنَا رَوَاكِدُ حَوَلَمَا وَزَرْقُ مَسَايِرِ تَدِيرِ عَيَوبِهَا

فما هذا حاله من التشبيه مع ما فيه من البعد والركّة، فقد اشتمل على نوع غثاثة ومخفف، ومن العجب أنه في هذه الفصيحة قد قرنه بالعائق الرائق، والبديع لاداره، اللئى أجاد فيه وأحسن، وهو قوله:

كَأَنَّا حُلُولٌ بَيْنَ أَكْتَافِ رَوْضِهِ إِذَا مَسَلَّتْهَا مَعَ اللَّيْلِ طِينَهَا

يعنى إذا قُصُوا ختام الدنان الخمرية عن أفواهاها، فكأنهم في روضة من الرياض، لما يحصل في نفوسهم عند ذاك من الارتياح والطرب.

فنظر كيف قرن بين تحرّزه وقوّه، لا، بل بين بقره وغبره ١٢

٢ - وما أساء فيه من التشبيه قوله:

وَإِذَا مَا الْمَاءُ وَقَعَهَا أَظْهَرَتْ شَكْلًا مِنَ الْغَزْلِ

لَوْلَا بِنَحْدَرُونَ بِهَا كَانَحْدَارُ اللَّزْرِ مِنْ جَبَلٍ

ففيه خب الخمر في انحداره بنمل صغار ينحدرون من جبل.

فأين هذا من قوله من صفة الخمر:

كَأَنَّ صُفْرِي وَكِبْرِي مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ تُرَى عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

٣ - ومن بعيد التشبيه ما قاله الفرزدق:

يَمْشُونَ فِي حَلَّتِي الْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ جُرْبُ الْجِبَالِ بِهَا الْكُحَيْلُ الْمُشَلُّ^(١)

مشبه الرجال في دروع الرّد بالجبال الجرب، وهذا من التشبيه البعيد، لأنه إن أراد السواد فلا مقاربة بينهما في اللون، فإن لون الحديد أبيض، ومع ما فيه من البعد ففيه أيضاً سُخْفٌ وَغَثَاثَةٌ.

(١) الكحيل - النمل والقطران يطلى به الإبل، واشمل يله بالفطران: كثر عليها

٤ - وعباب التشبيه إذا كانت بعض كلماته ذا إيحاء تنبوعه النفس، كما في قول أبي تمام:

أَنْتَ دَلَوُ، وَذُو السَّيَاحِ أَبُو مَوْ مَيِّ قَلِيبٌ، وَأَنْتَ ذَلُو الْقَلِيبِ

كما يعينونه إذا لم يكن دقيقاً في نقل الإحساس الذي خالط الشاعر، كقوله.

٥ - صفراء تطرق في الزجاج، فإن سَرَتْ فِي الْجِسْمِ دَبَّتْ مِثْلَ أَيْمٍ لَادَغِ

فإنه لم يحسن في تشبيه ديبب الخمر في جسم شاربها بديبب الحية اللادغة. لأن هناك بوناً بعيداً بين ما يحس به شارب الخمر ولديغ الحية^(١).

٦ - ومنه قول كثير:

إِنَّمَا هَذَا عَصَا خَيْرَزَانَةٍ إِذَا غَمَزُوهَا بِالْأَكْفِ ثَلَيْنِ

ولما سمع هذا التشبيه بشار بن برد عابه، وقال. قاتل الله أبا صخر، يزعم أنها عَصَاً ويعتذر بأنها خيرزانة؟ هلا قل كما قلت:

إِذَا قَامَتْ لِشَيْئِهَا تَشْتَتِ كَأَنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْرَزَانِ

٧ - وقول بشر بن أبي خازم يصف سمية:

وَنَحْنُ عَلَى جَوَانِبِهَا قُعُودٌ نَعُصُّ الطَّرْفَ كَالْإِبِلِ الْقِيَاحِ

فغض الطرف: كسره وأطرق ولم يفتح عيبه، القياح: الرافعات الرؤوس من قمع البعير قموحاً: رفع رأسه عن الخوض وامتنع عن الشرب.

فكيف يشبه الشاعر المطرق بالرافع رأسه ١٢

٨ - وقول أيمن بن خزيمة، يمدح بشر بن مروان:

وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ أُمَّ بَشْرِ كَأَنَّ الْأَسَدَ مِذْكَاراً وَلُوداً

(١) أسس النقد الأقدم عند العرب ٢٣٣ الأيم - الحية.

فَأَقَى فِي الْبَيْتِ بِمَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الذِّمِّ مِنْهُ إِلَى الْمَدْحِ، لِأَنَّ النَّاسَ يَجْمَعُونَ عَلَى أَنَّ
تَنَاجِجَ الْحَيَوَانَاتِ الْكَرِيمَةِ أَعْسَرُ وَأَوْلَادُهَا أَقْلٌ، كَمَا قَالَ كَثِيرٌ عَرَبِيٌّ:

يَعَاثُ الطَّيْرُ أَكْثَرَهُمْ فِرَاحَةً وَأُمُّ الصُّقْرِ بِقِلَاتٍ تَزُورُ^(١)

٩ - وَقَالَ أَبُو نَعَامٍ يَصِفُ فَرَساً:

قَابِيهِ جَذْعُ الْأَرَاكِ وَمَا تَحْتَ الصَّلَا مِنْهُ صَخْرَةٌ حُلْسُ

قَالَ الْأَمْدِيُّ^(٢): أَنْكَرَ عَلَيْهِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ شِبْهَ عُنُقِ
الْفَرَسِ بِالْجَذْعِ، وَأَنَّ يَكُونَ الْجَذْعُ جَذْعَ أَرَاكِ.

فَمَتَى كَانَ لِلْأَرَاكِ جَذْعٌ؟ لِأَنَّ عِيدَانَ الْأَرَاكِ لَا تَعْنُطُ حَتَّى تُصِيرَ كَالْجَذْعِ،
وَلَا تُقَارِبُهَا. وَقَدْ سَلَّمَ الْأَمْدِيُّ بِجَوَازِ تَشْبِيهِ عُنُقِ الْفَرَسِ بِالْجَذْعِ اسْتِدْلَالًا بِكَلَامِ
الْعَرَبِ، وَوَافَقَ أَبَا الْعَبَّاسِ فِي إِنْكَارِهِ أَنَّ تَكُونَ عِيدَانَ الْأَرَاكِ جَذْعًا.

١٠ - وَقَدْ لَمَّزَ الْمُرَارِ بْنُ مَقْلَدٍ الْعَدَوِيَّ - يَصِفُ الْخَالَ:

وَيَخِلُ عَلَى تَحْدِيثِكَ يَبْدُو كَأَنَّهُ سَنَا الدَّرَّ فِي دَهْجَةِ بَادٍ دُجُونَهَا^(٣)

فَالْخُدُودُ بَيَضٌ، وَالْمُنْتَاعَرَفُ أَنَّ يَكُونَ الْخَالَ أَسْوَدَ، فَتَشْبِيهِ الْخُدُودِ بِاللَّيْلِ، وَالْخَالَ
بِضَوِّهِ الْبِدْرُ تَشْبِيهِ نَاقِصٍ لِلْعَادَةِ.

١١ - قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْحَافِي^(٤) وَالنَّاسُ يَرَوْنَ أَنَّ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي وَصْفِ
الشَّيْبِ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ:

الشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصْصَحُ بِجَهَانِيهِ نَهَارٌ

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: وَهَذَا خَطَأٌ، لِأَنَّ هَذَا الْبَيْتَ مُرَكَّبٌ تَرْكِيبًا مَعْكَوسًا، وَلَا تَصَحُّ
الْمُقَابَلَةُ فِي التَّشْبِيهِ إِلَّا بِأَنَّ يَقُولَ: الشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ نَهَارٌ يَصْبِيحُ بِجَهَانِيهِ

(١) بَقْلَاتٌ - النَّاقَةُ تَضَعُ وَاحِدَةً، وَالْمَرَأَةُ لَا يَبْعِثُهَا وَاحِدَةً.

(٢) هَافِيٌّ: الْعَمْرُ، الْجَذْعُ: سَاقُ الشَّجَرَةِ، الْأَرَاكِ: نَوْعٌ مِنَ الشَّجَرِ يَمْلَأُ بِأَعْصَانِهِ، الصَّلَا: وَسَطُ

الْمَنْظَرِ الْجُلْسِ: الْفَيْطُ الصَّلْبُ، دَوَازِلُهُ: حِدَادَتُهُ ١٣٧/١

(٣) الدَّعِجَةُ: السُّودَاءُ، صَفَةُ لِمَوْصُوفٍ مَحْدُوفٍ أَوْ لِبَلَّةٍ سَوْدَاءٍ، دُجُونُهَا: سَوَادُهَا

(٤) حَبِيبَةُ الْحَمَامَةِ ح ٤١٥/١

لَيْلٌ ثُمَّ يَقُولُ وَمِثْلُ هَذَا فِي الْخَطَا وَالْعَكْسِ قَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ فِي صِفَةِ الْخَمْرِ:

كَأَنَّ بِغَايَا مَا عَفَا مِنْ حَبَابِهَا تَعَارِيقُ شَيْبٍ فِي سَوَادٍ عِدَاوٍ
تَرَدَّتْ بِهِ ثُمَّ انْفَرَى عَنْ أَدِيمِهَا تَفَرَّى لَيْلٌ عَنْ بَيَاضِ سَهَرٍ

فَجَمِيعُ التَّشْبِيهَاتِ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مُرَكَّبٌ عَلَى غَيْرِ تَرْكِيبٍ صَحِيحٍ، لِأَنَّهُ شَبَّهَ
الْحَبَابَ بِالشَّيْبِ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ تَشْبِيهُ صَحِيحٌ، ثُمَّ شَبَّهَهُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي
عِنْدَ تَعْرِيفِهِ بِاللَّيْلِ، فَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ الْحَبَابُ أَسْوَدَ، وَقَدْ جَعَلَهُ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ
أَبْيَضَ، ثُمَّ شَبَّهَ الْخَمْرَ بِالْعِدَاوِ الْأَسْوَدِ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ وَجَعَلَهُ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ يَشْبَهُ
النَّهَارَ وَلَيْسَ فِي التَّنَاقُصِ وَالِاسْتِحَالَةِ شَيْءٌ أَقْبَحُ مِنْ هَذَا.

١٢ - وَخَطَأُ الْحَافِيٍّ أَبَا الطَّيِّبِ فِي قَوْلِهِ^(١)

فَإِنْ يَلْتَمَسُ مَا أَمْلَيْتُ مِنْكَ فَرَبَّمَا شَرِبْتُ بِمَا يُعْجِزُ الطَّيْرَ عَنْ وَرْدِهِ

فَجَعَلْتَهُ بِخَيْلًا لَا يَوْصِلُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ جِهَتِهِ، وَشَبَّهْتَ نَفْسَكَ فِي حَصُولِكَ إِلَى
مَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ مِنْ مَاءٍ بِعَجْرِ الطَّيْرِ وَرَدِهِ لِبُعْدِهِ مَشْرَبِهِ، وَتَرَامَى مَطْلَبُهُ

١٣ - وَيَقُولُ الْجَاحِظُ تَعْلِيْقًا عَلَى قَوْلِ السَّابِقَةِ:

فَأَلْفَيْتُ الْأَمَانَةَ لَمْ تَحْنِهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

لَيْسَ لِهَذَا الْكَلَامِ وَجْهٌ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَ دَاوُدُ لَا يَخُونُ، وَكَذَلِكَ كَانَ
مُوسَى لَا يَخُونُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَإِنَّ النَّاسَ إِمَّا يَضْرِبُونَ الْمَثَلَ بِالشَّيْءِ الْبَاسِ مِنْ
فِعْلِ الرِّجَالِ وَمِنْ سَائِرِ أُمُورِهِمْ، وَلَوْ ذَكَرَ الصَّبْرَ عَلَى الْبَلَاءِ فَقَدْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ أَيُّوبُ
لَا يَجْزِعُ كَانَ قَوْلًا صَحِيحًا، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَجْزِعُ لَمْ تَكُنْ
الْكَلِمَةُ أَعْطِيَتْ حَقَّهَا.

وَلَوْ قَالَ: سَأَلْتُكَ فَمَسَعَتْنِي وَكَانَ الشَّعْيُ^(٢) لَا يَمْنَعُ، وَكَانَ النَّخَعُ^(٣)

(١) الرِّسَالَةُ الْمَوْضُوعَةُ ٩١

(٢) الشَّعْيُ: هُوَ مِنَ التَّابِعِينَ وَيُضْرَبُ بِمِثْلِهِ نَوْحٌ سَنَةَ ٩٠٣ هـ بِالْكُوفَةِ

(٣) النَّخَعُ: أَحَدُ التَّابِعِينَ مَاتَ غَتِيًّا مِنَ الْحَمَاجِ ٩٣ هـ

لا يقول : لا، لكان غير محمود في جهة البيان، لأنه لما لم يكن ذلك هو المشهور من أمرهما، لم تصرف الأمثال إليهما^(١).

١٤ - «ولا يخلو شعر أهل العصر من أخطاء التشبيه بالرغم من ثقافتهم الربيعة، وما أمدتهم به العلوم من المعارف الوثيقة، فمن ذلك على سبيل التمثيل قول أميرهم «شوقي» يصف تصعيد الطائرات في الجو:

دهت نسو فكانت أفعأ فسوراً فصقوراً فحما
بعضها في طلب البعض كما طارد النسر على الجو القطا

وكان الترتيب الواقعي في البيت الأول أن يقول: فكانت نسوراً، فأعقباً، فصقوراً، فحما.

لأن نسور أصح من العقاب أحسماً وإن كنت أقل منها قوة، والعادة أن الطيارة تصعد حين تصعد في الحوشين مشيت، فمن المفعول أن تدو يادى دى بدء في نظر العين نسا ثم عقاباً لا العكس، ولكنه هنا يقول: إنها بدأت صغيرة ثم صارت كبيرة، وهذا محال.

وفي البيت الثاني: ذكر النسر يطارد القطا - بالضم والفتح - وهو الصقر، وذلك جهل فاضح بطبيعة كل منهما.

فالنسر من الطيور التي تأكل من صيد غيرها، وتقع على الجيف المطروحة كالحدأة، والصقر من عتاق الطيور وأحرارها، كالعقاب، والشاهين، والبازي، وهي بمثابة الأسود من الحيوان المفترس تصيد وتترك بقايا فرائسها للنسور وغيرها من كلاب الطيور.

فالنسر لا يفكر في مطاردة الصقر، وهو أعجز وأجبن وأضعف من أن يطارده وكان يصح البيت لو قال:

بعضها في طلب البعض كما طارد الصقر على الجو الحما

ولو تم لشوقي ذلك لكان هذا البيت في جمال ترتيبه، وحسن تعاطفه، وملاحة انسجامه، كبيت المشهور:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
فلقاء يكون فيه دواء أو فراق يكون فيه الداء^(١)

١٥ - وقد وصف بعض نكبات وصف حصص من حصون فقال مشها له «هامة عليها من القيام عيامة، وأئمة تحضبها الأصيل فكان اهلال لها قلامة». فليس تقع الأئمة من الحصن، وما كان أصاب في المناسبة بين ذكر الأئمة والقلامة وتشبيهها باهلال.

ولا يعترض على ذلك بقوله تعالى (وتمر قدرناه مابر حتى عاد كغمرخوب القديم) (يس ٣٩)، لأن هذا التشبيه في أعلى درجات الإصابة، إذ شبه الهلال بالمرجون القديم في استدارته وهيئته الساحلة، لافي مقداره، لأن مقداره عظيم ولا نسبة للمرجون إليه، لكنه في مرأى النظر كالمرجون هيئة لا مقداراً.

وأما الأول فليس من هذا الوجه، لأنه شبه صورة الحصن بأئمة في المقدار لا في الهيئة والشكل، وهذا غير حسن ولا مناسب، وما أوقعه فيه ذكر الهلال والقلامة مع الأئمة، فأخطأ من جهة، وأصاب من جهة.

التشبيه حقيقة أم مجاز؟

اختلف الباحثون في حقيقة التشبيه، أوه حقيقة أم مجاز؟ فقد ذهب بعضهم إلى أنه حقيقة، ولعل عبد القاهر من أوائل الذين قرروا ذلك، يقول:

إن كل متعاط لتشبيه صريح، لا يكون نقل اللفظ من شأنه، ولا من مقتضى غرضه، فإذا قلت: «زيد كالأسد»، وهذا الخبر كالشمس في الشهرة» و«له رأى كالسيف في المضاء» لم يكن نقل اللفظ من موضوعه، ولو كان الأمر على

تخالف ذلك لوجب ألا يكون في الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز، وهو محال، لأن التشبيه معنى من المعنى، وبه حروف وأسماء يدل عنه، وهذا صرح به كرم ما هو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم في سائر المعاني^(١)

وتعنه فخر الدين الرازي^(٢)، وكذلك المطرري^(٣) يقول:

«التشبيه وإن لم يكن من باب المجاز في شيء، إلا أن أوردته لأمرين:

أحدهما: أن يكون توطئة لمن يسلك سبيل الاستعارة، والتمثيل، لأنه كالأصل لهما وهما كالفرع.

والثاني: أنه ركن من أركان البلاغة لإخراجه الخفى إلى الجلى، وإدناؤه البعيد من القريب.

وعلى هذا المنهج سار السكاكي، وانقزويني، وشرح التلخيص.

وحجتهم على ذلك: أن المجاز استعمال اللفظ في غير موضوعه الأصل، وقولنا: زيد كالأسد، مستعمل في موضوعه في الأصل، فلهذا لم يكن معدوداً في المجاز^(٤).

وذهب جماعة أخرى إلى أن التشبيه مجاز، صرح بذلك، ابن رشيق فقال: «والمجاز في كثير من الكلام أسع من الحقيقة، وأحسن موقعاً في القنوب والأسباع، وما عد حقائق من جميع الألفاظ لم يكن محلاً محضاً فهو مجاز، لا حتمه وحوه التأويل فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلية تحت المجاز».

ويقول بعد ذلك بقليل: «وأما كون التشبيه داخل تحت المجاز فلأن المتشابهين في أكثر الأشياء إنما يتشابهان بالمقاربة والاصطلاح لا على الحقيقة^(٥)».

(١) أسرار البلاغة ٢٠٩

(٢) نهاية الإيجاز في درية الإعجاز ٧٧

(٣) الإيضاح في شرح مفاتيح الخريز

(٤) الطراز ج ٢٦٥.

(٥) المسند ج ١٧٨ - ١٨٠

وقد قرر ابن الأثير أن الذي: انكشف له بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم قسمين: توسع في الكلام، وتشبيه، والتشبيه ضربان: تشبيه تام وهو أن يذكر المشبه والمشبه به، والتشبيه المحذوف: أن يذكر المشبه به دون المشبه، ويسمى «استعارة»... وإن شئت قلت: إن المجاز ينقسم إلى توسع في الكلام، وتشبيه، واستعارة، ولا يخرج عن أحد هذه الأقسام الثلاثة، فأبها وجد كان محاراً: وحجته على ذلك أن قولاً: «زيد كالأسد» إذا كان معدوداً في المجاز يتفق بين عمى البيان فيجب في قولنا: «زيد كالأسد شجاعة» أن يعد في المجاز أيضاً، إذ لا تفرقة بينهما إلا من جهة ظهور لأداة، وظهورها، لم يرد قوة ودخولاً في المحار لم يكن محرجاً عن المحار، ولأن التمثيل إذا كان معدوداً في المحار في نحو قولنا: فلان يقدم رجلاً ونزحراً أخرى - يقال للمتحير في أمر - بهكد حل تشبيه أيضاً^(١) وإلى مجازية التشبيه ذهب والد سباه الدين السبكي في تفسيره^(٢)

هذه هي حجة الفريقين - والطاهر أن التشبيه حقيقة، لوضوح تعليل وتحليل الإمام عبد القاهر وظهور حجته.

(١) النظم السائر ج ٢/٧١.

(٢) أبو جلال العسكري، والعافى، وأبو حسن الأمدى، وأبو محمد الخطنجي، ومن نف عنهم من جهة النقد والبلاغة المتقدمين: يرون أن «الأسد» في نحو «زيد كالأسد» استعارة، وذلك لأنهم قرأوا الاستعارة بما يشتمل على: حيث قالوا: «الاستعارة هي إجراء المشبه به عن المشبه إطلاقاً، أو حلاً، بصفة الأداة» كما فسروا التشبيه في مخرج نحو هذا، حيث قدروا التشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر آخر في معنى بالكاف، ونحوه وهم يعمون بهذا أن التشبيه لا يسمى تشبيهاً إلا إذا كانت أداة التشبيه مذكورة في اللفظ أما إذا كانت محذوفة، وكان التشبيه به محمولاً على المشبه، أو في حكم المحمول فإنه يسمى في هذه الحالة «استعارة»، (انظر البلاغة التطبيقية

المَبَابُ الشَّانِي

المَجَاز

لمحة من تطور لفظ «المجاز» :

أول من تكلم بلفظ «المجاز» هو أبو عبيدة (ت ٢٠٧ هـ) في كتابه «مجاز القرآن» ولم تكن كلمة «المجاز» عنده بالمعنى المعروف الآن - وهو مايقابل الحقيقة - وإنما كان المراد توضيح الكلمة وتفسير معناها، فيقول مثلاً في قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه ٥) أى علا، وفي قوله : (إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ) (المؤمنون ٢٥) مجازها الحنون وهما واحد^(١).

ولو تتبعنا كتابه لوجدناه تفسيراً لغريب لقرآن، وكان بعيداً عن التعرض لإبراز الصور البيانية في القرآن، ومع ذلك فقد عدّه بعض السحّثين لبوة لأولى للسحّث البيانية^(٢).

وتكلم الفراء ت ٢٠٧ هـ عن المجاز بالمعنى اللغوي الذي رأيناه بوجه عام في «مجاز القرآن»^(٣).

وكذلك ابن قتيبة ٢٧٦ هـ كانت كلمة «المجاز» عنده تعنى ما كانت تعنى عند أبي عبيدة، يقول : «وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول وماخذها، ففيها الاستعارة والتمثيل، والقلب والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار والإحياء والإظهار، وتعرض للإبصار، وكتابة وإبصار، ومحاطة الواحد ومحاطة الجميع والجميع خطيب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين،

(١) مجاز القرآن ج ٢ ص ٥٦٢، ٥٧

(٢) متابع تجديد ١٠٧، القرآن الكريم وأثره في الدراسات السبعية ٢٤٥، مقدمة بديع القرآن ٤٦

(٣) أثر القرآن في تطور النقد العربي ٥٧

والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، ويلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة سنريها في أبواب المجاز إن شاء الله^(١).

ويختلف ابن قتيبة عن أبي عبيدة في فهم «المجاز» بأنه كان أكثر تحديداً للدلول الكلمة إذ نقلها إلى المدلول البان، وعرفها بأنها «طرق القول وماأخذ» أى فنون الكلام^(٢).

وجاء القرن الثالث ومعه المتكلمون من المعتزلة وقد حاولوا تحليل عقيدة من كل ما لاسها من سوء فهم، وكب هذا التوحيد عندهم منطقاً أساساً لمحتهم في المجاز دفاعاً عن الألوهية من كل ما يمكن أن يقوم حولها من فهم يؤدى إلى التجسيم أو التشبيه.

وقد واجهوا كل النصوص القرآنية، أو الأحاديث الشريفة التي تتعارض مع عقيدتهم، أم الأحاديث فقد تحيلوا، مما حالف عقيدتهم من سطوع في من الحديث أو سنده، وقد جرح الطام أبا هريرة وابن مسعود وغيرهم من رواة الحديث بما كان له آثاره السيئة عند ابن أبي قتيبة^(٣)، أما القرآن فلم يكن لهم من سبيل إلى نقده، لكنهم حرروا عقولهم واستخدموها في تأويل الآيات المتشابهة وخرجوا بها عن طاهرها حتى تنوفت مع عقيدتهم.

وكانوا في تأويلاتهم يعتمدون على الأساس اللغوى، فكانوا يحملون العبارات الدالة على تصوير وتشبيه والتي لا يتيق طاهرها بمقام الألوهية على وجوه تكون أبعد ما يكون عن التجسيم والتشبيه، استناداً على أدلة اللغة المستمدة من الشعر القديم والموروث عن لغة العرب، وكسوا في ذلك يتكثون على ما روى ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - «إذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فاطلبوه من أشعر»^(٤).

(١) تأويل مشكل القرآن ١٥

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربى ١١٣

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٢١ وما يعلق

(٤) مجالس لعل ٣١٧

فمثلاً كانوا يتوقفون عند قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه ٥)، يقول العاصم عبد الحار رداً على المجسمة: «قالوا: الاستواء إنما هو القيام والاتصاف، وهما من صفات الأجسام، فيجب أن يكون الله جسماً»

وبما قال في الجواب: إن الاستواء ههنا بمعنى الاستيلاء والقلعة، وذلك مشهور في اللغة، قال الشاعر:

فلما علَّونا واستَوينا عليهم تركناهم صرعى لنشر وكاسير
وقال آخر:

قد استَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ
فالحمد للمهتَمِّينَ الْخَلَّاقِ^(١)

وبذلك تنفى شبهة التجسيم من الآية، ويصبح المعنى: الاستيلاء والاقتدار والغلبة، وكان ذلك بالرجوع إلى أصل اللغة.

* * *

وكان المحافظ دت ٢٥٥ هـ أول باحث يعد «المجاز» مقابلاً للحقيقة - بالمعنى المعروف الآن - وليس بمعنى التفسير - كإبي عبيدة - وقد كانت دراسة المحافظ للمجاز صورة صادقة لبحوث المعتزلة، فقد اختلف مع أهل الطاهر وأصحاب الحديث في المجاز وغاض معهم بسببه المعارك، واتهمهم بالنقض في الإدراك وعدم الفهم، وقصر الإدم بدقائق لأسلوب القرآن، فصلا عن أساليب العرب، وضرب لذلك أمثلة، فقال في قوله تعالى: (يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ) (النحل ٦٩)، العسل: ليس شراباً، وإنما هو شيء يحول بالماء شراباً، أو بالماء سيذا، فساه شراباً إذ كان منه يجرى الشراب، ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم من العرب قليلاً ولا كثيراً، وهذا الباب مقبرة العرب في لغتهم وبه وأشباهه اتسعت، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب وطعن عليه من هذه

خطة؟^(٢)

(١) شرح الأصول الخمسة ٢٢٦، متشابه القرآن ٧٤، تنزيه القرآن عن المنطق ٣٥١

(٢) الحيوان ح ٢٦/٥

ويقول في قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا) (النساء ١٠) وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأسنة، وليسوا الخليل، وركبوا الدواب، ولم ينفقوا منها درهمًا واحدًا في سبيل الأكل، وقد قال : (إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا)، وهذا مجاز آخر.

ومضى الجاحظ يقرن الآية بآيات أخرى، وبعض أشعار العرب التي تجرى مجرى الآية في المجاز، ويعقب على ذلك بقوله : «هذا كله مجاز؟»^(١)

ويعلق أحد الباحثين على كلام الجاحظ بقوله^(٢) : «واستعماله للكلمة، الحقيقة والمجاز في «الحيوان» يدخل في استعمال البلاغيين المتأخرين، فقد استعمالها بمعناها الدقيق، ولعل ذلك يدل على أن ابن تيمية أخطأ التوفيق حين زعم أن تقسيم «نفس» إلى حقيقة ومجاز يقسم حدث بعد الثلاثة نفوس لأولى للمهجرة».

وقد أخذ الباحث بعض نص ابن تيمية وأهمل بعضه ونسب إليه الخطأ وهو منه براء، وهذا نص ابن تيمية كاملاً.

«فهذا التقسيم - يعني الحقيقة والمجاز - هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى، ولم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا أحد الأئمة المشهورين في العلم، كمالك، وشورى، وأبي حنيفة، والشافعي، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو، كالخليل، وسيبويه، وأبي عمرو بن العلاء، وغيرهم، وأول من عرف أنه تكلم بنفط «المجاز» أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه، ولم يتعن بالمجاز ما هو تقسيم الحقيقة، وإنما عني بمجاز الآية : ما به عنها وإنما اشتهر في المائة الرابعة، وظهرت أوائله في المائة الثالثة، وما علمته موجوداً في المائة الثانية إلا أن يكون في أواخرها»^(٣).

وبتمام نص ابن تيمية نرى أنه يتفق مع الباحث في أن هذا التقسيم ظهرت

(١) أخبار جده ٥٢/٥، ٢٨

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ٥٦

(٣) الإيمان ٨٣، ٨٤

أوائله في المائة الثالثة، وإنما اشتهر فقط في المائة الرابعة، وبهذا يسقط الاعتراض على ابن تيمية من أساسه^(١).

وقد كان أمام المعتزلة في كل الآيات التي يوهم طاهرها التشبيه والتحسيم نوعين من الدلالة : ما يسمى بالمعنى الأول - وهو المعنى الطاهر المكشوف والذي يستتر تحته المعنى المجازي، وذلك كالاستواء في الآية السابعة، أو اليد الخارجة في قوله تعالى (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) (الفتح ١٠)، وما يسمى بالمعنى الثاني - وهو المعنى المستتر ولئى تشير إليه الصورة الحسية عن جهة الروم أو التخصيص، ويصلون إلى هذا المعنى الثاني عن طريق الرجوع إلى النعة أو تحكيم القياس العقل، والربط بين الآيات المتشابهة والآيات المحكمة، وفهم الأولى على ضوء الثانية، وكل هذا يؤدي إلى تعديل لدلالة بظاهرة بآيات المتشابهة وتحويلها إلى المجاز، وهذا لا تتعارض النصوص مع مذهبهم في التوحيد، ومن ثم تصيح كلمة «الاستواء» مراداً بها الاستيلاء والغلبة والتمكن، و«اليد» مراداً بها القدرة^(٢).

إنكار المجاز :

في الوقت الذي نبشت فيه فكرة المجاز عند المعتزلة عارضتها أصوات قوية آلمة في موت المكرة، وقالت لم «المجاز» أم يكن من الأولى أن يعر القرآن عن أهدافه تعبيراً مباشراً بدلاً من هذا التجوز الموهم في الدلالة؟ وإذا كان من المعلوم أن المتكلم لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة، فهل يمكن أن يوصف الله سبحانه - وهو الذي لا يعجزه شيء - بذلك؟

هذا التساؤل دفع علماء الطاهرية، كداود بن علي الأصماني وت ٢٧٠ هـ وابنه أحمد وت ٢٩٧ هـ، وابن القاص من الشافعية وت ٢٣٥ هـ وغيرهم إلى إنكار المجاز وقالوا : إنه أحو الكذب والقرآن متره عنه، وأن المتكلم لا يعدل عن

(١) بلاغة نفوس في آثار النفاصي عبد الحبار ٢٩

(٢) انظر الصور الفنية في التراث القصى وإبلاغي ١٥٦

الحقيقة إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير، وذلك محال على الله تعالى^(١). وقد جرى ابن حزم الأندلسي وت ٤٥٦ هـ، محرى داود الظاهري^(٢).

لكن جمهور أهل السنة والأشاعرة والمعتزلة رأوا خلاف ذلك، فالمجاز عندهم ليس عجزاً في التعبير بل هو مظهر من ثراء العبارة، وقد نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين وفيه ما في لغة العرب من المجازات في أجمل نظم.

كما أن المجاز ليس كذباً، يقول ابن قتيبة - وهو من أهل السنة - : «لو كان المجاز كذباً لكان أكثر كلامنا فاسداً، لأننا نقول : نبت القل، وطالت الشجرة، وأينعت اشجرة، وأقام الجبل، ورخص السر، ونقول : كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا، والفعل لم يكن وإنما كونه»^(٣).

وفي موضع آخر يرى أن العرب تقول إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم : «أظلمت الشمس له، وكسف القمر لمقده، ويكته الريح والسماء والأرض، يريدون المبالغة في وصف المصيبة به، وأنها قد شملت وعمت، وليس ذلك بكذب لأنهم جميع متواطئون عليه، والسمع له يعرف مذهب القتل فيه، وهكذا يفعلون في كل ما أرادوا أن يعظموه ويستقصوه صمته، وينهم في قوهم : أظلمت الشمس، أى كادت تنظم، وكسف القمر، أى كاد يكسف، ومعنى «كاد» هم أن يفعل ولم يفعل، وربما أظهروا «كاد»، وأكثر ما في القرآن من مثل هذا فإنه يأتي بـ «كاد»، في لم يأتي بـ «كاد» فيه إصهارها، كمويه (وينعت القلوب الحياض) أى كادت من شدة الخوف تبلغ الحلق»^(٤).

ويقول عبد القاهر - وهو أشعري - : «من قدح في المجاز وهم أن يصفه بغير الصدق فقد حط خطاً عظيماً، ويهدف لما لا يجمي، ولو لم يجب الحث عن حقيقة المجاز والعناية به حتى نحصل درويه وتصبط أقسامه إلا للسلامة من مثل هذه لقالة، وللخلاص مما يحا حو هذه الشبهة لكان من حق العاقل أن يتوهم عليه،

(١) البرهان ج ٢/٢٥٥، نكت السائر ج ١/١٠٦، الإنقاذ ج ٢/٣٧

(٢) انظر ابن حزم حياته وعصره ٢٢٦ - ٢٥٥

(٣) تأويل مشكل القرآن ٩٩

(٤) تلخيص السابق ج ١/١٢٧

ويصرف العناية إليه، فكيف وبطالب الدين حاجة ماسة إليه من جهات يطول عددها»^(١).

وليس هناك ما يبرر منع أهل الظاهر من التأويل المجازي للقرآن الكريم، وتوهمهم أن المجاز - والاستعارة أهم أقسامه - إنما هو من قبيل القول الكاذب الذي ينبغي أن يتزه القرآن الكريم عنه، وهذا الفهم ليس له أساس عند عبد القاهر لأن الاستعارة لا تغير المعنى أو تعدله، وإنما تغير طريقة إثباته، وتجعله أنقى وأشد تأثيراً مما لو قدم عارياً دون ثوب الاستعارة أو كائها.

إن الاستعارة من «العارية» وحدها من المعنى حال الثوب يعاره الرجل فيتغير مظهره الخارجي، ويكتسى مهابة أو جمالا أو قبساً، لكن ذلك كله من قبيل الأعراض الطارئة التي لن تدوم إلا بدوام مدة الإعارة، وكما أنك لا تستطيع أن تجمع الرجل من السوق وتغير من جواهره عندما تجمع عليه ثياب الملوك، وتلبسه ربهيم، إذ يظل حوك موك والسوق سوقة رعم الأرياء والأردية، كذلك معنى مجاز أن يتغير في ذاته عندما يكتسى ثياب الاستعارة أو يتندى في حبلها.

وعلى هذا الأساس فلا بد أن تكون المزية التي تراها لقولك : رأيت أسداً، على قولك : رأيت رجلاً لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجراته، ليست في أنك أفدت بالقول الأول زيادة في مساواة الرجل بالأسد، بل في أنك أفدت تأكيداً وتشديدًا، وقوة في إثباتك له هذه المساواة. «فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته بل في إيحائه والحكم به»^(٢).

وهذا مما يؤكد حرص المتكلمين على نفى شبهة الكذب نفياً تاماً.

الخلاف بين المثبتين للمجاز :

ليس هناك خلاف بين جمهور أهل السنة والمعتزلة في التسليم بوجود المجاز في القرآن الكريم، إلا أن التعارض بينهما يكمن في مدى المصى والاستمرار في تطبيق المجاز على القرآن.

(١) أسرار البلاغة ٣٣٩

(٢) أسرار البلاغة ٢٨١، دلائل الإعجاز ٥٥

فالمعتزلة يذهبون إلى أقصى حد، بينما يتوقف أهل السنة عند حدود بعينها، فالمعتزلة فلاسفة عقليون يخضعون على العقل أسنى درجات القداسة، ويلحون على القياس والاستسباط والنظر، أما أهل السنة وأصحاب الحديث فهم مؤمنون بالنقل ويقدمونه على القياس والنظر، لذلك يجدهم يتعاملون بحذر مع المحار.

فقد كان المعتزلة ينظرون إلى نطق السماء والأرض، وكلام جهنم، وتسيح الطير والحيال، على أنه من قبيل المجاز، فالآيات التي تسند الكلام إلى الخلق والحوار الذي يدور بينه وبين الكائنات لا تؤدي المعنى الحقيقي، وإنما هي مجازات لها حقائقها المحددة، والشعر القديم ملء بالظائر والأشياء.

وتتج صورة من الجدل الذي دار بين المعتزلة وأصحاب الحديث الذين يمثلهم ابن قتيبة^(١): «ذهب قوم في قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة، وإن هو يحد للمعنى، وصره في كثير من نثره على المحار وقلوا في قومه للسماء والأرض (أنتي طوعاً وكَرْهًا قاتِ تينا طائعين) لم يقل الله ولم يقلوا، وكيف يخاطب الله معذوماً؟ وإنما هذه عبارات لكونها فكانتا، قال الشاعر حكاية عن ناقته:

تقول إذا ذرأت لها وضبي أكل دينه أبداً وديني
أكل الدهر جلّ وارحماً أما يُقضى على ولا يقضى؟^(٢)

وهي لم تقل شيئاً من هذا، ولكنه رآها على حال من الجهد والكدال ففرض عليها بأنه لو كانت ممن تقول لفالت مثل لدى ذكر

وكقول الآخر: شكنا إلى حلى طول السرى.

والحمل لم يشك ولكنه خبر عن كثرة أسعاره وإتباعه جملة، وقضى على الحمل بأنه لو كان متكلماً لاشتكى مما به.

(١) تأويل مشكل القرآن ٧٨، ٧٩

(٢) ذرات، سطره الوصير، بساط حريش من شعر

وقول عترة في قومه:

عاروز من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بغرة ونحمهم
لما كان الذي أصابه يُشكني مثله ويُستعبر منه جعله مشتكياً مستعبراً، وليس هناك شكوى ولا عترة

ومثل ذلك في قوله تعالى (إِنَّمَا قَوْلُنَا شَيْءٌ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (الحل ٤٠)، وقوله: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (النساء ١٦٤).

ولكن ابن قتيبة يذهب إلى العكس من ذلك ويقول:

«وما في نطق جهنم ونطق السماء والأرض من العجب، والله تعالى ينطق الجنود والأيسى والأرحل، ويسحر الحبل والطير لتسبح فقال تعالى (إِنَّا سَحَرْنَا الْحَدِيدَ مَعَهُ يُسْحَرُ بِالْعَيْنِ) والإشراق، وطير محشوة كل به أوأب) (ص ١٨، ١٩) وقد (يا حبل أو معاً ونطير) (سأ ١٠)، أي سحر معاً، وقد (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم به كان حنيناً عموراً) (الإسراء ٤٤) وقد في جهنم (تكاد تميز من الغيظ) (المث ٨) أي تنقطع عيط عبيهم، وقال (إذ رأيتم من مكان بعيد سمعوا لها تغيصاً ورفيراً) (مرفان ١٢)، وروى في الحديث أنها تقول قط قط، أي حسي، وهذا سليمان - عليه السلام - يفهم منطق الطير، وقول النمل، وهذا رسول الله تحبزه النراع المسمومة، ويخبره البعير أن أهله يجيئون ويذهبونه، وفي أشباه لهذا كثيرة^(١).

ومرة أخرى يناقش ابن قتيبة هذه التفسيرات ويجادلهم بذات سلاحهم فيعتمد على اللغة، فهو يوافق على أن القول يقع فيه المجاز إذ تقول العرب قال الحائط، وقال السعير، ولكنه يؤكد أن الكلام لا يقع فيه مجاز، ولا تقول العرب - في مثل هذه الحالة - «تكلم» إذ لا يعقل الكلام إلا بالطلق بعينه «حلا موضع واحد وهو أن تتبين في شيء من الموات عبرة وموعظة، فتقول: خبر وتكلم وذكر، لأن ذلك معنى فيه فكانه كلمك». هذا من ناحية.

(١) تأويل مشكل القرآن ٨٣، ٨٤

ومن ناحية أخرى فإن أفعال المجاز - فيما يقول - لا نحي منها المصائر ولا تؤكد بالتكرار أو غيره، وإلا كانت أفعالا حقيقية لا محار فيها، وعلى هذا الأساس، فإن «القول» في الآية: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ليس من قبيل المجاز، لأن الآية أكدت القول بالتكرار، وأكدت المعنى بإثباته، وأما قوله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) الذي يدخله المعتزلة في دائرة المجاز، فليس منها، وإن هو من قبيل الحقيقة، لأن الآية استخدمت الفعل «كلم» وهو لا يكون مجازاً إلا في حالة واحدة معروفة ليست منها الآية، فصلا عن أن فعل التكلم قد أكد باستخدام المصدر وهو «التكلم»، فخرج الفعل بذلك عن نطاق المجاز، ودخل في دائرة الحقيقة لدى يعنى أن يفهم بالطر إلى الآية (وما كان لشيء أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي إليه ما يشاء)، أى أن كلام الله لموسى كان وحياً أو من وراء حجاب^(١).

وظلت كلمة «المجاز» ترد على ألسنة العلماء في بحوثهم، وصار يتطور مفهومه ومدلوله حتى أخذ وضعه الاصطلاحي ومكانه في البحث البلاغي في عصر السكاكي ومدرسته.

* * *

أقسام المجاز

ينقسم المجاز إلى قسمين:

الأول: مجاز في الإسناد أو في التركيب وقد سبق ذلك في علم «المعاني»^(٢) وعرفنا أن إسناد الفعل إلى دعيه في حوقله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ) يخرج الحى من لبث ونخرج لبث من حى (الأدم ٩٥) من قبيل الحقيقة العقلية، لأن الفعل وما في معناه - فالق يخرج - مخرج - في الآية أسند إلى ما حقه أن يسند إليه، لأن هذه الأفعال من خصوصيات المولى سبحانه، كما أن إسناد الفعل إلى فاعله في حوقله تعالى حكية عن فرعون (يَا هَامُوسُ ائْتِنِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْنَابَ) (عمر ٣٦)، من قبيل المحار العقل، لأن همدان لا يسي معناه وإنما هو الأمر للعمال بالبناء فهو سبب فقط، فالفعل مسند إلى السبب، والمجاز في الإسناد فقط، ليس في الفعل ولا في الماعل، وهذا يسمى بالمجاز العقل.

الثاني: مجاز في الكلمة أو في الأفراد - فإذا أطلقت لفظ «الرجل» على الإنسان، و«الفرس» على الخيول المعروفة، و«سحاب» عن الغيم لتكثف في السماء، كنت مستعملا اللفظ في معناه الأصل الذي وضع له أهل اللغة، ويسمى ذلك حقيقة لغوية.

أما إذا أطلقت عن الرجل الشجاع لفظ «الأسد»، وعلى الفرس السريعة لفظ «الريح»، وعلى الكريم لفظ «السحاب»، لتدل على صفة الشجاعة في الأول، وعلى السرعة في الثاني، وعلى الكرم في الثالث، لم يكن هذا لاستعمال حقيقة، لأن اللفظ قد استعمل في غير ما وضع له، ويسمى هذا مجازاً لغوياً.

وقد جمع المتنبي الحقيقة والمجاز في بيت واحد، فقال:

(١) المعاني في ضوء أساليب القرآن ١٢٨ ط ثانية

تعرض في السحاب وقد قفلنا فقلت إليك عني إن متى السحابا
فثبت في القبة الملك المرجى فامسك بعد ما عزم أنيكابا^(١)

فكلمة «السحاب» الأولى حقيقة، والثانية المراد منها المدح «استعارة»
لعلاقة المشابهة بين المعين، فالسحاب يجود بالغيث والكريم يجود بالمال، والقرينة
قوله: «معى»

وكذلك قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فكلمة «الجهل» في الشطر الأول معناه الاعتداء، وهو مستعمل في معناه
الحقيقي، وكذلك كلمة «جهل» الأخيرة في الشطر الثاني، أما كلمة «سجهل»
الوسطى، فقد أريد بها العقوبة، والعلاقة بين المعين السية، وهي خلاف
المشابهة.

فالحقيقة هي في اللمة وصف عي رة فعيل بمعنى فاعل من قولهم حق الشيء إذا
ثبت، قال تعالى (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) (يس ٧)، أو بمعنى
مفعول من حققت الشيء إذا أثبتته، ثم نقل هذا اللفظ في الاصطلاح من الوصفية
بمعنيها وحمل اسماً للكلمة المستعملة فيها وصفت له، من حيث إنها ثابتة في مكانها
الأصل «على التفسير الأول»، أو مثبتة في مكانها الأصل «على التفسير الثاني».

وأما المجاز فقد ذهب عبد القاهر^(٢) إلى أنه في اللغة مصدر عل وزن مَفْعَل
بمعنى الحوار ولتعددية، من حار المكان إذا تعدد، ثم نقل إلى الكلمة المستعملة في
غير ما وصفت له من حيث إنها حائرة مكانها لأصل، فيكون المصدر بمعنى اسم
الفاعل أو من حيث إنها يجوز بها مكانها الأصل، فيكون المصدر بمعنى اسم
المفعول.

(١) هنا وجعنا إليك اسم فعل بمعنى تح، ثم «نظر» والمعنى: إن الملوك كرم وقد أمر الشاعر
السحاب أن ينظر إلى ملك الذي معه فلما نظر إلى السحاب أمسك عن إيراد الغيث بعد ما عزم على الانسحاب
حياله من وجوده

ودهب الخطيب^(١) إلى أنه اسم للمكان الذي يجز فيه، من حيث كونه طريقاً
إلى تصور المعنى المراد.

وفي اصطلاح البياتين الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له، لعلاقة بين المعنى
الموضوع له والمعنى المستعمل فيه - مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الموضوع له.

فالعلاقة بين المعين إن كانت المشابهة كما في كلمات «الأسد»، «الريح»،
«السحاب» سمي اللفظ استعارة، وإن كانت العلاقة غير المشابهة كما في بيت عمرو
ابن كلثوم كان مجازاً مرسلًا، فالفارق بينهما من جهة العلاقة.

المجاز المرسل

هو ما كانت العلاقة فيه - بين المعنى الموضوع له اللفظ والمعنى المستعمل فيه -
غير المشابهة.

وأهم علاقته:

١ - السية: أن يكون اللفظ المذكور سبباً في المعنى المراد.

كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ الَّتِي هِيَ سَبِيلُ الَّذِينَ كَفَرُوا) (البقرة ١٦٠)، فالمراد من اليد القدرة، إذ هي سبب فيها.

ومن هذا قوله - صلى الله عليه وسلم - لأزواجه عند وفاته: «أسرعكن لحوقاً
بأطولكن يداً». فاليد مجاز مرسل علاقته السببية - إذ المرد منها النعمة، ولفظ
«أطول» استعارة، حيث إنها مستعملة في «بسط اليد بالمعطاء» وهذا إذا كان المراد
من «الطول» المعنى المقابل للقصير.

وإذا كان من «الطول» بفتح الطاء - الذي هو الفضل والعطاء، فلا يكون
هناك استعارة فيه إذ يكون مستعملاً في معناه الحقيقي، والمجاز المرسل كما هو.

وإذا كان المراد من (أطولكن) : أمدكن يدا، كان الكلام من قبيل المجاز بال حذف فقط والتقدير أمدكن يدا بالعطاء، ولم يكن هناك مجاز مرسل ولا استعارة
 وقوله (سُئِرُ حَرَامٍ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ، فَمَنْ أَعْدَى عَلَيْكُمْ وَعَدُوٌّ عَلَيْهِ بِمَنْ مَاتَ أَعْدَى عَلَيْكُمْ) (سورة ١٩٤)، فقد سمي عقوبة الاعتداء اعتداء لأنه سبب في العقوبة.

وقوله : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (الشورى ٤٠) سمي عقوبة السيئة سيئة لأنها سبب في الجزاء، وفي تلك تقرير لإيجاب القصاص ضرورة ارتباط السبب بالنسب، إذ بعد تحصيل السبب لابد من تحقيق النسب وفي تسميته بجزاء والمقصود سيئة ترعب في العفو، وتغير من العقوبة، ودعوة إلى التسامح من جهة^(١) كما أن ذلك فيه إشارة إلى أن الجزاء سيكون شديداً لا تقل شدته عن الأثر الذي يترتب على اقتراف المعاصي.

وقوله (وَادْعُوا الدِّينَ أَمْوَالُكُمْ دُنُوءَكُمْ، وَإِدْخُلُوا فِي شِيَابِهِمْ قُلُوبُكُمْ إِنَّمَا مَعَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَهْزِئِينَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) (سورة ١٤، ١٥)، سمي عقوبة الاستهزاء استهزاء لأنه سبب فيها.

ومنه قول الشاعر:

صَعِيفُ الْعَصَا بِإِدَى الْعُرُوقِ تَرَى لَهُ عَلَيْهَا إِذَا أُجْدِبَ النَّاسُ إِصْغَا
 أَيْ لَهُ عَلَيْهَا أَثَرُ رِعَايَةٍ وَحَذَقٍ وَمَهَارَةٍ، وَعَبَّرَ الشَّاعِرُ عَنِ الْاَثَرِ هَذَا بِالْإِصْبَعِ،
 لِأَنَّهُ سَبَّ فِيهِ إِذْ لَا حَذَقَ فِي صَدْعِهِ إِلَّا وَهُوَ مَعَادٍ مِنْ حَسَنِ تَصْرِيفِ الْأَصَابِعِ
 وَمَهَارَتِهَا

٢ - المسية أن يكون اللفظ المذكور مساً عن المعنى المراد.

(١) وليس هذا سبباً لفظاً بديل قوله (إنه لا يحب الظالمين) بل انصرف منه ظلمه فأوثق ما عليهم من

سبب.

كقوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا) (عدس ١٣)، فقد عبر بالرزق عن المطر، لأنه مسبب عن المطر، وفي التعبير بذلك ما يحيل للسامع انعدام الزمن بين نزول المطر والشار التي تحرر من النبات، فالذي ينزل ليس مطراً وإنما هو رزق يصير بين أيديهم، وفي ذلك تحجيل القرآن بصورة النعيم، واستحصار لما يستوجب الشكر، وفي ذلك ما يستدعي من العبد الخشوع والإجابة إلى هذا المعنى بهذا السخاء.

وقوله : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا) (النساء ١٠)، عبر بالنار عن مال اليتيم إذ النار مسبة عنه، وفي ذلك تعبير عن أكل مال اليتيم، إذ تصور الآية أن الوصي في عمله هذا لا يأكل المال ويأكل النار، وفي هذا تحجيل لقرآن بصورة بعداء، بهم لا يأحدون مالا، ويأكلون نارا، فأضمر سبباً وأظهر مسبباً في موضع السبب ليستحضرا دفعة واحدة، ويقرن بين العمل والجزاء على جهة لا ينفك أحدهما عن الأخرى، وهكذا يرشد السبب عن سببه، ويدل الفرع على أصله.

وقوله (وَبِئْسَ الْقَوْمُ الَّذِينَ أَدْعَوْكُمْ إِلَى السُّجْدَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى الدِّينِ) (عدس ٤١) وهم لم يدعوه إلى الدن وإنما دعوه إلى كفر، بدليل قوله بعده (تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ)، لكن لما كانت النار مسببة عنه أطلقها عليه.

وقوله : (وَسَارِعُوا إِلَى مَعْرِفَةِ مَنْ رَحِمَ) (آل عمران ١٣٣)، والمعرفة مسببة عن التوبة فعبر بها عنها.

وقوله : (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا) (الأعراف ٢٦) فالنزل عليهم ليس هو اللباس، بل هو الماء المنبت للروع المتخذ منه الغزل المنسوج منه اللباس^(١).

(١) وقد سببه صاحب البرهان المجاز على المجازة وسماه ابن السيد الطليوسي مجاز المراتبة، انظر البرهان

٣ - الكلية : أن يكون اللفظ المذكور كلاً للمعنى المراد.

كقوله تعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا) (المائدة ٣٨) والمراد القطع إلى الرسغ، فعبر بالكل وأراد الجزء.

وقوله : (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ) (البقرة ١٩) المراد بالأصبع لأصبع، وفي ذلك ما يدل على شدة فرغ المدققين وحولهم، لدرجة أنهم يَدُسُّونَ الإصبع فيها اتقاءً لذلك حتى يتعطل السمع، ويوقف عمل الحاسة كما أن سدة الحبل بالأصبع - دون السدة - يدل على أنهم من فرط دهشتهم يدخلون أي إصبع كانت ولا يسلكون المسلك المهود.

ومنها قوله تعالى على لسان سيدنا روح عليه السلام (وإن كنتم دعوتهم لنتغر لهم نجعلوا أصابعهم في آذانهم) (نوح ٧).

وقوله : (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه آتوئه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) (يوسف ٩٩)، فهم لم يدخلوا البلد كلها وإنما يدخلون جزءاً منها.

٤ - الجزئية : أن يكون اللفظ المذكور جزءاً من المعنى المراد.

كقوله تعالى : (كلٌ من عليها فإن، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (الرحمن ٢٦، ٢٧) يعلق لقاصي عبد الحار على هذه الآية بقوله ولا يبعد أن تكون الحملة وصفت بذلك، لأن بالوجه تتميز الحممة من غيرها، فلما كان التميز والتفرقة تقع به، وصفت بهذه الصفة^(١)، وكان الخصوصية وحدها هي المرادة، وكان بقية الأجزاء في خدمة هذه الخصوصية تأكيداً لها ومبالغة فيها.

وقوله تعالى حكيمة لقول الكفار في النبي عليه السلام (ومبهم الدين يؤدون النسي ويقولون هو أذن قل أذن غير لكم) (التوبة ٦١) عر بالآذن وأريد ذات النسي، إذ بالآذن يقع السمع، وفي التعبير بذلك ما يدل على أن جملة العقل آلة للاستماع مبالغة في ولعه بالإصغاء للوشاة

(١) المعنى ج ٢٠٤/٦

وقوله : (هو الذي أيدك بصركه والمؤمنين، وألف بين قلوبهم، لو أنقذت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم) (الأنفال ٦٢، ٦٣)، يقول عبد الحار تعبيراً على هذه الآية : «إن التأليف بين القلوب حقيقة أن يصمم بعضها إلى بعض، وذلك مما لا يصح أن يكون مراداً، والتأليف إنما يكون فيما يرجع إلى الماعلين بينهم لا بين قلوبهم، ومتى ذكر القلب في ذلك فهو مجاز»^(٢). فأطلق القلب وأراد قبيلة الأوس والخزرج.

وقوله : (سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق، واضربوا منهم كل بنان) (الأنفال ١٢)، عبر بالبنان - وهي أطراف الأصابع - وأراد الأيدي والأرجل.

وقوله (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا) (النساء ١٠٠)، فالمراد من الرقة العبد، واختيرت «الرقة» لأنها موضع التقيد وموطن المذلة، فالسيد يضيق خنقه على العبد ويحكم زمانه كالسائمة المسلوقة يقودها صاحبها حيث شاء.

ويلاحظ أن الجزء الذي يعبر به عن الكل لا بد أن يكون له مزيد اختصاص بالمعنى المراد، ولا يتحقق الكل إلا به، كدلالة اليد، والوجه، والأذن، والقلب، والرقة، على الذات مثلاً، فذكر الجزء الأهم من الصورة كثيراً ما يبحث إلى المخيلة بقى الأجزاء ويبرز الصورة كاملة واضحة.

٥ - اعتبار ما يكون : هو تسمية الشيء بما يصير إليه.

كقوله تعالى (ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إن رأيت أعصر حمراً، وقال الآخر إن رأيت أحمر فوق رأسي حمراً تأكل الطير منه) (يوسف ٣٦)، فالمراد بالحمرة : العنب^(٣) الذي يصير إلى حمرة، لأن الذي يعصر العنب لا الحمرة،

(١) الحشابه ٢٣٤، ملاحقة القرآن في آثار القاصي عبد الحار ٢٣٠

(٢) ويحل أن الكلام على الحقيقة، قال الرعشي : ويحل الخبر بلغة عيان اسم للمبهم وفي قراءة ابن مسعود : أعصر حمراً والكشاف ج ٢/٣١٩ ط الخليل

والمراد من الخنز: الحب الذي يصير إلى حيز لأن الذي يأكله الطير هو الحب

وقوله تعالى على لسان سيد إبراهيم (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ بَصِيرَةٍ، فشرناه
نُعْلَم (حسيم)، الصافات ١٠١)، فالطفل لا يولد غلامًا وحليًا وإنما يولد
لا يعرف شيئًا، فأطلق عليه لفظ «العلام والحليم» تسمية له بما يصير إليه
مستقبلا

وقوله: (وقل بوح رب لا نزع على الأرض من الكافرين ديارًا، إنك إن تلذهم
بصو عبادك ولا تلدوا إلا فاجرًا كمارًا) (نوح ٢٦، ٢٧)، فالآية وصفتهم بما
يصيرون إليه من الكفر والفجور، وهذا كقوله عليه السلام «من قتل قتيلًا قله
سله».

وقوله: (ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين) (البقرة ٢، ٣) أى الضالين
سأهم متقين تسمية بما يصير إليه أمرهم مستقبلا.

وقوله تعالى عطفًا سيد محمدًا عليه السلام (بك مَبِّتٍ وإهم مَبِّتُونَ) (رمر
٣٠) أى إنك ستموت وإنهم سيموتون، ولا بد من المصير المحتوم مستقبلا، بدليل
مقام الخطاب، لأن من مات فعلا لا يخاطب. وفى كل ذلك صُور غير الكائن
كائنًا، وسمى ما كان باسم ما سيكون، استعجالا للأحداث، وقد وسعت اللغة
هذه الصورة وضدها فزاد غناؤها.



«وقال الرخشي في «هدى الحقين» فإن قلت، فلم قيل هدى للمتقين واقترب مهتدون؟ قلت: هو كقريب للتعريف
الكريم: أهدك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة إلى منهو ثابت فيه واستدامته كقوله تعالى (هذه الصراط
المستقيم)

ثم وجه الكلام إلى المجازة فقال: «وهو أنه سبحانه عند مشارفتهم لاكتساب لباس التقوى متغير، كقول ابن
عاص: إذا أراد أحدكم أصبح عليه، فبه يحرص المريض، وضلل الضالة وتكفى الحاجة» فسمى المشارف
للحرص والاضلال سريًا ومثالة

ثم بين سر المجاز فقال: «فإن قلت: فهلا قيل «هدى بضالين»؟ قلت: هو جيء بالعملة المصنوعة من ذلك
لقيل هدى للضالين بل الهدى بعد الضلال، فاختصر الكلام، وأيضًا حمل ذلك سلبًا إلى تصدير السورة إلى
هي ستام القرآن وأول ثلاث مذكر أولاد الله المرتضى من عبادة (الكشاف ج ١/١١٨)

٦ اعتبار ما كان: وهو تسمية الشيء بما كان عليه.

كقوله تعالى: (ولكم يصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن من ولد) (النساء ١٢)
وإذا متن لم يكن أزواجًا، فسأهم بذلك لأهم كن أزواجًا.

وقوله: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر
وعشرًا) (البقرة ٢٣٤) سمي المرأة زوجة نظرًا لسابق حالتها لأن الزوجية تنقضي
بالموت.

وقد عحص الأوصياء (وأنزو، ليمى) أمواهم ولا تسئلوا حيث بانط
ولا تسئلوا أمواهم إلى أمولكم) (النساء ٢) أى الذين كانوا يتيمى، إذ لا يتم بعد
البلوغ، وفى ذلك إبراز لرشيد في صورة القاصر ليحفظ للوصى ما قدم من رعاية،
وكأنه يقول له: رشيد اليوم يتيمك فهو ما زال في حاجة إليك، فتسأله ضعيقة،
وكل ذلك ليلين الوصى فيعطيه حقه كاملا، ويرى ذمته من ساحته.

وقوله: (إنه من بأت وبه تجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) (طه ٧٤)
سأهم عجرًا نظرًا لما كان عليه حال الحياة من الإجمام.

وقوله (الرأية والزائل فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة) (النور ٢)، سهاها

(١) وقال الكشاف وخراب القرآن في قوله تعالى: وأتوا اليتامى أموالهم والكشاف ج ١/٤٩٤، خراب القرآن
وأصل اليتيم: الانفراد، فاليتامى هم الذين مات آباؤهم فانفردوا عنه، واليتيم لغة: يتناول الصغير والكبير،
إلا أنه في عرف الشرع يخص بالذى لم يبلغ الحلم.

وإذا كان اليتيم في الشرع مختصًا بالصغير في دام يتيم لا يجوز دفع أمواله إليه، وإذا صار كبيرًا بحيث يجوز دفع
ماله إليه لم يبق يتيمًا، فكيف قال (وأتوا اليتامى أموالهم)؟ وفى جواب طريقه: أن ذلك حل الحيف، والثالث حل
المجاز، ويكفي ذلك كالأول.

١- إن يراد باليتامى: الصغار، وبنائهم الأموال: ألا يطعم فيها الأرباب ويكفوا عنها أيديهم الخاطئة حتى نأى
اليتامى إذا دعوا سلة، وإن يؤتم من أموالهم ما يحتاجون لتعتيم وكسوتهم، ومن هذا فالخطاب للأرباب.

٢- أن يراد باليتامى: الكبار البالغون سهاهم بذلك حل مقتضى اللغة

٣- أن يراد باليتامى: قرب عهدهم باليم، كقوله تعالى: (فألقى السحرة ساجدين) أى الذين كانوا سحرة
قبل السجود، ويؤكد هذا قوله بعد (وإذا دعيت إليهم أموالهم فأنهذوا عليهم) والإشهاد لا يكون إلا بعد
البلوغ، وقال: «تستأمر الزينة في عشاء ولا تستأمر إلا وهى بالغة

ويكون السر اللامع للمجاز هو: ألا يؤخر دفع أموال اليتامى إليهم من حد البلوغ، ولا يطمو إن أوسى منهم
الرشد، وأن يؤمروا قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار

بهذا نظرًا لما كان عليه كل منهما. وفي ذلك استحصار لصورة الماصي وتجسيد له حتى يتصور السامع وقائع الحادث مرتين، ويربط ما كان من أحداثه بما يكون - لفتًا للأصل، وتنبيهًا عليه.

٧- المحلية: وهي تسمية الشيء باسم محله

كقوله ندى تهديدًا ووعيدًا من كذب يؤدي السبي عليه لسلام (كلا لئن لم ينته سنْفَعَنَّ بالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةً كاذِبَةً خَاطِئَةً، فَلْيَنْذُغْ بَآبِيَةً) (العلق ١٤ - ١٧)، فأطلق لنادى - وهو مكنى، حنّيع، ناس - وأراد الحال فيه وهو أهله، ومنه قوله (أى لعريقين غير مقامنا وأحسن نديًا)؟ (مريم ٧٣)، أى أناس في ندى، وقوله على لسان حوة يوسف (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ لَنَّى كَفَّ فِيهَا) (يوسف ٨٢) أى أهل القرية، لأن القرية جماد لا تسأل، وإنما هى مكان لمن يُسأل، وكان إخوة يوسف - مبالغة في ثبات براءتهم - طلبوا أن تسأل القرية من يجيب وما لا يجيب، إذ الواقعة مشهورة يعرفها العاقل وغيره

وقوله (يا أيها الرسول لا تجزئت ندين يسرعون في كُفْرٍ من لدين فاقوا تم بأموالهم ولم يؤمن قلوبهم) (المائدة ٤١)، فعبر بالأفواه عن الأنس إذ هى معها

وقوله تعالى مخبرًا عما أعد لأهل الجنة من الجزاء: (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ، فِي يَمِينٍ مَحْصُودَةٍ. وَنَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ، وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ، بِأَنْشَادٍ مِنْ إِنْشَاءٍ) (الواقعة ٢٧ - ٣٥). قيل إن المراد بالمرش النساء مرفوعة على الأرائك، كقوله تعالى (هَمَّ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُكْنُوتٍ) (يس ٥٦) ويدل على أن المراد بالمرش النساء قوله بعد (بِأَنْشَادٍ مِنْ إِنْشَاءٍ)

ومنه قول جرير:

قُلْ لِلْجَنَانِ إِذَا تَخَوَّرَ مَرْجُهُ هَلْ أَنْتَ مِنْ شَرِّكَ الْمَنِيَةِ نَاحٍ؟

فالمراد من السرج: الراكب، من إطلاق اسم المحل على الحال

٨- الخالية: وهي تسمية الشيء باسم الحال فيه

كقوله تعالى (وَأَمَّا السَّيِّئَاتُ تَنَاصُتْ وَهَوَّهِنَّ فَمِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (آل عمران ١٠٧)، عبر بترجمه وأردأحة لأن الرحمة حادة فيها، وفي هذا التعبير استحصارهما معاً، توسعاً في المعاني، وثراء في المعطيات.

وقوله: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) (الانفطار ١٣، ١٤) فالمراد من النعيم: الجنة، ومن الجحيم: النار.

ومنه قول الشاعر:

أَلَمَّا عَلَى مَقْعٍ وَقَوْلًا لِقَبْرِهِ سَقَتْكَ الْعَوَادِي مَرْتَبًا بَعْدَ مَرِيعٍ^(١)

الشاعر يطلب من صاحبيه النزول على قبر من فاطلق الحال وأراد المحل.

وقد اجتمعت الخالية والمحلية في قوله تعالى (يَا سَيِّدَ آدَمَ خُذْ زِينَتَكَ عَندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) (الأعراف ٣١) فعبر عن ملابس بالربة، وهى حاة فيها، فأطلق المحل وأرد المحل، لأن الربة لا تزحف، وللمرد من لمسجد الصلاة، أطلق المحل وأراد الحال فيها.

٩- الآلية: وهي إطلاق اسم الآلة ويراد الأثر الناتج عنه.

كقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نَسْنُبُ قَوْمَهُ) (براهيم ٤) أى ندعة قومه، فأطلق اللسان وأراد اللغة إذ اللسان آلتها.

وقوله تعالى على لسان مبيدنا إبراهيم (رَبُّ هَؤُلَاءِ حُكْمًا وَتَخَفَى بِالصَّالِحِينَ، وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) (الشعراء ٨٣، ٨٤) أى ذكرًا حسنًا، أطلق اللسان وأراد الذكر الحسن إذ اللسان آله.

وقوله تعالى لسيّدنا نوح عليه السلام: (وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا) (هود ٣٧)

(١) أم بالمكان. مراد به، العوادي جمع غادية وهي السحابة تأتي غسوة، المريع. منزل القوم في المريع خاصة

فالعين آلة الملاحظة وطريق المعرفة، يقول القاصي عبد الحار: «والرد بذلك أن اصبح العتق بما أعطيك من البصيرة والمعرفة، وسمى ذلك عيب على جهة التوسع، كما يقول القائل لغيره، اعمل ذلك بمراي مني ومسمع^(١)»

وقوله عن لسان قوم سيدنا إبراهيم (قلوا فأتوا به على غير الناس لعلمهم يشهدون) (الأنبياء ٦١) أي عن مراي منهم بحيث تتمكر صورته في أعينهم فتمكر الراكب من المركوب.

وقوله (وإله لتربل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنبرين، بلسان عربي مبين) (الشعراء ١٩٢ - ١٩٦) فاللسان مجاز عن اللغة.

وقوله محطاً الرسول (إني يرأى بلسانك لشئ به لمنبر وتدر به يوماً لئد) (مريم).



١٠ - الاشتقاق كقوله تعالى: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (البقرة ٢١٦).

فالقتال مكروه لدى النفس لما فيه من مصارعة الأوطان، وتعريض الجسد للهلاك والمال للضياع، ولشدة كراهية القتال ورد لتعبيره بمصطلح المصدر «كره» بدلاً من «مكروه» وفي هذا بيان لأثر القتال وشدة وطأته على النفوس حتى كأنه الكره بعينه. مجاز مرسل، وعلاقته الاشتقاق.

وفي التعبير المحاذي، يدل على أن القرآن الكريم لا يتجاهل المظرة البشرية ولا ينكر مشقة هذه المريضة، ولكنه يعالج الأمور من جانب آخر، فمن العرائص ما هو شاق مرير، ولكن حكمته تهون مشقته وتسيغ مرارته، وصدق الله العظيم: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم)

وقوله تعالى: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مبدكم بألف من الملائكة مردهم، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) (الأنفال ١٠).

فأقيم المصدر «البشرى» مقام اسم المفعول «المبشر به» مبالغة وكان الإمداد هو البشرى ذاتها لأهميتها وشدة احتياجهم إليها، وقد عد هذا الإمام السيوطي^(١) من أنواع المجاز المرسل الذي علاقته إقامة صيغة مقام أخرى - الاشتقاق -.

ويقول تعالى في وصف اليهود محاصف لمسلمين (لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله) (الحشر ١٣)، فعبير عنه بالرهبة عن «الرهوية»، مبالغة في توفر الرهبة لديهم من المسلمين حتى لكأنهم الرهبة نفسها، وفي «صدورهم» مجاز مرسل علاقته المحلية.

ومنه قوله تعالى: (فإذا لقيتم الذين كفروا فصرب الرقاب حتى إذا تحصنتمهم فسددوا الوثاق فإمّا ما بعد وإمّا فداء حتى تضع الحرب أوزارها) (محمد ٣).

فقد عبر عن الفعل بالمصدر، والأصل «فاضربوا الرقاب»، ففيه مع الاختصار معنى التوكيد.

وفي «الأورار» مجاز مرسل علاقته لآية، وفي التعبير بالأورار إشعار بكراهية الإسلام للحرب فهي دت أفتان وعاء جسم ولا تائق إلا بالخراب والدمار، وليس المراد إنهاء الحرب فقط، وإنما المراد كسر حدة العدو والقضاء على قوته الحربية حتى لا تسول له نفسه بالتمرد والمعصيان.

١١ - المحاورة كقوله تعالى (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من العائط أو لمستم نساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً) (مائدة ٢٦) أطلق العائط على فصلة الإنسان، لأن لعائط بمعنى: الأرض العائرة العميقة، يدفع فيها الإنسان الفضلات بحيث لا يراها أحد، ولما كثرت مجاورة الفضلة لها أطلقت عليها تادماً.

ومن ذلك إطلاق لفظ «الراوية» على البعير الذي يحمل الماء، والراوية في

الأصل هي : الرعدة الذي يكون فيه الماء ويحمل على البعير، فتطلق الرواية على البعير لعلاقة المجاورة، كقول أبي النجم :

نَمَشِي مِنَ الرَّعْدَةِ مَشْيَ الْحَقْلِ مَشْيَ الرَّوَايَا بِالْمَزَادِ الْأَثْقَلِ^(١)

ومنه قول عنتره :

فَشَكَّكَتْ بِالرُّمَحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا مُحْرَمٌ

فلرود من الثياب القلب - مجاز مرسل لعلاقة المجاورة^(٢)

وكذلك قول الأعشى :

وَكُنَّا شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَخَرَى قَدَاوِثُ مِنْهَا سِهًا

فالكأس مجاز عن الشراب - مجاز مرسل.

والمجاز الواحد قد يكون له أكثر من علاقة، ويلاحظ ذلك في علاقة الآية والمجاورة، فيمكن أن يكون كل منهما من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال.

وسمى ذلك مجازاً مرسلًا لأنه أرسل - أي أطلق - عن التفيد لعلاجه وحدة إذ له عدة علاقات، أولاه أرسل عن دعوى الاتحاد المطلوبة في الاستعارة، إذ ليس للعلاقة فيه بين المعنيين المشابهة حتى يدعى اتحادهما.

ولمَّا لم يسم استعارة، مع أن اللفظ فيه منقول ومستعار من معناه الأصلي إلى المعنى المراد، كما في قوله، أمطرت السماء سائًا، فقد ادعينا أن المسبب - النبات - عين السبب - المطر - كما ادعينا في الاستعارة أن محمدًا عين الأسد، وكل ما بينهم من فرق أن الاستعارة علاقتها مطلق مشابهة، أما في المجاز المرسل فهي مشابهة

(١) انصبيات ٧٦٩، الرعدة مكان، الحمل، السحب، مليئة بالماء، الروايات جمع رواية وهي الزائدة التي يحمل فيها الماء، وهي سقاء من ثلاثة جلود تجمع أطرافها فيكثر ما تحمله من الماء والتاء للمبالغة وتطويع على ما استغنى عليه من بعير أو دابة، مجاز مرسل لعلاقة المجاورة.

(٢) ولا يكفى مطلق المجاورة، بل لابد من أن يكون هناك تلازم بين الحار والمجاورة، فالمجاورة الموقوفة غير محققة بمرضى البلاغ، بل المراد المجاورة الثالثة التي تتحقق معه إدراك المجاور بمجاورة - كما في هذه الشواهد.

السبب للمسبب، أو عكسه، أو مشابهة كل لخر أو عكسه - إلخ والظاهر أن هذه لتسمية اصطلاح من اللغويين تفرقة بين نوعين من المجاز مختلفي العلاقة^(١).

وأما أول من وضع مصطلح [المجاز المرسل]، فالأمر فيه شيء من عدم التصحيح، فالإمام عبد القاهر وضع في أواخر كتابه [أسرار البلاغة] الذي حققه العلامة محمد رشيد رضا فصلًا تحت عنوان: ^(٢)

«هذا كلام في ذكر المجاز، وفي بيان معناه، وحقيقته، وفيه بيان المنقول والمشارك، والمجاز المرسل وعلاقته».

فهذا العنوان يوحي بأن الإمام عبد القاهر هو الذي وضع هذا المصطلح، إذ لا توجد قبله هذه التسمية، غير أنه بالبحث تحت هذا العنوان نجد مادة هذا المجاز ولكنه لم يسمه هذه التسمية في أثناء الشرح، فاستعمل هذا المصطلح في عنوان الفصل فقط بثير الشكوك.

الآن يمكن أن يكون المحقق المرحوم محمد رشيد رضا هو الذي وضع هذا العنوان لما رآه مناسباً للمصموم - كما فعل في كتاب [دلائل الإعجاز] إذ وضع تحته [في علم المعاني]، وكذلك فعل في كتاب [أسرار البلاغة] أن وضع تحته وفي علم البيان^(٣).

وبالرجوع إلى النسخة التي حققها وشرحها المرحوم أحمد مصطفى المراغي ومقابلتها مع النسخة الأولى وجد أن العنوان في النسختين واحد.

وفي نسخة ثالثة تحقيق المستشرق [هلموت ريتز] ط استأبول وزارة المعارف سنة ١٩٥٤م وجد العنوان في صلب الصفحة: ^(٤)

«هذا كلام في ذكر المجاز، وفي بيان معناه، وحقيقته» ثم زاد المحقق في الهامش

(١) شروح التكميل ج ٢٨/٤ وما بعده.

(٢) أسرار البلاغة ٣١٦.

(٣) أسرار البلاغة تحقيق هـ - ريتز ص ٣٦٥.

ما وجدته في نسخة أخرى رمز لها بحرف M

«ومنه بيان المقول والمشارك والمجاز المرسل وعلاقته».

وكل هذه الدلائل ترجع أن مصطلح [المجاز المرسل] من وضع الإمام عبد القاهر.

ولكن لماذا لم يستعمل هذا المصطلح عند كل من الإمام الرازي الذي لخص كتاب عبد القاهر، والزحشرى الذي طبق آراءه في تفسيره، والسكاكي الذي تم في كتبه عملية التقعيد؟

وعلى أية حال فإن هذا المصطلح ظهر بوضوح عند القزويني وشروح التنخيص.

وقد ذكر القدماء أنواع المجاز المرسل لكنهم لم يسموه، ومنهم الفراء الذي قال في قوله تعالى: (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) (العنق ١٧) العرب تقول: النادى يشهدون عليك والمجلس^(١) وأشار الأمدى^(٢) إلى بعض أنواعه أيضاً فقال في قول الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد: إذا سقط المطر رعيناه، أى رعيننا النبات الذى يكون عنه، ولهذا سمي الغيث [ندى]، لأنه عن الندى يكون، وقالوا: ما به طرق - أى ما به قوة، والطرق لشحم، فوصفه موضع لقوة، لأن قوه عنه يكون، وفولهم، للسرعة روية، وإنما الراوية التعبير الذى يسقى عليه الماء، فسمى الوعاء الذى يحمله باسمه، ومن ذلك [الخنفس] متاع البيت، فسمى التعبير الذى يحمله خنفساً، وكل هذه الأنواع التى ذكرها تعود إلى السببية أو المجاورة.

(١) معنى القرآن جزء ٣/٢٧٩

(٢) لغزبه جزء ١١/٣٥، ٣٦

بلاغة المجاز المرسل

المجاز المرسل - ككل مجاز - يوسع الدعة، كما يساعد على الاقتناع في التعبير. وتدعو إليه المصلحة في المعنى، ولا يجز في العبارة، كما في قوله تعالى (يَحْمِلُونَ أَسْفَهُمْ فِي أَدْنَاهُمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذِرَ الْمَوْتِ) فقد عر بالأصابع بدلاً من طرفها، إشعاراً بشدة فرع لما يقين لدرجة أنهم يدسون الإصبع فيها نقاء لذلك.

وقوله تعالى: (وَأَتُوا النِّتَامَى أُمُومَهُمْ)، عبر باليتامى - وهم في الحقيقة راشدون - وفي ذلك إشارة إلى وحوب المسارعة بدفع أمومهم إليهم، وكأن اسم اليتيم باق فيهم لم يفارقهم، فهذه الصفة تزيد الشفقة عليه وتدعو الولي إلى دفع المال إليه كاملاً.

ويقول معاوية بن مالك - وهو شاعر جاهل عم لبيد بن ربيعة:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والسما: المراد منها المطر، وقد أعدد الشاعر لتصيير على السماء بمعناه المجازي وهو النبات، مع البيت محزون، استعمال السماء في الغيث، واستعمل الغيث في النبات، وعلاقة الأول المحلية أو المجاورة، والثاني السببية.

والبلدوى حينما يرى المطر يأتي من السماء، وأنه ما من مرة إلا ويكون المطر من جهتها اقترن في ذهنه صورتهما، فلا يرى إحداهما إلا ويرى الأخرى، عندئذ يسع له أن يقول: إذا برس السماء - أى انظر - لا تحبها إلى اسماء التى هى محل المطر أو مجاورة له.

ومثله في «رعيناه» - أى الغيث - فالضمير عائد على السماء بمعناها المجازي - وهو الغيث - فلما كان البلدوى يرى أن الغيث سبب هام في وجود النبات، وليس له في ظاهر الحال سبب آخر، اقترن في ذهنه صورة السبب والمسبب، ولما

كان لا يرى أحدهما إلا رأى الآخر، عندئذ ساغ له أن يقول : رعيناه - أى رعيينا
الغيث - مشيداً بقيمة هذا السبب الذى بلغت مرتبة السبب، وفى ذلك ما فيه من
بيان أهمية الغيث وقيمته

وكما جازت تلك الصورة يجوز العكس فيقال : أقبل النبات - أى الغيث - لأن
الاتجاه إلى النبات المرتبط وجوده بوجود الغيث، وكان المارق الزمنى بين نزول
المطر وظهور النبات قد ألغى من الحساب، والمقبل نباتاً وليس مطراً، وفى هذا
ما يدل على مدى الدقة والتعلق بالسبب.

ولإيجاز والاختصار ظاهر فى هذا المحاز فدور عينا الغيث « أوجز من «رعيينا
نبات الذى سه الغيث»، وأقبل النبات، أوجز من «أقبل المطر المسبب عنه
النبات»

وحبب نقرأ قوله تعالى (يأيتها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم
لا بآلويكم حباً ودو ما عنكم، فذ بدت الغصاء من أفواههم وما تحمى صدورهم
أكبر) (آل عمران ١١٨).

فى تلك الآية مجازان مرسلان :

الأول : «قد نذبت البغضاء من أفواههم»، فالمحاز فى لفظ «البغضاء» مجاز عن
الكلمات الدالة على الكراهية، لأن البغضاء معنى من المعانى المكونة فى القلوب،
وهى لا تندو ولا تظهر من الأفواه، وهى التى تبدو من هو الكلام المترتب على
البغضاء، فقد أطلق السبب - وهو البغضاء - وأريد السبب - وهو الكلام الدال
على الكراهية، والعلاقة السسية، والقرينة لفظية «بدت» و «من أفواههم».

وبلاغة المجاز : هو المبالغة فى الكلام الدال على العداوة، وتصويره بصورة
البغضاء، للإشعار بأن الذى بدا من أفواههم هو ذات البغضاء على الرغم من
محاولتهم إخفاءها فى صدورهم، وذلك دليل على أنها قد تمكنت من قلوبهم،
وملابسهم، حتى نت إلا أن تميع، فتسحر من أفواههم ، فكانه
قيل : قد بدت الكلمات الدالة على الكراهية من أفواههم، لأنه سببها وهو البغضاء
قد ملأ قلوبهم. وذلك هو معنى قول البيهقي

١٥٧
إن المجاز كدعوى «الشيء بالبيئة والبرهان - لأنه يؤكد المعنى ويقرره.
وفى هذا المجاز تصوير السبب بصورة السبب وإطلاق اسمه عليه، وفى ذلك
تنفير أى تنفير من اتخاذ مثل هؤلاء بطانة

والإيجاز ظاهر فى التعبير المجازى، بالمقارنة بين الحقيقة وهى : قد بدت
الكلمات لدالة على الكراهية من أفواههم وبين المجاز، وهو قد بدت بعض
من أفواههم، يدرك ذلك.

الثانى : «وما تحمى صدورهم أكبر»، فالمحاز فى لفظ «صدورهم» مجاز عن
القلوب، لأن القلوب مجمع الأضمان ومحل الأحقاد، فقد أطلق المحل - وهو
الصدر - وأريد الحال فيها - وهو القلوب - والعلاقة المحلية، والقرينة حالية.

فالمحاز أكد المعنى وقواه، فكانه قيل : إن هذه القلوب قد تضخمت بما فيها من
الكراهية، لأنها فاضت على الصدور فملأتها، وفى هذا بيان : كون المجاز دعوى
الشيء بالبيئة والبرهان.

وفى المحاز هذا صور الحال بصورة المحل وإطلاق اسمه عليه، وفى ذلك تنبيه
على شدة كراهيتهم للمسلمين، وتحذير من الانحداع بهم.

وأما الإيجاز فهو أمر غلى - فى المجاز المرسل - فالصدر كقلوب.
فالمحاز المرسل يؤدى الفوائد التالية :

١ - تأكيد المعنى المجازى المراد، وتقريره فى النفوس، لما فيه من دعوى الشيء
بيئة والبرهان.

٢ - تصويره للمعنى المجازى المراد خير تصوير وأدق.

٣ - تأدية المعنى المجازى المراد بالفاط أقل مما تؤديه الحقيقة، وذلك فى
الغالب^(١).

ونلاحظ أن الأساس النفسي للمجاز المرسل هو «تداعي المعاني» إذ أن هذا المجاز يسوِّع التلازم الذهني، فالسبب والمنسب متلازمان ذهنياً وزماناً ومكاناً، وكذلك الكُل والجُزء، والخال والمحَل وهكذا.

الاستعارة

لمحة عن تطور لفظ «الاستعارة»

الاستعارة مأخوذة من الاستعارة الحقيقية، وهي: نقل الشيء من حيَازة فرد إلى فرد آخر، وقد نقل علماء البيان هذا الاسم من حقيقة إلى المجاز بالاستعارة، وهي نقل اللفظ من معنى عرف به في اللغة إلى معنى آخر لم يعرف.

يقول المعنوي^(١): «وإنما لقب هذا النوع من المجاز بالاستعارة أخذاً لما من الاستعارة الحقيقية، لأن الواحد منا يستعير من غيره رداءً ليلبسه، ومثل هذا لا يقع إلا من شخصين بهي معرفة ومقدمة، فيقتضي تلك المعرفة استعارة أحدهم من الآخر، فإن لم يكن بينهما معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر من أجل الانقطاع، وهذا الحكم حار في الاستعارة المحاريبة، فثبت لا تستعير أحد المفضلين للآخر إلا بواسطة بعارف المعنوي، كما أن أحد الشخصين لا يستعير من الآخر إلا بواسطة المعرفة بينهما».

ومن استقراء ما أثر عن علماء البيان نرى - فيما نعلم - أن أول من سبق إليها وأطلق عليها اسم الاستعارة هو أبو عمرو بن العلاء وت ١٥٤ هـ. قال ابن رشي^(٢) وكان أبو عمرو بن العلاء لا يرى أن لأحد مثل هذه العبارة - يقصد قول دي الرمة:

(١) بطرير ج ١/ ١٩٨

(٢) المصنف ج ١ / ١٨١

أدبته به حتى قوى العود والتوى ولَفَّ الثريا في مُلأته الفجر
ويقول: ألا ترى كيف صبر له ملاءة، ولا ملاءة له، وإنما استعار له هذه البسطة.

وقد أبو عبيدة وت ٢٠٧ هـ في قول العرزدق:

لا قوم أكرم من تميم إذا عَدَّتْ عودُ الساء يُسْفِر كالأجاف

عود ساء من اللان معهن أولادهن، والأصل في ذلك عود لإبل التي معها أولادها، فثبت العرب إلى الساء، وهذا من المستعار، وقد تعمل العرب ذلك كثيراً، ودت دون ياء أو تقيس لا اصطلاحها البلاغي، إلا أنه المنح لبيان أركانها.

ويقول الباقلا^(٣) في معرض تعييقه عن قول الشاعر:

* قَبْدَ الحَسَنِ عَلَيْهِ الحَدَقَا *

وذكر الأصمعي وت ٢١٦ هـ وأبو عبيدة وحاد وت ١٥٥ هـ وقبلهم أبو عمرو أنه أحسن في هذه البسطة، وأنه أتبع فيها فلم يُلحق، وذكره في باب الاستعارة البليغة.

لكن أول من عرّفها كفن بلاغي هو المحافظ وت ٢٥٥ هـ. فقد عرفها واستشهد عليها، يقول بعد أن يورد هذه الأبيات:

يأدارُ قد عيرها سلاه كاتما بقم عاه
أحرب عمران من بها وكرت تسم على ثعها
وطفت سحابة نغشاه تنكي عن عرصها عيها^(٤)

(١) التفاضل ج ١/ ٢٧٥، والعود: جمع هاذ وهو الناقه التي قوى ولبعها، الأجل: المرق من البقر والظباء،

واحد: إجل

(٢) معجم القرآن ٧٠.

(٣) أخبرنا عمران من بها، إذ بقي الرجل في دبره بقم عيرها، لأن الأيام مؤثرة في الأشياء بالنقص والزيادة فبسة بقاته فيها وإقامته بها أدت منها الأيام

يقول : محسها : يعنى مساهها ، الخافى ، المنازل التى كان بها أهلوها ، طعقت : ظلت ، العرصة : المكان ليس به بناء ، وجعل المطر بكاء على سبيل الاستعارة وتسمية الشئ باسم غيره إذا قام مقامه^(١).

فاصطلاح الاستعارة ورد أول ما ورد عند الجاحظ فى تعليقه على تلك الآيات ، وهو لم يصعها تحت أى علم من علوم البلاغة التى عرفت فيها بعد ، وهذا التعريف ساذج غير محدد ، فهو لا يمنع المجاز المرسل - مثلاً - إذ هو تسمية الشئ باسم غيره .

وطل معنى « الاستعارة » يترد على السنة العدا والنفاد بعد الجاحظ ، كإبن قتيبة « د ٢٧٦ هـ ، والمبرد « د ٢٨٥ هـ ، وثعلب « د ٢٩١ هـ ، وقدامة « د ٣٣٧ هـ . والفاضى الجرجانى « د ٣٦٦ هـ ، والزمخشى « د ٣٨٤ هـ ، وابن هلال « د ٣٩٥ هـ ، وابن رشيق « د ٤٦٣ هـ ، وابن سنان « د ٤٦٦ هـ حتى جاء عبد الفاهر « د ٤٧١ هـ فكان من أدقهم فى تعريفها فقال : « الاستعارة أن تراد تشبيه الشئ بالشئ فتدع أن تصح التشبيه وتظهره ، ونحى إلى اسم المشبه به فتعبره المشبه وتجربه عليه^(٢) » ، وقدم بحثها على التشبيه والتمثيل لأنه محلها بين فنون القول مكانة رفيعة .

وفى بحوث هؤلاء ظل يتطور مفهومها ومدلولها دون أن يحسوها تحت « علم البيان » ، حتى جاء السكاكى « د ٦٢٦ هـ ، فتناول بحثها تحت « علم البيان » . وكان هذا إيذاناً بوضعها جزءاً من مباحث هذا العلم الذى جعله أحد العلوم الثلاثة « المعانى والبيان اللدبع » ، وعلى يد السكاكى ومدرسته أخذت الاستعارة وضعها ومكانتها فى علم البيان ، وإليك الشواهد لتوضيح :

معنى الاستعارة

الاستعارة التصريحية والمكنية

١ - قال تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذى أنعمت عليهم) والفاصلة ٦ ، ٧).

٢ - وقال : (كتاب أنزلناه إليك ليتفرخ الناس من الطلمات إلى النور) (إبراهيم ١).

٣ - وقال : (والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون^(١)) (الشعراء ١٤٤ ، ١٤٥).

٤ - وقال : (ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) (الأعراف ١٥٤).

ففى الآية الأولى ، استعير لفظ (الصراط المستقيم) للدين الحق ، لتشابهها فى أن كلا منهما يوصل إلى المطلوب ، والقرينة - حالية - فالله سبحانه لا يهتدى إلى الطريق الحسى وإنما المراد الهداية إلى الدين الحق هل التشبيه . وإجراء الاستعارة يكون على هذه الصورة :

شبهنا الدين الحق بالطريق المستقيم ، بجامع هداية فى كل ، ثم تنوسى التشبيه ، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداحل فى جنسه ، ثم استعير

(١) حقيقة « يهيمون » يهيمون أو يحظرون ، والاستعارة أدغ لافيه من البيان بالإخراج إلى ما يقع عليه الإدراك وهو إيمان فى كل واد يس له فيه الذهاب . ورجل هالم . متحيرة فسه جهم بقول الشرقي كل حرص ورجسهم فى الذهاب فيه كلى ملعب بالبيان والتعير والذهب على غير معنى

المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة لتصريحية الأصلية، وسميت تصريحية : لأن المشبه به مصرح به في الكلام، وسميت أصلية : لأن الاستعارة في اسم جامد، والقريفة حالية، إذ المراد تصوير الدين الواضح بالطريق المستقيم.

• وفي الآية الثانية : استعير لفظ «الظلمات» للضلال، لتشابهها في عدم الاعتدال، ثم استعير لفظ «الظلمات» للضلال، وكذلك استعير لفظ «النور» للإيمان لتشابهها في الهداية، وقد جمعت الظلمات إشارة إلى أن طرق الضلال كثيرة، وأفرد النور تنبيهاً إلى أن طريق الإيمان واحد.

والقريفة حالية، فالنبي لم يخرج الناس من ظلمات حقيقية إلى نور حقيقي، وإنما المراد : تشبيه الضلال بالظلمات والهدى بالنور.

ويقول الشريف الرضي في الآية الثالثة : وهذه استعارة، والمراد بها - والله أعلم - أن الشعراء يذهبون في أقوالهم المذاهب المختلفة، ويسلكون الطرق المتشعبة، وذلك كما يقول برحق لصاحبه إذ كان محالاً له في رأي أو مبدعاً له في كلام أما في واد وثبت في واد، أي أنت ذهب في طريق، وأنا ذهب في طريق، ومثل ذلك قولهم : فلان يبيع مع كل ريح، ويظهر بكل جناح، إذا كان تابعاً لكل قائد، ومحياً لكل داعي.

وقيل : إن معنى ذلك : تصرف الشاعر في وجوه الكلام من مدح، ودم، وعتب، وغزل، ونسيب، ورناء، وتشبيب، فشبهت هذه الأقسام من الكلام بالأودية المتشعبة، والسبل المختلفة.

ووصف الشعراء بالهيام، فيه قرط مبالغة في صفتهم بالذهاب في أقطارها، والإبعاد في غداياتها، لأن قوله سبحانه : «يهيمون» أبلغ في هذا المعنى من قوله : «يسعون»، أو «يسرون»، ومع ذلك فالهيام صفة من صفات من لا مسكة له، ولا رجاحة معه، وهي مخالفة لصفات ذي الحكم الرزين والعقل الرصين^(١).

واستعير لفظ الأودية للمقاصد ولغنون الشعرية، وخصص الاستعارة - والأودية - دون الطرق والمسالك، لأن المعاني الشعرية تستخرج بالعكرة

والروية، وفيها خفة وغموض، فلهذا كانت الأودية أليق بالاستعارة^(٢)، والقريفة على أن واد - استعارة هي : لفظ الشعراء.

وفي الآية الرابعة وصف العصب بالسكوت وهذا لا يجوز على الحقيقة، وإنما يكون على المحار، فقد شبه العصب بلسان وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو السكوت، وإستاد السكوت إلى العصب هو قرينة الاستعارة.

وبلاغة الاستعارة في الشواهد السابقة تكمن في تمثيل ما ليس بمثل حتى يصير مشاهداً مرئياً، فينتقل السامع من السماع إلى حد المشاهدة والعيان، وذلك أقوى في التأثير، وأبلغ في البيان.

ومن الشواهد السابقة نرى أن للاستعارة أركاناً ثلاثة :

المستعار له - وهو المشبه، والمستعار منه - وهو المشبه به، والمستعار - وهو اللفظ المستعار، وإذا كان قد عدنا أن التشبيه له أركان أربعة : المشبه، المشبه به، لوجه، الأداة، فالاستعارة لا بد فيها من حذف الأداة والوجه وأحد طرفي التشبيه - المشبه أو المشبه به - وهي في الشواهد الثلاثة الأولى حذف المشبه واستعير المشبه له للمشبه ويسمى ذلك استعارة تصريحية.

فلاستعارة التصريحية : اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصل.

أما في الآية الرابعة فقد حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، ويسمى ذلك استعارة مكنية

فلاستعارة من حيث ذكر أحد طرفيها تنقسم إلى تصريحية ومكنية.

وهذه التسمية قائمة على طبيعة النقل والإعارة، إذ قد يكون النقل بين شيئين موجودين فينقل الاسم مما وضع له أولاً إلى غير ما هو له، كقولهم : رأيت أسداً، إذ جعلوا اسم الأسد لما ليس بأسد.

وقد يراد بالنقل إصافة الاسم لما لا تصح إصافته إليه كقول الشاعر:
وَعْدَاةٌ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَفِرَّةٌ إِذْ أَصْبَحَتْ بَيْدَ الشَّامِلِ رِيَامُهَا
فقد أضاف لفظ «اليد» وهي الجارحة لما لا يصح أن يكون له يد وهو
«الشمال»

في الاستعارة الأولى «نجعل للشيء الشيء ليس به، وفي الثانية، نجعل للشيء
الشيء ليس له»^(١)

وتسمية الاستعارة بالتصريحية من وضع الإمام الرازي^(٢).

الاستعارة التصريحية أصلية وتبعية

المتبع لأساليب الاستعارة التصريحية يرى أن اللفظ المستعار يدور فيها على
ما يأتي:

١ - قد يكون اسماً جامداً - سواء كان اسم عين يصلح - بأصل وضعه - لأن
يصدق على كثير، مثل: أسد، بدر، بحر، أو اسم عين يصلح - بعد التأويل
فيه - لأن يصدق على كثير، مثل: حاتم، سحبان، مدر^(٣)، أو اسم معنى يصلح
لأن يصدق على كثير مثل: الفهم الكتابة، الخلوس.

إذا كان اللفظ المستعار من أحد هذه الأنواع الثلاثة سميت الاستعارة
«أصلية»، إذ المشبه به استعير للمشبه دون أن تتوسط لفظة أخرى لإجراء هذه
الاستعارة

(١) دلائل الإعجاز ٥٣

(٢) انظر نهاية الإيجار ٨٩، البلاغة تطور وتراجع ٢٠٨

(٣) سحبان: علم شخص، لكن تؤول فيه جعل اسم جنس موضوع لطيف ذات متصفة بالفصاحة، ومثله -
حاتم، ومدر، وبدر، ونقل، وقس

٢ - وقد يكون اللفظ المستعار من الأفعال - ماضياً، أو مضارعاً، أو أمراً - أو
من المشتقات منها، أو من الحروف، وتسمى - حيثل الاستعارة «تبعية»، إذ
الاستعارة في الأفعال تابعة للاستعارة في المصدر. فهي تنقسم باعتبار اللفظ
المستعار إلى «أصلية وتبعية».

أمثلة للاستعارة الأصلية

١ - قال تعالى على لسان سيدنا لوط: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي كُفَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ
شَدِيدٍ) (هود ٨٠)، جواب «لَوْ» محذوف والمعنى: لو أن لي بكم قوة لعلت بكم
وصغت، أو لَو قَوِيْتُ عليكم سقي، أو آوَيْتُ إِلَى قَوِيٍّ اسْتَدَّ إِلَيْهِ فَبَحَمَسِي
مَكُم، فاصل الأركان للبيان، فشه المعين لشديد بالركن في لقوة ثم استعير
المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية - والاستعارة أبلغ لأن
الركن يُحَسُّ، والمعين الذي يمثل القوة لا يحس.

وقوله: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعَدَّ اللَّهُ مَكْرَهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَرَوُنَّ مَه
الجبال) (إبراهيم ٤٦)، يقول العلوي: «إنما تكون استعارة على قراءة من قرأ
لتروا» بالنصب، على تقدير «إِنْ» بمعنى «مَا»، والمعنى: وما كان مكرهم لتروا
منه الجبال، واستعار «الجبال» لما أتى به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من
المنجزات الباهرة، والأعلام الواضحة النيرة على نبوته، والمعنى: وما كان خدعهم
وتكديبهم لتروا من هذه الأمور المستقرة الثابتة التي هي كالجبال في الرسوخ
والاستقرار»^(١)

والاستعارة في الموصعين تصريحية، لأن المشبه به مصرح به، أصلية، لأن
الاستعارة في اسم جامد

(١) قلنا على قراءة «لتروا» بالرفع فلا وجه للاستعارة فيه للجبال بل تكون باقيه على حقيقتها، ونظر الطراز
١٣١، ١٣٢، والمثل السابق ٢٩٦

وهذه مجموعة من الآيات القرآنية التي فيها استعارة أصلية كشف عنها الرومان وبين في كل منها المعنى الحقيقي، والمجازي، والجامع بينهما، والسر البلاغي في التعبير بالاستعارة دون الحقيقة، كشف عن كل ذلك بطريقة فريدة لم يسبق فيها سابق.

يقول في قوله تعالى في شأن عروه بدر (وَذِيعُكُمْ اللَّهُ إِخْوَى الضَّعِيفِينَ أَيْهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهَ يَكُونُ لَكُمْ) (الأعداء ٧)

لفظ «الشوكة» مستعار، وهو أبلغ، وحقيقته السلاح، فذكر الحد الذي يقع به المحافة... وإذا كان السلاح يشمل ما له حد وما ليس له حد، فشوكة السلاح هي التي تبقى.

وقوله: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَغَوَّ دُعَاءُ عَرِيصٍ) (فصلت ٥١)

«عريص» هنا مستعار، وحقيقته كثير، والاستعارة أبلغ لأنه أظهر بوقوع الحاسة عليه.

وقوله تعالى حكيمة عن سيد عيسى عليه السلام (فَإِذَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا) (المائدة ١١٤).

حقيقته تكون لنا ذات سرور، والاستعارة أبلغ، لما للإحالة فيه على ما قد حوت العادة بمقدار السرور به.

وقوله: (مَأْدُونٌ مُؤَدَّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَتَعَتَّلُونَ بِعُجُوبٍ) (الأعراف ٤٤، ٤٥).

«لعوج» هنا مستعار، وحقيقته خطأ، والاستعارة أبلغ لما فيه من النبان بالإحاطة على ما يقع عليه الإحساس من العدول عن الاستقامة بالاعوجاج.

وقوله: (نَأْيُهَا إِلَيْنَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِبًا إِلَى اللَّهِ يَأْذَنُهِ وَسِرَاجًا مُبِيرًا) (الأحزاب ٤٥، ٤٦).

«السراج» هنا مستعار، وحقيقته مضيء، والاستعارة أبلغ، للإحالة على ما يظهر بالحاسة^(١).

وقوله (حَمْدُ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلُّ حَكِيمٍ) (الزحرف ١ - ٤)

حقيقته «أصل الكتاب» فاستعبر لفظ «الأم» للأصل، لأن الأولاد تنشأ من الأم كما تنشأ الفروع من الأصول، وحكمة ذلك تشبيل ما ليس بمبرئ حتى يصير مبرئاً، فيستقل السامع من حد السماع إلى حد العيان وذلك أبلغ في البيان^(٢).

ومن هذا القبيل قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي السَّحْرَانِ هَذَا عَذَابٌ مُرْتَبِعٌ لَشَرِّهِمَا هَذَا مَتَّعَ أَحَدَ) (طاهر ١٢) نصرت الله ضد السحرين للمؤمن وكافراً، والحديث عنها مطوى في تضعيف الكلام.

وسميت الاستعارة هنا أصلية لأن الاستعارة تجري فيها بطريق الأصالة والاستقلال من غير أن تتوقف على استعارة أخرى تنبئ عليها.

أمثلة للاستعارة التبعية

(أ) من الأفعال

قال تعالى (أَوْسَمَ كَدَمَيْتًا فَأَخِيَّتَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الْعُلَمَاءِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) (الأنعام ١٢٢).

حقيقة الكلام: أو من كان صالحاً فهديناه؟ لكن الأسلوب القرآني عدل عن لفظ «صالحاً» إلى لفظ «ميتاً» ولفظ «ميت» في الآية أبلغ من الحقيقة إذ تصور «الصالح» بالميت، وتنقل ما ليس بمبرئ حتى يصير مشاهداً محسوساً، وذلك أقوى في التأثير، وأبلغ في البيان. «استعارة تصريحية أصلية»، وقد سبق أمثال لها.

١. س. ك. ٨٨ ٩٣

(٢) البرهان ج ٣/٤٣٣، وأم الكتاب. هو اللوح المحفوظ كقوله تعالى بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ. وسعى أم الكتاب، لأنه الأصل الذي أثبت فيه الكتب، منه تنقل وتنتسخ (راجع الكتاب ج ١٨٦)

كما عدل عن لفظ «هدياء» إلى «أحياء» وفي ذلك نقل المعنى العقلي إلى لصورة الحسية، وتعبير بالصورة المحسوسة عن المعنى الذهني، وعدول عن التعبير المجرد إلى الرسم المصور.

وإجراء الاستعارة يكون على النحو التالي:

شبهت الهداية بالإحياء، بجامع ترتب المدفع في كل، ثم توسى التشبيه، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جسمه، ثم استعير المشبه به للمشبه، ثم اشتق من الإحياء «أحياء». بمعنى «هدى» على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، والتقريية حالية يدل عليها سياق الآية، فليس المراد من «أحياء» أوجدنا فيه الحياة، بل المراد هديناه.

٢ - وقال: (وَأَيُّ لَهْمٍ اللَّيْلُ تَسْلُخٌ مِنْهُ الْبَارَ فَإِذَا هُمْ مُنْظِلُونَ) (يس ٣٧).

حقيقة الكلام: آية لهم الليل نخرج منه النهار، لكن الأسلوب القرآني عدل عن لفظ «نخرج» إلى لفظ «نسلخ» وهو أبلغ، لأن السلخ إخراج الشيء مما لا بهه وعسر إخرجه لالتحامه به.

فقد شبه إزالة ضوء النهار عن المكان الذي فيه ظلمة الليل، بكشط الجلد من الشاة أو نحوها، بجامع ما يترتب على كل منها من ظهور شيء كان خافياً، فكشط الخلد يصهر لحم الشاة، وعروب شمس تظهر ظلمة لتي هي الأصل، والنور طارىء عليها يسترها بضوئه، ثم توسى التشبيه، واستعير المشبه به للمشبه، ثم اشتق من «نسلخ» نسلخ بمعنى نزيل - استعارة تصريحية تبعية - ولقريية لإيقاع «نسلخ» على النهار^(١).

٣ - وقال: (فَصَدَّخْ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) (الحجر ٩٤).

حقيقته: فبلغ ما تؤمر به، والاستعارة أبلغ من الحقيقة، لأن الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع لرحاح، واتسع قد يصعب حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع، والمعنى الذي يجمعها هو الإيصال، إلا أن الإيصال الذي

له نفاذ وتأثير كصدع الزجاج أبلغ.

فقد شبه السليخ بالصدع بجامع التأثير في كل، ثم استعير الصدع للسليخ، ثم اشتق من الصدع بمعنى «التبليغ» اصدع بمعنى بلغ - استعارة تصريحية تبعية. والتقريية هنا الخار والمجرور «بما تؤمر».

وسميت الاستعارة في الفعل، وفي الصفات المشتقة تبعية لأنها تابعة لاستعارة تسبقها في المصدر الذي يؤخذ منه الفعل أو الصفة - كما بيناه -.

وهذه مجموعة من الآيات القرآنية، وردت فيها الاستعارات في الأفعال، كشف عنها الرماني وبين المعنى الحقيقي والمجازي والجامع بينهما، وقُضِلَ المجاز على الحقيقة^(٢).

٤ - وقوله: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ قَيْذَمَةً فَإِذَا هُوَ رَاهِقٌ) (الأنبياء ١٨).

فالقذف والدمغ هنا مستعار، وهو أبلغ، وحقيقته: بل نورد الحق على الباطل بيلد، وإما كانت لاستعارة أبلغ، لأن في القذف دليلاً على القهر، لأنك إذا قلت: قذف به إليه، فدأماً معناه: ألقاه إليه على جهة الإكراه والقهر، فالحق يلقي على الباطل فيزيله على جهة القهر ولاصطرار لا على جهة الشك والارتباب، و«يدمغه» أبلغ من «يدمه» لأن «يدمه» من التأثير فهو أظهر في الكفة وأعلى في تأثير القوة.

«فكلمة القذف» توحى بهذه القوة التي يسط بها الحق على الباطل، وكلمة «يدمغه» توحى بتلك المعركة التي تنشب بين الحق والباطل حتى تصيب رأسه وتحطمه فلا يلت أن يموت^(٣).

فالحق كقذيفة مصوبة تصيب الباطل فتزيله من أساسه.

٥ - وقوله: (رَبِّهِمْ أَفْرَغْ عَلَيْنَا حَسْرَةً، وَثُبَّتْ أَقْدَامُنَا) (البقرة ٢٥٠)

(١) البكت ٨٨ - ٩٣

(٢) من ملاحقة القرآن ٢١٨

«أمرع» مسعر، وحصمة فعل بنا صرأ، وأفرغ أبلغ منه، لأن في الإفرع اتساعاً مع بيان. «ومن الدقة القرآنية استخدام اللفاظ المستعارة، إنه استخدم كلمة «أمرع» وهي توحى بآسب ورفق عند حديثه عن الصبر وهو من رحته، وإذا جاء في العدد استخدم كلمة «صب» فقال (صَبَّ عَلَيْهِمْ رُثْ سَوَاطِعُ عَذَابِ) (الفجر ١٣) وهي مؤذنة بالشدة والقوة معاً^(١)»

٦ - وقوله: (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ يَجِيئُهُمْ هَمٌّ) (الكهف ٩٩) أصل «الموج» ساء، وحقيقته تحلط بعضهم بعض، ولاستعارة أبلغ، لأن قوة الماء في اختلاط أعظم.

«فكلمة «يموج» لا تقف عن استعارتها لمعنى الاضطراب، بل إنها تصور للتخيل هذا الجمع الحاشد الذي لا تدرك العين مداه، حتى صار هذا الحشد الراخر كبحر ترى العين منه ما تراه في البحر الزخار من حركة وتموج واضطراب، ولا تثنى كلمة «تموج» إلا موحية بهذا المعنى ودالة عليه^(٢)».

٧ - وقوله (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْحَيَاةَ وَلَمْ يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ نَفْسِهِمْ، مِثْلِهِمْ السَّابِقُ، وَصُرُّوا، وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ رَسُولٌ وَالدِّينَ آمَنُوا مَعَهُ، مَتَى نَصُرَ اللَّهُ) (البقرة ٢١٤).

وهذا مستعار، «وزلزلوا» أبلغ من كل لفظ كان يعبر به عن غلظ ما نالهم كالإزعاج - مثلاً - إلا أن الزلزلة أبلغ وأشد.

٨ - وقوله: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) (التكوير ١٧ - ١٩).

و«تنفس» هنا مستعار، وحقيقته إذا بدا انتشاره، وتنفس أبلغ منه، ومعنى الابتداء فيها، إلا أنه في النفس أبلغ لما فيه من الترويح عن النفس.

٩ - وقوله: (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا) (الزخرف

(١٠)

«والنشر» هنا مستعار، وحقيقته أظهرنا به البهت والأشجار والثمار، فكانت كمن أحيياه بعد إماتته، فكانه قيل: أحيينا به بلدة ميت من قولك «أشربته الموت فنشروا»، وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها معنى المبالغة ما ليس في أظهرها

١٠ - وقوله: (سَتَقَرُّ لَكُمْ فِيهَا النُّقْلَانِ) (الرحمن ٣١).

والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ولكن هذا أبلغ في الوعيد، وحقيقته سنعبد إليكم بعد طول الترك والإمهال، إلا أنه لما كان الذي يعبد إلى شيء قد يُقصر فيه لشغله بغيره معه، وكان العرغ له هو البالغ في العالب - كما يجري به التصريف - دللنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عبداً لما كانت بهذه المنزلة، ليقع الزجر بالمداغة التي هي أعرف عبد العامة والخاصة موقع الحكمة. والشوهد الماضية كلها من الاستعارة في الفعل بالظن إلى حديثه.

وقد تكون الاستعارة في الفعل بالظن إلى زمانه مثل:

١ - قوله تعالى: (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَبِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ، قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ) (الأعراف ٥٠).

هذه الآية ترسم مشهداً من مشاهد يوم القيامة، ترسم صورة حية للحزى الذي يصيب الكفار يومئذ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: «ونادى» بدلاً من «نادى»، لكن القرآن الكريم عبر عن أحداث المستقبل تلك بكلمة «نادى»، وهذا التعبير أبلغ، فقد صور ما يقع في المستقبل كأنه حدث بالفعل، وكأن الداء من أصحاب النار وقع، وفي ذلك ما ينبههم إلى أنهم لا يسفون أن ينكروا المعث، فوقائعه حاصلة وواقعة فعلاً وتكراره غير مقبول.

فشه النداء في المستقبل بالداء في الماضي، مجامع تحقق الوقوع في كل، ثم استعير النداء في الماضي للداء في المستقبل، ثم اشتق من الداء «نادى» بمعنى «ينادى» - استعارة تصريحية تعية - ولقربة: إسناد الفعل لأصحاب النار - وهذا بالقطع سيكون في المستقبل.

(١) مصدر صبه ٢١٩، ٢٢٠

(٢) من بلاغة القرآن ٢١٨

٢ - وقوله : (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) (الحل ١).

فمعنى «أتى» يأتى على نحو الآية السابقة
ومثلها قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)
(الرمر ٦٨).

وإذا كان يعبر عن المضارع بالماضي لتحقيق الوقوع، كذلك يعبر عن الماضي
بالمضارع لاستحضار صورته، لتكون ماثلة في النفوس حاضرة في الخيال، مثل :
٣ - قوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُبْرِئُ السُّعَابَ فَسُقْنَاهُ إِلَى بِلَدٍ مَيِّتٍ،
فَاحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (فاطر ٩).

فالآية تتحدث عن ظواهر طبيعية وقعت، فكان مقتضى الظاهر أن يقال :
عادت، كالأمر بعدها، لكن تعبير القرآن جاء بالمضارع قصداً إلى استحضار
صورة لإثارة وأن تكون حاضرة في الدهر ماثلة في الخيال فيكون ذلك أدعى إلى
العظة والاعتبار.

فثبه الإثارة في الماضي بالإثارة في الحال، بجامع حصول الصورة في كل، ثم
ستعبر لإثارة في الحال للإثارة في الماضي، ثم اشتق منه «تثير» بمعنى «أثرت»،
والقرينة حالية.

٤ - ومثليها قوله : (أَمَكُنَّا بِكُمْ رَسُولٌ مِمَّا لَا تُهْرَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكَرْتُمْ مَعْرِيفَةً
كُذِّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) (البقرة ٨٧).

فالآية تحكى الصورة البشعة التي كانت اليهود تصنعها في الأنبياء، فكان مقتضى
لظاهر أن يقال : «وفريقاً قُتِلْتُمْ» لكن تعبير القرآن أتى بالمضارع، لاستحضار
تلك الصورة الأليمة في النفوس تقيحاً لها وتنفيراً منها، والاستعارة فيها كالأية
السابقة

(ب) في المشتقات :

١ - قال تعالى : (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظِلَّةً وَأَنشْنَا... قَالُوا : يَا وَيْلَكَ

إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِئِينَ) (الأنبياء
١١ - ١٥)

والمعنى : جعل الله هؤلاء القوم هلكى كالنبات المحصود الهامد، وأصل الحمود
للنار، وحقيقته : هادئين، والاستعارة أبلغ، لأن حمود النار أقوى في الدلالة على
الهلاك، على حد قولهم : طَفَىءَ فلان كما يُطفأ السراج.

فثبه هلاك القوم وثباتهم في أماكنهم، بحمود النار، بجامع عدم الحركة في
كل، ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، ثم استعير المشبه
به للمشبه، ثم اشتق من الحمود خامد عن طريق الاستعارة التصريحية التبعية،
وفى «حصيد» استعارة تعية أيضاً

٢ - وقوله : (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاعَةِ، وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ
عَاتِيَةٍ) (الحاقة ٥ - ٦).

الطاعية، حقيقتها : عاتية، والتعبير بالطاعية أبلغ، لأنها علوم مع قهر وغلبة،
وعاتية، حقيقتها : شديدة، والتعبير بالعاتية أبلغ، لأن فيه من الشدة مع القهر
والعلة.

وقوله : (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، مَا تَلَّوْا مِنْ شَيْءٍ أَنْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا
جَعَلْتُمْ كَالرِّمِيمِ) (الذاريات ٤١، ٤٢). العقيم : مستعار للريح، وحقيقته : ريح
لا يأتى بها سحاب غيث، والاستعارة أبلغ، لأن حال العقيم أظهر من حال الريح
التي لا تأتي بمطر.

٣ - وقوله : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ، قَالُوا :
يَا وَيْلَتَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا) (يس ٥١، ٥٢).

أصل الرقاد النوم^(١)، وحقيقته : الموت، والاستعارة أبلغ، لأن النوم في نظرهم
أظهر من الموت، والاستيقاظ أظهر من الإحياء بعد الموت، لأن الواحد تتكرر عليه
النوم، واليقظة، وليس كذلك الموت والحياة^(٢).

(١) لقوله تعالى (وَنَحْنُ بِهِمْ أَيْقَاظٌ وَمَا نَمُوتُ)

(٢) هذا على أن «مرقد» اسم مكان فيكون مشتقاً، أما إذا كان «مصدراً» معاً، فالاستعارة تكون أصيلة

٤ - وقوله : (وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل، وجعلنا آية النهار مُنصرة) (الإسراء ١٢).

فمصرة هنا «استعارة» وحقيقتها : مضيئة، وهي أنبغ، لأنه أدل على موضع النعمة لأنه يكشف عن وجه المنفعة.

(ج) في الحروف

١ - قال تعالى : «وَأَوْخِيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ... فَانْقَطَعُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ هُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا، بَنَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَخُودَهُ كُتِرَ حَاطَتَيْنِ، وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَسْتُ، لَا أَفْتَنُوهُ غَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» (عنصص ٧-٩)

«اللام في «ليكون» هي لام «كى» التي معناها التعليل مثل : جئتكم لتكرموني، ولكن التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة، لأنه لم يكن دعيم، بل اللفظ أن يكون هم عدو، ولكن لمحبه ونسي، عبر أن ذلك كان نتيجة التفاد لهم له وثمرته، شبه بالداعى الذى يفعل الداعى العمل لأجله، وهو الإكرام الذى هو نتيجة المحبة... وتحريره أن اللام هذه حكمها حكم الأسد، حيث سميرب لما يشبه سميرب، كمن يستعار الأسد لما يشبه الأسد»^(١)

والذى حمل آل فرعون على التقاطع موسى - عليه السلام - هو النفع أو نسي بدليل قوله تعالى على لسان امرأة فرعون : (لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا) فلو أن رجاءهم قد تحقق لمين وانقضت آل فرعون ليكون هم نافعا وب، وحيثئذ تكون للام قد استعملت في معناها الحقيقي.

لكن الواقع الذى يحدث هو أنه كان لهم عداوة وحزنًا، حيث ترتبت العداوة والخراب على الالتقاط، وسدلت صرابت للام مستعملة في غير ما وصفت له، لعلاقة المشابهة، فهي استعارة.

إجراء الاستعارة فيها على النحو التالى :

شبهت العداوة والحزن المتربان على الالتقاط في الواقع، بالعلة الحقيقية التي هي الانتفاع أو النسي، بجامع مطلق ترتب شيء على شيء، ثم استعيرت اللام من معناها الحقيقي وهو ترتب العلة الحقيقية على الالتقاط لترتب غير العلة الحقيقية عليه، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والفريضة : دخول اللام على العداوة والحزن.

٢ - وقال تعالى حكيًا مدلة فرعون لسحرة عبد يدهم موسى (فَلَا تَقْطِرْ أَبْدِيَكُمْ وَرَحْنَكُمْ مِنْ حُلَافٍ وَأَلْصُقْكُمْ فِي خُدُوعِ الْحُلِ) (طه ٧١).

لفظ «في» موضوع لتلبس الطرف بالمظروف، مثل : النقود في الخزينة، فإذا كان ما بعد «في» يصلح لأن يكون طرف حقيق لما فيها كانت «في» مستعملة فيها وضعت له، أما إذا كان ما بعدها لا يصلح لأن يكون طرفًا لما قبلها فتكون مستعملة في غير ما وضعت له، ولفظ «في» في الآية ما بعدها لا يصلح أن يكون طرفًا، فحذع السحرة لا يصبح أن يكون طرفًا للمصلوبين، لكن لما كانت الخدوع متمكنة من المصلوبين تمكن الطرف من المظروف ساغ استعمالها فيه على سبيل الاستعارة.

وقد شاع هذا التجوز في الشعر، فقال سويد البشكري :

هَمْ صَلَبُوا الْقَبْدِيَّ فِي جَذْعِ نَحْلٍ فَلَا عِطْسُ شِيَانٍ إِلَّا بِأَجْدَعًا^(٢)

وقال عثره

سَطَلَّ كَانَ شِيَاهُ فِي سَرَّخَةٍ يُحْدَى يُعَالِ السُّبِّ، لَيْسَ بِتَوَامٍ^(٣)

(١) الأمدع : مقطوع الأنف، فهو يدعمر على شيطان بذلك لأنهم صلبوا المسيح، (انظر هذا البيت وما بعده في شرح الأشرور، على ألفية ابن مالك تحقيق محسن الدين ج ٢٦١/٣ ط الخليل)

(٢) السرخة، للشجرة العظيمة، السب : الجند المذبذب ولم يجرده من شعره، وهو ليس أسود، ويريد بدت به منه أربع، من حرم م يرحمه جد في طرأته يكون صبيح، فهو على مديد دمه كان له قد ألبس شجرة عظيمة من طول قلته واستواء خصلته وهو يشبه النعال من الخلود للديونة، ولم تحميه أمه مع غيره

فالعلم في التبيين بمعنى «على» على الاستعارة.

٣ - وقال تعالى حكاية عن لكمار يوم القيامة (يَهْلُ لَنَا مِنْ شُعْعَةٍ فَيَشْمَعُونَا، أَوْ تُرْدُ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) ؟ (الأعراف ٥٣).

فـ «هل» معناها الحقيقي : طلب العلم، واستعملت في الآية في «التمنى» على طريق الاستعارة، لسر بلاغي : وهو إنزال التمنى العبد الحصول في صورة الممكن القريب الوقوع، إظهارا للكمال العناية به والرغبة في وقوعه.

فقد شبه مطلق التمنى بمطلق الاستفهام بجامع الطلب في كل، ثم استعير «هل» الموضوع للاستفهام نسبي، ونقربة حالية، لأن تكافؤ لا يستفهمون مهم يعلمون يقيناً بأنه ليس لهم شعاع، وإنما هم يتمنون أن يكون لهم ذلك.

وما سبق ينصح معنى كونه نعية، أنها ناعية لتشبه مدحول الحرف الآن بما كان حقه أن يدخل عليه^(١).

وقد اتجه أبو يعقوب لمعرب وجهة أخرى في الاستعارة بالحرف وجعلها من قيل لاستعارة بالكتابة^(٢) فيشبه مدحول الحرف الآن بما كان حقه أن يدخل عليه، ثم نستعير المشبه به للمشبه، ثم نحذف المشبه به ونرمز إليه بشيء من لوازمه وهو الحرف.

وإجراؤها على هذه الطريقة كالآتي :

شبهت العداوة والحزن بالمحبة والتبني ثم استعيرت المحبة والتبني للعداوة والحزن ثم حذف المحبة والتبني ودل عليهما بشيء من لوازمها وهو لام العلة على طريقة الاستعارة المكنية، وإثبات اللازم تحييل، وهو قرينة المكنية.

(١) وما جرينا عليه هو أحد طرق ثلاثة في الاستعارة في الحرف فهو رأى الرغشري في كشافه وتبعه الخطيب في الإصباح

(٢) مواهب المتاح، ص ١٣٢/٤ شرح التلخيص ج ١/٢٣٢

ولقد أفاض العلوي وابن الأثير^(١) في بيان اللطائف الدقيقة، والأصرار الغامضة لوضع حرف مكان آخر وعرض لذلك في آيات من القرآن، فقال في قوله تعالى :

٤ (فَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، قُلْ اللَّهُ، وَإِنْ أُوْا يُنَاقِمُ لَعَنَ هَٰذِي أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)^(٢) (سبا ٢٤)

فانظر إلى براعة هذا المعنى المقصود وجزالة هذا الانتظام بمخالفة موقعي هذين الحرفين، فإنه إما حولف بينهما في التلبس بالحق والباطل، والدخول فيهما، وذلك من جهة أن صاحب الحق كأنه لمزيد قوة أمره وظهور حُجَّتِهِ، وفروط استظهاره راكب لحود يصرفه كيف شاء، ويركضه حيث أراد، فلا حل هذا حمل ما يختص به مُعَدِّي بحرف «على» الدال على الاستعلاء، بخلاف صاحب الباطل فإنه لعشيه، وعطر قفقه، وضعف حاله، كأنه يعمس في ظلام وموضع سهل لا يدرى أين يتوجه، ولا كيف يفعل، فلهذا كان الفعل المعلق بصاحبه مُعَدِّي بحرف الوعاء إشارة إلى ما ذكرناه. ويؤيد هذا ما ذكره الله تعالى في سورة يوسف، حيث قال : (تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (يوسف ٩٥).

٥ - وقال في قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَامِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاسِ السَّبِيلِ) (التوبة ٦٠)

فهذه أصناف ثمانية جعل الله الصدقات مصروفة فيهم، لكونهم أهلاً لها ومستحقين لصرفها، لكن الله تعالى حص المصارف الأربعة الأولى باللام دلالة على الملك والأهلية للاستحقاق، وعدل عن اللام إلى حرف الوعاء في الأصناف الأربعة الأخرى، وما داك إلا للإيدان بأن أقدامهم أرسح في الاستحقاق للصدقة، وأعظم حاجة في الاقتدار، من حيث كان «في» دلة على الوعاء، فنبه على أنهم أحقوا بأن

(١) الطراز ج ٢/٥٣، للنيل السائر ج ٢/٢٤٠

(٢) وفي الآية من أنواع البديع - فاعمل العارف - فاعل ورسوله أعلم من حل الهدى ولكن الآية جمعت على هذا السياق للتعريف بعدم هداهم، كي أنه حى - بالآية عن هذا المعنى الإيهام ليكون سبباً في بخت المشركين عن التدبير والتأمل في حال أنفسهم من قساد أحوالهم وعوارب بعضهم على بعض وإرتكاب العوشت والمكرات وحال الرسول ومن معه من اجتنب العوشت المكرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى إذا آمنوا في النظر علموا أن النبي والمؤمنين هم الهدى وأنهم هم صلابة فيهم ذلك عن الإهداء يجوز الإسلام

ومن الاستعرة العادية الاستعارة التهكمية

الاستعارة التهكمية

وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لم يَكُنْ لله يِعْمَرُ لَهُم ولا لِهَيْدِهِمْ صَرِيضًا، إلا صَرَبٌ حُمْمٌ جَالِدِينَ مِنْهَا أُنْذِرُ) (سورة ١٦٨، ١٦٩)، فأهذية هي الدلالة على المانع، كطريق الجبه مثلاً في آية لمدخ (هذه الصراط المستقيم) أو الثواب، كقوله تعالى: (وَلَدِينُ قُتُبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ تَصَلُّ عَمَائِهِمْ مَبْهَدِهِمْ وَيُضْلَعُ بَالِهِمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) (محمد ٤، ٥)، أما الصريح إلى سائر السوق إليه فليس من المانع لكن القرآن أثر هذا الأسلوب لما أراد إهدتهم ولتهكم بهم^(١٢).

وقد شبه موتهم إلى طريق النار بعنف باعداية، بهامع السرور، تحقيقاً في

(١) جلست مائة (الشارة) في القرد عن ميسر، عتيقة في لياتين موضحا، وعلى ميل المحار في حلة مواضع

دکان مراعاتی کے اہل مفاد

(٢) انظر تفصيل ذلك في مشايخ القرآن، ٦٣، ٢١٥.

٦- وقال في قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

لأنما أعرض عن ذكر حرف الاستعلاء وهو «على»، وعدل عنه في حرف الوعد وهو «في»، مع أن بظاهر هو يدعو على لأرض ويسمى، لأنما بأن حرف الوعد أقعد وأمكن هـ هـ من حرف الاستعلاء، لأن «على» تشعر بالاستعلاء لا غير من غير تمكن واستقرار، و«في» تشعر هـ هـ بالاستقرار والتمكن، ومن حق ما يكون مستقر فيه متمكناً أن يكون مستعلاً له، فيما كانت «في» تؤذن بالمعنى جميعاً ثم عدل إليها وأعرض عن «على»، دلالة على المداغة التي ذكرناها.

الاستعارة الوفاقية والعنادية

تنقسم الاستعارة باعتبار الطرفين إلى : وفاقية وعددية

فالفاتية - يمكن اجتماع طرفي في شيء واحد، كموله - **يجمع** وإن من
 لبيان لسكر - وقد شبه الكلام لحسن تاسحر في لتأثير، واضطرب يمكن
 اجتماعها في شيء واحد - وهو الإنسان الساحر ذو البيان الحسن.

والعنادية : ما لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد - كقوله عليه السلام -
 « ويل للأقبيح » وقد شبه عليه السلام « داهم للأقبيح التي تفرغ فيها ضرور
 نفوس فراع شذعت ، وهي عادة لأل طرفيها لأدب والأقبيح لا يمكن
 اجتماعها

هد به ونسبلاً في حشرهم في جهنم تبرلاً للتضاد مرة انتاسب و استعارة تعية تهكمية.

ومثله قوله تعالى: (اَحْشَرُوا الَّذِينَ طَلَمُوا وَاَزْرَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) (الصافات ٢٢، ٢٣).

وقد صور الله بهانة قوم شعيب له وستهزئهم منه بهذا الأسلوب التهكمي لبحر قتل - (فَانُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاثٌ تَتَمُرُّ أَنْ تَتَرَكَ مَا يَعْبُدُونَ آثُوبًا، أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا تُشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (هود ٨٧)، فاستعبر الحلم والرشد للسفه والغنى، لأن قصد قوم شعيب السحرية والاستهزاء.

كما أثار الله سبحانه هذا الأسلوب مع المسلمين الذين حُيدُوا في غزوة أحد، بعد أن عَصَوْ رسولاً، فتركوا مواقعهم وأعدوا في لأرض هرباً، ورسول في آخرهم ياديهم ناضات حتى وقف منهم من وقف، فحاربهم الله سبحانه عن مخالفتهم أمر الرسول عَمَّ سبب ما أدخلوه على لرسول من العلم بعصيانهم به، وغردهم على أوامره، فقال: (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونِ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَذْهَبُكُمْ فِي أَخْرَاقِكُمْ فَذُكِّمُكُمْ عَمَّا بَعَثَ) (آل عمران ١٥٣)، فشنت لحرارة بالإثنية على طريقة انتهكم ولاستهزء^(١).

وقد شاع هذا الأسلوب التهكمي الساحر عند العرب كقول عمرو بن معديكرب:

نَحْبَةُ شَيْهٍ صَرْتُ وَجِيعَ

وقد كتب من رهبر

صَحْبًا خَرَجْتُ مُزَهَّبَاتٍ أَدَادَ دَوَى أُرُوسِهِ دَوَاهٍ^(٢)

(١) نظر المصدر السابق ١٦٨

(٢) صحب: صلب، أو سقاء صرخة، وهو شراب الصنع من اللبن الخليلج، الخزرجية: نسبة إلى قبائل الخزرج، المزهبات: المزهبات وهي السيوف الزينة، الأروسة: صبح من صمغ أصفر، وضيق (أروسته) يعود إلى الخزرجية، وضيق (دووهده) يعود إلى المزدند.

فقد شبه الطعن في الصباح بتحية الصباح أو شرب الصباح، بخامع المسره في كل يتزبل التضاد منزلة التناصب واستعارة تهكمية تعية

وقد يسمى هذا النوع من الاستعارة «تخليجية»، ويختلف ذلك بحسب المقام فإن كان الغرض الحامل على استعمال اللفظ في خمد الهزة والسخرية بالمقول فيه كانت تهكمية، وإن كان الغرض بسط السامعين وإزالة السامة عنهم بوساطة الإتيان بشيء مستملح مستظرف كانت تخليجية.

الاستعارة المرشحة والمجردة والمطلقة

الاستعارة مباهة على تناسي التشبيه، وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، حتى كأن انوحود في وقع الأمر مشبه به دون اسمه، فكل شيء يدكرى لأسلوب الذي وقعت فيه الاستعارة يتوى هذا المعنى ويدعمه فهو يريد في قوة الاستعارة، وكل ما يضعف منه فهو يقلل من شأنها، وينقص من قيمتها.

ومن هنا تتنوع الاستعارة - باعتبار ذكر الملائم - لأحد طرفيها وعدم ذكره إلى ثلاثة أنواع: مرشحة، مجردة، مطلقة.

فالمرشحة: هي التي قرنت بما يلائم المستعار منه «المشبه به» زائداً عن القرينة. كقوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ مَا رِجَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) (البقرة ١٦)، فهي «اشترؤ» استعارة تعية، شبه اختيار الضلالة عن الهدى بالشراء، بجمع ترك مرعوب عنه وأحد مرعوب فيه، ثم استعير المشبه به للمشبه، واشتق من الشراء اشتروا بمعنى احتاروا، والقرينة: استحالة المادلة الحقيقية بين الضلالة والهدى، وبإستيفاء القرينة تحت الاستعارة^(١).

(١) كما استعير في الآية عدم الربح لعدم الثواب الأخرى، والتجارة استعيرت لانعدام الضلالة بدلا من الهدى

وقد ورد استعمال مادة (الشراء) في القرآن الكريم في خمسة وعشرين موضعا منها اثنان على الحقيقة في قوله تعالى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) (يوسف ٢٠) أي باعوه قبيها بغير البيع، وقوله (وَالَّذِي اشْتَرَا مِنْ دُونِ الْأُتْرَاقِ أَكْرَمُ مَثْوَاهُ) (يوسف ٢١) أما قوله: (ومن الناس من يشتري غير الحديث ليصل من سيل الله) (البقرة ٦) فهي قال: إن الشراء كان بحضور أحداث ومستم ويبرام بالبدل القدي فالشراء على الحقيقة، ومن قال: =

وقوله: (فأرسلت نجاوتهم) جملة تناسب الاشتراء - وهو المشبه به - فتسمى «ترشيحاً» وسميت مرشحة: لأن الترشيح معناه النقية، وذكر ملائم للمشيبه به بعدها عن الحقيقة، ويقوى فيها دعوى الاتحاد التي هي معنى الاستعارة، وقد عدها ابن أبي الإصيص من أجل الاستعارات^(١).

وقد وصف الله هؤلاء القوم بعدم الاعتناء إلى طرق التجارة الرابعة، «مقصود من التجارة سلامة رأس المال مع حصول الربح، ولئن فات الربح في صفقة فرما يتدارك في صفقة أخرى لبقاء الأصل، وأما إتلاف الكل بالمرة فليس من باب التجارة قطعاً، فهؤلاء الذين كان رأس مالهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالة فأضاعوا كلنا الطلبتين فبقوا خائبين خاسرين نائين عن طريق التجارة^(٢)، ومن الترشيح قول الشاعر:

يُنَازِعُنِي بِذَائِي عَبْدٌ عَمْرُو رُوَيْدُكَ يَا أحمَا عَمْرُو بْنَ بَكْرٍ
لِي الشُّطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينِي وَدُونُكَ فَاهْتَجِرْ مِنْهُ بِشُطْرٍ^(٣)

والشاعر استعار «الرداء» للسيف، بجامع الصيانة والحفظ، والقرينة الحالية، لأن النزاع حول السيف لا حول الثوب، وقد ذكر الاعتجار - وهو ملائم للمشيبه به «الرداء» - ترشيح للاستعارة - وهذه التسمية للاستعارة الترشيحية من وضع صاحب الكشاف عند تفسيره للآية الكريمة: (اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى). (البقرة ١٦).

«إن الرداء بمعنى استبدال أحاطت بهو بالإيمان كان مجازاً

وفي باقي الآيات استعملت صيغة الرداء على المجازة سواء كان بمعنى البيع كما في قوله تعالى: (وليس ما شئنا به منهم) سورة ١١٣ من ناس من يشري نفسه بعداء ماله) سورة ٢٠٢ أو بمعنى الشراء كقوله الآية، ولم ترد مرشحة إلا في هذه الآية

(١) تحرير التعبير ٩٩

(٢) تفسير أبو السعود ج ١/ ٣٨

(٣) رويدك - اسم فعل بمعنى أهمل والكاف حرف خطاب، دونك - اسم فعل بمعنى خذ، اعتجر - من الاعتجار وهو لف الراس ثوباً وسجدة، والاعتجار على غير حقيقة إذ المراد سريته على رأسه بالسيف، الشطر - النصف المراد به مقعر السيف، والشطر الآخر هو صلب السيف يمينه في صلب العدو، وفي رويدك الضمت من العية إلى الخطب

ومحردة ما قرئت على بلائم المستعارة «المشبه»

مثل قوله تعالى: (أصرب الله مثلاً قرية كانت معه مطمئة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله، فأصبح الله لئس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) (النحل ١١٢).

والاستعارة في كلمة «لباس الجوع والخوف»، فقد شبه أثر الجوع والخوف - من السحابة والاصفرار والضعف - وضررها المحيط بأهل القرية، باللباس، بجامع الإحاطة في كل، والقرية: هي إضافة اللباس إلى الجوع والخوف. وقد قرئت الاستعارة بما يلائم المستعار له، وهو قوله «فأذاقها» فالمراد بالإذاقة: إصابة القوم وابتلاؤهم بالآلام الجوع، وهذا ملائم للمستعار له

والاستعارة الإذابة في الإصانة استعارة حرت محرر الحقائق لشيوعها في اللسان وشدها. وما قل «فأذاقها» لم لم يمل «طعم الجوع والخوف»، ليلائمه قوله «فأذاقها» حتى يكون الكلام ترشيحاً؟

لأن طعم وب كان ملائماً للإذابة لكنه لم يذكره لما كان معروفاً لبيان اشتغال الجوع والخوف هم وعموم أثرهما على جميع البدن، كي نعم اللباس وتعطى جميع البدن، فلا جرم حصل من لفظ «اللباس» المدلغة في العموم والاشتغال.

ولو قل «فكسها» الله لباس الجوع والخوف، لكان ترشيحاً^(١) لكنه سأل في شدة ما أصابهم بقوله «فأذاقها» لأن الموقع يقع في إحساس ودخل في الإيلاء من قوله «فكسها»^(٢).

فقد أوتر العبر «وإذاه» - بالتحديد - مع أن الترشيح أبلغ^(٣)، لأن الإحراك

(١) التوشيح من التوشاح وهو الرينة هي مقواه أو مريته بما يلائم المشبه به، وقد سمي المرشحة بعض المعانيات

(٢) طراز ٢٣٦

(٣) يعني أن يرسم أن مرشح الاستعارة هو تقويه لها وحدها، فلا يبق ذلك أن يكون التحديد أبلغ منه في بعض الأحيان بالنسبة لجملة الكلام كما في الآية «فأذاقها» الله لباس الجوع والخوف، فقد انحصر الكلام جملة التحديد وإن كان في ذلك يقاس لربة الاستعارة (أسرار البيان ١١٢)

بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس، فكان التعبير بالإدانة إشعاراً بالإصابة بخلاف التعبير بالكسوة.

ومن التجريد قول البحري:

يُؤَدُّونَ التَّحِيَّةَ مِنْ بَعِيدٍ إِلَى قَمَرٍ مِنَ الْإِيَّانِ بِإِذْنِ

القمر مستعار للممدوح، والقرينة: يؤدون التحية من بعيد، وقوله من الإيوان بدء، تجريد إذ هو من ملائكة الممدوح - وهو المشبه.

وسميت مجردة لتجريدتها عما يقويها لأن ذكر ملائم المشبه مضعف لتناسي التشبيه، ومبعد لدعوى اتحاد المشبه مع المشبه به، وهذا يحسن من المبالغة وهذه التسمية للاستعارة التجريدية من وضع الإمام فخر الدين الرازي^(١).

والمطابقة: هي التي لم تفرق بما يلائم المشبه أو المشبه به.

كقوله تعالى: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُصُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) (القرة ٢٦، ٢٧).

فقد ستمير العهد للحنن، وحذف المشبه به ورمر إليه شيء من روده، وهو النقص، وهو قرينة لكيفية ولم تفرق الاستعارة بما يلائم المشبه به أو المشبه وقوله: (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونوح في لصور محمضاهم حتما) (الكهف ٩٩).

فكلمة «يموج» استعارة للاضطراب والاحتلاط الشيء عن الحيرة، والقرينة إسناد الفعل إلى الضمير العائد على بعضهم، ولم تفرق بما يلائم المشبه أو المشبه به.

وسميت مطلقة لأنها أطلقت عما يقويها أو يضعفها من ملائكة المشبه به أو المشبه

(١) الإيوان: بناء محكم ومنه إيوان كسرى

(٢) البلاغة تطوّر وتاريخ ٢٨٩

وقد تفرق بما يلائم المشبه به والمشبه معاً، فتكون مطلقة أيضاً، كقول كثير عزة:

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ رِيْشُهُ الْكُحْلُ لَمْ يَضِرْ ظَوَاهِرَ جِلْدِي، وَهُوَ لِلْقَلْبِ جَارِحٌ

استعارة الشاعر لفظ «سهم» للظفر، وريشه: ترشيح لأنه من ملائكة المشبه به، من قولهم: راح السهم إذا الصق الريش ليكون أحكم في الرماية، والكحل: تجريد، لأنه من ملائكة المشبه، وقرينة الاستعارة حالية.

والترشيح والتجريد إنما يكون بعد تمام الاستعارة، وثمها باستيفاء قرينتها

والترشيح أقوى، ثم الإطلاق، ثم التجريد

وذلك لأن الاستعارة - كما هو معلوم - مبنية على تناسي التشبيه ودعوى اتحاد المشبه به بالمشبه، فكل ما يؤكد هذا المعنى فهو يقوى الاستعارة، ولا شك أن ذكر أساس التشبه به يجعل حديث التشبيه بعيداً من الأذهان، ويحيل أن المستعار مستعمل في حقيقته، لذلك كان الترشيح أقوى.

ويجوز لإطلاق، لأنه ترك الاستعارة عن حاشا دور أن يذكر معها ما يقويها أو يصححها

أما التجريد، فهو عود إلى التشبيه، فبعد أن تمت الاستعارة عاد المتكلم يذكر بالمشبه، فيذكر ما يناسبه، وذلك يضعف من شأن الاستعارة.

الاستعارة التمثيلية

قال بعض في شأن أهل الكتاب: (وَيَذُحُّ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا لِكِتَابِ اللَّهِ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبِّئُوهُمْ زَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً، فَبَشَّرَ بِبِشْرَتِهِمْ) (ال عمران ١٨٧).

حقيقة الكلام: تركوا الميثاق وأهملوه، ولكن «نبؤهم زاء ظهورهم» أبلغ،

لما فيه من الإحالة على ما يتصور ويرى من الطرح والرمى الذي يدل على الإهمال والاحتقار، ففي الآية استعارة وليست من قبيل استعارة المفرد، بل من قبيل استعارة المركب.

فقد شبه هيئة من أخذ عليهم الميثاق، وأهملوه ولم يعتدوا به، هيئة من يده شيء تافه حقير فطرحة وراء ظهره، والجامع بينهما: وجود شيء يحمل احتقاراً لشأنه، ثم استعير المركب الموضوع للمشبه به للمشبه «استعارة ثبته»، والقرينة حالية، لأن التاركين لميثاق لم يطرحوا شيئاً وراء الظهر حقيقة.

ومن هنا ندرك أن الاستعارة التمثيلية هي:

اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مائعة من إرادة المعنى الحقيقي.

ومن شواهد الاستعارة التمثيلية

١ - قوله تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قُتِفَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) (الزمر ٦٧)، وفي الآية تمثيلان:

(أ) شبه الأرض وهي تحت تصرف المولى سبحانه ورهن إرادته، بالشيء يكون في قبضة الممسك به، فهو متمكن منه يصرفه كيف شاء، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه.

(ب) وشبه السموات وهي تحت تصرفه وطوع مشيئته، بالشيء المطوى (كذلك مثلاً) في يمين مفرد له فهو يطويه ويشره كلما شاء، وحصر الميمر لأنها شرف اليمين وأقوامها، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه.

٢ - وقوله تعالى يصف أهوال يوم القيامة: (يَوْمَ تَرْوُنَا نَذْهَلُ كُلَّ مُرْصِعٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) (الحج ٢)

فقد شبهت أهوال الآخرة وما فيها من أهوال وشدة تنسي المرء أعز ما عنده،

هيئة المرصعة التي تذهل عن رضيعها، وذات الحمل التي تضع حملها، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه.

٣ - وقوله تعالى في التنوير عن العيبة: (أَجِبْتُ أَجْدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمٌ أَحِبَّهُ مَتَّ فَنَكْرَهُنَّموه) (الحجرات ١٢)

شبهت الكراهية الحاصلة من تناول المرء عرض أخيه وذكره بما يكره، بالكراهية الحاصلة من أكل لحم أخيه الميت، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه.

٤ - وقوله تعالى: (بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (البقرة ١١٧).

فقصاء أي أمر من جانب الله سبحانه يكون من دون تراخ ومعاناة ومشقة، ويحدث في أيسر مدة وأقل زمن، بمزلة قول القائل للشيء كن فيكون، ثم استعير المشبه به للمشبه^(١).

ومثل ذلك قوله تعالى: (وَالْبَلَدُ الطُّيْبُ تَخْرُجُ ثَبَاتُهُ بِيَدِنِ رَبِّهِ وَأَلَدَىٰ خَيْثُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِيدًا) (الأعراف ٥٨) فهو مثل للقلب السليم الذي يقبل الموعظة، والقلب القاسي الفاسق ينو عن ذلك.

والأمثال السائرة كلها من قبيل الاستعارة التمثيلية، ويراعى المعنى الذي ورد فيه أولاً، فيحاطب به المفرد والمثنى وجمع مذكراً أو مؤنث من غير تعبير في العبارة، ويشبه مضمرته بمورده^(٢).

فيقال مثلاً لقوم ضيعوا الفرصة من أنفسهم ثم جاءوا يطلبونها بعد: الصَّيْفُ ضِيَعَتِ اللَّسَنُ، بناءً مكسورة لأنه في الأصل خطاب لامرأة.

شبه حال أولئك الذين ضيعوا الفرصة ثم جاءوا يطلبونها، بحال امرأة كانت متروجة بأشيب غنى، فتركته، وتزوجت بشاب فقير - وكان ذلك صيفاً - ثم

(١) ط. لاعة. نقر. في ذكر القاصي عبد الحبير ٢٠٣ وما بعدها. لمؤلف

(٢) مضرب المثل - ما استعمل فيه نخل أخيراً، ومورده: ما استعمل فيه أولاً

عادت إلى زوجها الأول زمن الشتاء تطلب منه لبناً، فحامع العودة إلى طلبه النافع بعد الانصراف عنه، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه، «استعارة تمثيلية».

ومنه «أحسبُ وسوء كيفة»؟

شبه حل من يبيع شيئاً رديئاً مع نقص في الوزن، بحال من يبيع غمراً رديئاً مع نقص في الكس، فحامع أن كلاهما تظم، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه.

ويروى أن الوليد بن يزيد لما بويع بالخلافة، بلغه توقف مروان بن محمد في سبعة، أرسل إليه الوليد يقول «أما بعد، إن أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا، فاعتمد على أيها شئت، والسلام»

وحمزة بكلام «أراك متحيراً في أمرك متردداً، فقد شئت هيئة المتردد في أمره بين لإقدام وإلحاحام هيئة رجل قام ليعمل عملاً، فتارة يعمد إليه على العمل فيعدم رجلاً، وتارة يعمد فيؤخر أخرى، فحامع التردد تارة وإلحاحام أخرى، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه.

وكتب سيد عثمان بن عفان إلى سيدنا علي بن أبي طالب - رضى الله عنهما - حين أحاط به الثائرون في داره. «أما بعد، إنه قد حاور الماء ثوراً، وبيع الجرام الطين^(١)»، وتجاوز الأمر بن قدره، وطمع في من لا يدفع عن نفسه.

والمعنى في خطاب سيدنا عثمان: أن الخطب بلغ نهايته ولأمر جاوز حده، فقد شئت الحد التي لا يمكن إصلاحه بحال الماء حاور أعين مكان، أو الحرام بلغ الطين بجامع مجاوزة الحد في كل، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه.

ومن الأمثال ماله مورد حقيقي: كمواعيد عرقوب، في قول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل

(١) الزر جمع ربة - يضم الزاي - وهي مصيدة الأسد ولا تكون إلا في رايه أو حصيه التغيير يقال لموضع الأخلاق من السباع، والجمع أطلقه وأصلها طين - يضم الظاء - ومن الصروع

ومنها الخيال الممكن: وهو ما نسب الكلام والعمل فيه إلى عاقل، كما جاء في مثل لسان أن حسيماً كان يسبح في بحر، ولم يكن بحس الساحة، فأشرف على العرق، فاستعانت برجل عابر في الطريق، فأقبل عليه وجعل يلومه على نزوله إلى البحر، فقال الصبي: «يا هذا! خلصني من الموت، ثم لئي!».

ومنها الخيال المستحيل: وهو ما جاء على ألسنة الحيوان والحياد للاعتبار به، كما فعل بصر بن مبع، وكان حارحاً على المأمون، فسير إليه حيشاً طفر به، فلما مثل بين يدي المأمون أمر بصرب عقه، فقال «يا أمير المؤمنين! أسمع مثلاً حطر على بالي؟ فقال قل: فأشأ يقول:

رغموا بن صقراً صدف مرة عصور بر مافه التقدير
تكلّم العصور تحت جناحه والصقر منقص عليه يطير
بن لمثلك لا أنعم لقمعة ولش ثوبت فيني الحفير
فتهاون الصقر المدل بضيده كرما وأقلت ذلك العصفور

والرابع: الخيال المحتلط من الممكن والمستحيل - وهو ما جمع بين لطلق وعبره - كحديث الحية ولأخوين، فقد رغموا أن أخوين هبطا بعمهما ودياً فيه حبة تخميه، وبهما كن أحدهما يرعى عمه إذ هبسه الحية فسلته فقال «حور» والله ما في الحياة خير بعده، ولأطلس الحية - فلما لقنها، وهم بقتنها قالت «لا ترى، إن قسه وندمت على ما كن مي، فهل لك في الصلح، فدعك في هذا لو دي أما، وأعطتك دنة أحك كل يوم ديناراً؟»، فصالحها على ذلك، وحلفت له وحلف لها، ومريت تعطيه حتى كثر ماله، فلما أحس المعنى قل كيف يصعب هذا العيش، وما رى قبل أحى؟! فعمد إلى فأس فأحدها ثم انتظر، فلما مرت به صرعا، فشجها، وأخطأ مفتدتها، فمطعت عنه سديراً، وتوعدته، فحارب شرها، وقد هل لك أن تتعمد على مودة كما؟، فقلب لا، لأسك كله بطرت إلى قبر أحيك وجدت على، وكلما ذكرت الشجة التي في رأسي وجدت عليك^(١)

(١) لز - بين شعراء ٨٢

وفي القرآن الكريم أمثال كثيرة لها مورد تصويرية مثل قوله تعالى (يَا عَرُضُ
الْأَمَانَةِ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا، رَافِعَتْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب ٧٢). فإنه لم يحصل عرض ولا إبقاء
ولا إسقاط، وإنما المراد تصوير التكليف وما فيها من المشقة، وتصوير الإنسان
وما يغلب عليه من الغرور والجهل بحقائق الأشياء.

وكذلك قوله: (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ سُبُحَ الرَّسُولُ وَتَجْعَلُونَهُ
نَدَاءً، ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ) وحمل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقوامها
في أربعة أيام سواء تسامعوا أم امتنعوا إلى شيء، وهي ذهاب قواها وللأرض
ثوب طوعاً أو كرهاً قل ثوب طوعاً (قصص ٩ - ١١)، فإِنَّ الْعَرْضَ تصوير قدرة
الله ومه من السلطان لمطلق في الأرض والسماء.

وقوله (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) (الإسراء ٤٦)
وقوله (يَا حَبِيبُ أَطِيعُوا أَمْرًا لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَى الْأَذْوَادِ فَهُمْ مُقْتَضُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِمْ سَدًّا وَمَنْ حَمَلَهُمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) (يس ٨، ٩)
فهؤلاء لإعراضهم عن الدين، وصرارهم على المحالفة لما جاء به الرسول، وبلوغ
الغاية في الصد والتكوص، ممثلون بحال من جعل على قلبه كنان فهو لا يفقه
ما يقال له، ولا يرفعوى لقوله، ويحال من ضرب بينه وبين مراده سد من بين
يديه ومن خلفه، فهو لا يبتدى إلى، ولا يمكنه الوصول إلى بغيته بحال.

«التمثيل» تسمية لقديمة.

التمثيل «الاستعارة التمثيلية» كان معروفاً عند العرب، وكثيراً ما ذكر في
القرآن الكريم، والسنة الشريفة، والشعر، إلا أن التسمية الاصطلاحية تلك
لم تظهر إلا على يد: قدامة بن جعفر وت ٣٣٧ هـ، وابن المعتز وت ٢٩٦ هـ
وإن مثل له فقد أدرجه تحت اسم «التشبيه»

ويرى الدكتور إبراهيم سلامة أن «التمثيل» بهذه التسمية التي سماها قدامة

يوحنا منقول. وأتى بما يشبه ذلك منصوص أرسطو^(١).

ويذكره بوي في التمثيل أنه برز لمعنى أو الفكرة للعيان، فالشاعر يريد أن يشير
إلى معنى فيضع كلاماً يدل على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر، والكلام يستلزم
أريد أن يشير إليه، مثال ذلك قول الرماح بن ميادة:

أَلَمْ تَكُنْ فِي يَمِينِي يَدِيكَ جَعَلْتَنِي فَلَا تَحْمِلْنِي بَعْدَهَا فِي شَيْئَا لَكَ
فَعَدَلُ عَنْ أَنْ يَقُولَ فِي الْبَيْتِ: إِنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ مَقْدَمًا فَلَا يُؤْخِرُهُ، أَوْ مَقْرَبًا
فَلَا سَعْدَ، أَوْ عَسَى فَلَا يَجْنِيهِ، إِلَى أَنْ قَالَ: بِهِ كُنْ فِي يَمِينِي يَدِيهِ فَلَا يَجْعَلُهُ
اليسرى، ذهاباً نحو الأمر الذي قصد الإشارة إليه بلفظ ومعنى مجريان مجرى المثل
له، وقصد الإغراب في الدلالة، والإبداع في المقالة.

ومنه قول يزيد بن مالك العامدي:

فِي خَسَحُوا مِنَّا زَارُنَا فَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا بِزَارِ الْأَسَدِ خَسَحَ الثَّعَالِبُ^(٢)
فقد أشار إلى قوتهم وضعف أعدائهم إشارة مستغربة لها من الموقع بالتمثيل ما لم
يكن لو ذكر الشيء إليه بلفظه^(٣).

وتلا العلماء قدامة في ذلك حتى أتى عبد الفاهر معقب عليهم بما لا مزيد عليه.

بلاغة الاستعارة

عرفنا أن التشبيه تقوم بلاغته من حيث اللفظ على توكيده وحذف بعض
أركانه، وأن أعلاه رتبة ما حذف منه الأداة والوجه. والاستعارة تبدأ حيث ينتهي
التشبيه، إذ مبناها عليه، وتقوم على تناسيه وادعاء أن المشبه هو المشبه به نفسه،
وكلمها أوعداً في هذا التامى كثرت بلاغة الاستعارة، ولهذا كانت المرشحة أعلى

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٢١٩

(٢) نقد الشعر ١٨٢ - ١٨٤

(٣) صبح الثعالب صوره

طبقة، وتليها المطلقة، ثم المجردة، وما ذلك إلا لأن المرشحة يذكر فيها ما يلائم المشه به.

وبذا كان تشبيه أكثر ما يستعمل يكون لبس المعنى وإصباح المفكرة، فإن الاستعارة أكثر ما تكون، تستعمل في القوة وشدة التأثير في السامعين.

• وتأثير الاستعارة في المعطوف والمعوس يعتمد - كالرسم والتصوير - على الخيال وعرض الصور والصفات والأعمال عرضاً حسب محسوس، ليرى القارئ في المعطوف من الألوان والمعنى ما يراه إذا هو نظر إلى رسم أو نص في تمثيل

وذلك أن اللغة هي وصفت في الأصل لتعبر عن الحقائق والمائل للعفة، وإذا ما أراد المتكلم تجدهم لأداء ما في نفسه من الامتدادات شعر بأنها دون ما في بطنه من قوة المعطوف وحرارة شعوره، ولذا لم يأت في حدة قصور وعجز عن ملاحظة بعض المشاعر الإنسانية، لذلك يحاول اصطناع لغة أخرى تسمو إلى مستوى بصره الشائنة، وتستطيع تصوير ما فيها من أثر لقوة لوجدانية فليجأ إلى الخيال وإلى الصورة التي تجسم المعنى، وتنقلها إلى درجة أرقى لتزاد حملاً

والتصوير يندرج في مظاهر متعددة بوسائل مختلفة، وقد توحد هذه المظاهر كلها تحت مسمى في نص واحد وقد نجد بعضها متفرقة في نصوص متعددة^(١).

وأول مظهر للتصوير: إخراج اللفظ من دائرة المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة والتمثيلية.

والمظهر الثاني: تحويل الصورة من شكل صامت إلى منظر متحرك حي. والمظهر الثالث: تصحيح هذا المنظر وتحسينه حينما يكون الخوف والمشهد يقتضيان ذلك.

ومن الوسائل إلى تحقيق هذه المظاهر الاستعارة.

يصور الله تعالى حالة المتكبرين المستعجلين على الحق وللكافرين الخاسرين عن

(١) مباحث في إعجاز القرآن ١٨٠

الصرط السوي، فيقول (إنا جعلنا في أعينهم أغلاً ما فهم إلى الأذان فهم متفخمون، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيهم فهم لا يبصرون) (يس ٨، ٩).

فقد صور القرآن الكريم من لم ينفع معه المنطق ولم تؤثر فيه الدلائل والحجج، وظل عاكفاً على الغي والضلال، بإنسان التف حول عتقه على عريض مرتفع إلى الدق حتى جعل رأسه صاعداً إلى الأعلى لا يتحرك، ثم هو وقف في مكانه قد سد عليه سحرون علية مرتفعة، وقد غشى الظلام على بصره، فهو لا يملك حراكاً - عن طريقة الاستعارة التمثيلية -

ويأمر الحق تبارك وتعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - إذا التقى بمعجم الكافرين أن يشتد في قتالهم حتى تلحقهم الهزيمة ويدخل في قلوبهم الرعب، فيقول تعالى: (إِنَّمَا تَتَفَكَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلَقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ) (الأنفال ٥٧).

فبصور الله تعالى اللقاء بين المسلمين وأعدائهم في صورة من ظل يترصد شيء حتى طهر به وقع عليه، وعبر عن ذلك بقوله «تتفكهم» وهذه الكلمة تحمل في صياغتها لفظية من عناصر السكبات والحركات والشدة واجذب والذي يكون من نتيجة الطفر بهم - على طريقة الاستعارة التمثيلية.

ثم يصور الله تعالى إلحاق الهزيمة بهم في صورة جند أشداء انقضوا في هجوم قوى على طلائع الأعداء، فيأخذ الرعب والفرع منهم كل مأخذ، حتى يسرى ذلك منهم إلى من خلفهم من المجموع فيفروا في كل جهة قبل أن يصلوا إليه - عن طريقة الاستعارة التمثيلية -

فتأمن كيف صاغ القرآن الكريم هذه الصورة التي استعرت استعارة في بضع كلمات مع ما اشتملت عليه من حركة في الهجوم، وكأن السامع يرى مطراً حياً في فلاة واسعة.

• والاستعارة قد تجسم الأشياء المعنوية، وتعرضها في صور مرئية ملموسة، فتكون لها الأثر اللطيف، والوقع اللطيف

تأمل قوله تعالى في ميث اسرائيل (صُرْتُ عَلَيْهِمُ الدُّلَّةُ أَيُّهَا تُفْقُو، إِلَّا سَحُلُ
مِنَ اللَّهِ وَحُشٌّ مِّنَ سَسٍّ، وَبَاءُوا بِعَصَبٍ مِّنَ اللَّهِ، وَصُرْتُ عَلَيْهِمُ السَّكَنَةَ)
(آل عمران ١١٢).

فقد صورت الدلة والمسكنة محيطه بهم من كل جانب كإحاطة الخيمة بمن
تُضْرَبُ عليه، فهذه الصورة المعنوية قد جسمت في صورة محسوسة تراها العين،
وهذا يؤكد المعنى ويقرره في الأذهان.

ومثل هذا التجسيم تراه في الاستعارة المكينة في قوله تعالى: (فلما ذهب عن
إبراهيمَ الروحُ وجاءتهُ البشريُّ يُجادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) (هود ٧٤).

الروح والبشري من الأمور المعنوية، لكن كلا منها صُوِّرَ وكأنه حي يتحرك
يلذهب ويحيى.

ومن هذا قول الشاعر:

وَذِي رَجَمٍ قَلْتُ أَطْفَارَ نَحْيِهِ بِحُلْمٍ عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ جِلْمٌ

فهذا الضغن - وهو أمر معنوي - صار حيواناً شرساً شديد الأظفار، يقابله
مَنْ فيقلم أظفاره ليأمن شره، فلاستعارة جعلت المعنوي صورة مجسمة تشاهد
بالحاسة مع التلاؤم بين المعنى الحقيقي والصورة التي يرمز بها الشاعر إليه.

وقد تُلَبِّسَ الحماذ صورة الأحياء من بني البشر، وتضفى عليهم عوطفهم
ومشاعرهم، كقوله تعالى (وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لُفُوحًا) (الحجر ٢٢)، فقد حدثت
الاستعارة على الرياح صفات الأحياء من بني الإنسان التي من صفاتها التلقيح
والترنس.

ومنه قول سوار بن المضرب يصف الريح اللطيفة، فيقول:

مُرْضٌ تُرْوِقُ لِلرِّيحِ فِيهَا نَيْيْمٌ لَا يَرْوُعُ التُّرْبُ وَإِنْ^(١)

فالشاعر يعبر عن لطف الريح بأنها لا تثير التراب، ولكن التراب ليس قرات

حاملة تحملها الريح، وإنما هو إنسان قد أغفى هائلاً لا يحس بما يروعه ويخفه.

كذلك الاستعارة تبعث في النفس من التأثير أضعاف ما يبعثه التعبير المجرد.

تأمل قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ عَذَابٌ بِهِمْ وَيُشِىءُ الْمَصِيرُ، إِذَا الْفُؤَا
فِيهَا سَمِعُواَهَا شَيْهًا وَهِيَ تَمُورُ. تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْعَيْظِ كُلُّهُ الْيَقَى فِيهَا قَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ
خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ مَذِينٌ) (الملك ٦، ٨).

حقيقة «الشهيق» الصوت المطيع، وهما لمطنان، والشهيق لمظة واحدة، فهو
أوجز على ما فيه من زيادة البيان.

و«تميز» حقيقة الكلام: تشق من عبر ناس، والاستعارة أبلغ، لأن التميز في
الشيء هو أن يكون كل نوع منه مبدأ لغيره، وهو أبلغ من الاشتقاق لأن الاشتقاق
قد يحصل في الشيء من غير تباین.

و«لعيط» حقيقة الكلام: شدة العليان، وإنما ذكر «العيط» لأن مقدار شدته على
النفس مدرك محسوس، ولأن الانتقام منا يقع على قدره.

ففيه بيان عجيب، وزجر شديد، لا تقوم مقامه الحقيقة البتة^(٢).

فلاستعارات تصدفرت في رسم نار جهنم وإبرازها في صورة تشغل لها القلوب
من المرع والخوف، صورة محبوق صحم بطاش حار عاس الوجه يعلى صدره من
قوة العيط، وشدة الحقد، وكل ذلك يبعث في النفس من التأثير ما لا يبعثه التعبير
المجرد.

وأسلوب الاستعارة في هذا التصور المعجز في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَغَدَا
عَلَيْهِ حَقُُّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِعَهْدِي إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُؤْمَرُ) (التوبة ١١١)، هذا التصوير هو
الذي جعل أحد الصحابة يرفع صوته قائلاً: ربح البيع، لا تقبل ولا نستقبل، ثم

ينحوض المعركة غير هباب ولا وجل لتحقيق ما نحمله الآية من وعد كريم^(١)

ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه فاشترى أنفس المؤمنين وأموالهم من الله مؤكداً، والثنى مؤكداً - لصيان تحفته لهم، حيث قال: (بأن لهم الجنة) ولم يقل بالجنة، مبالغة في تقرير وصول النعم إليهم واحتصاصه بهم، كأنه قيل: بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم، ثم زاد في التأكيد بقوله - وعداً عليه حقاً - وهو مصدر مؤكد يدل على كون الثمن مؤجلاً، وهذا الوعد ثابت في التوراة والإنجيل والفرآن، وقوله: (ومن أوفى بعهده من الله) - اعتراض يقرر مصمون ما قبلها، فأنه أوفى بالوعد من كل واف، ثم يختم الآية بما يؤكد أقصى درجات الفوز والفلاح، ثم ما في ذلك من معنى البعد، إشارة إلى بعد منزلة المشار إليه وسمو رتبته في الكمال، وضمير الفصل «هو» من مؤكدات الجملة.

فلا عجب بعد ذلك إذا سمعنا هذا الصالح يقول: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل.

وكذلك قوله تعالى (وقى عاد إذ أرسل عليهم الرياح لعقيم ما تنزل من شيء أنت عليه إلا حصة كآرميم) (الدريبت ٤١، ٤٢)، مرد علماً أن العرب كانوا مولعين بالأولاد يعتزون بهم، ويتفاخرون بكثرتهم، فكان من أبغض الأشياء عندهم عقم المرأة، لما فيه من حرمانهم من أعز أمانيتهم، وزينة حياتهم، والاستعارة تصور تلك الرياح التي أتت بالهلاك بتلك الصورة الممرة لتي تؤثر في نفس، وتحز في القلب، وفيها من الإيجاز والمبالغة ما لا يحصى.

ومثله قول الخطيب يستعطف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما سجنه بسبب هجائه للزبير بن بدر بقوله:

دع المكارم لا ترحل لثغيتها وأقمذ فيث أنت الطاعم الكاسي
وكان الخطيب قد خلف وراءه أطفالاً بوطه - ذى مرخ - قرب المدينة، فقال وهو في سجنه:

ماذا تقول لأفراح بدي مرخ رغب الحواصل لائنة ولا شجر
ألفيت كاسهم في فقر مطلق فاعفر عليك سلام الله يا عمر

معبّر عن الأولاد الصغار - «أفراح» عن سبيل الاستعارة، وصور أطماله طيراً صغاراً صغاراً لما ترش، وقد حُس كدلها الذي يسعى ليقونها، فهي مُسَلِّمة إلى الجوع والموت.

هذا التصوير يؤثر في نفس الخيفة ويشير رحمة، بل يجعله كأنه الحاي عليها إذا هو لم يطق كاسها، ولو أنه سلك سبيل الحقيقة وقال: تركت أولادى صغاراً صغاراً بلا مطعم ولا حائل لأطال ولم يبلغ من التأثير ما بلغه التصوير بالاستعارة.

فجاءها أن من أنها تصور المعنى للسامع تصويراً مؤثراً في النفس فيقر في الأدهان مع الإيجاز والمبالغة المقولة، سبب تناسي الشيء، وما يشع ذلك من تصوير المشبه بصورة المشبه به.

ولو عبر الشاعر في هذا المقام بلفظ أسأل بدلاً من أفراح لم يصور ما أراد من صعب أبنائه، ولم يحقق ما قصده من استعطاف.

وقد درج كثير من العلماء على عد هذا البيت من الاستعارة في المفرد - كما صورنا - لكن السياق - كما يظهر - يقتضي أن يكون التركيب كله من قبل الاستعارة التمثيلية، فالشاعر يصور أولاده الصغار وقد رح عنهم في السحر وهم في أشد الحاجة إليه، بصغار الطيور حين يلقى أبوه في قاع حفرة مظلمة، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه.

ومن الاستعارة العائقة قوله تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) (البقرة ٢، ٣)

فقد شبه الأداء الكامل للصلاة بتقويم العود، بجامع التمام، والقرينة لفظ «الصلاة»

وتجوز أن يكون في الصلاة استعارة بالكناية، بتشبيه الصلاة بالعود ثم حذف

(١) انظر - الكشف ج ٢٤٥، البرهان ج ٢١٩، تفسير أبو السعود ج ٢٩٤/٢

المشبه به ورمز إليه شيء من لوازمه.

ويحوز أن يكون الكلام كله استعارة تمثيلية، بتشبيه هيئة المتعم لصلاته هيئة المقوم للعود سجام التعهد في كل.

ويحوز أن يكون الكلام كناية عن الاجتهاد في العمل.

وهناك صيغتان لهذه المادة

أولها : قام - اللازم - وما اشتق منها، ويكثر استعمالها فيما كان ضد القعود، أو مجرد مباشرة الإتيان ونسبته إلى فاعله، أو بمعنى القرار والإقامة.

ثانيها : أقام - المتعدي - وما اشتق منها، وهذه يكثر استعمالها فيما كان بمعنى التعديل والدوام.

والصيغتان وإن استعملت كل منها في مقام الأخرى في اللغة إلا أن الحسن لفرق بينهما.

فالأولى : استعمالها القرآن في المواضع الآتية :

وفي مسجد الضرار ومسجد قباء (لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا، كَسَجَدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ إِحَقُّ أَنْ تُقَامَ فِيهِ) (التوبة ١٠٨).

وفي قوله تعالى في صلاة الليل (فَمِ الْمَلِ (المرمل)، رُبُّكَ يَتَمَسَّكَكَ يَوْمَ أَذَى مِنْ تُثْنَى لَيْلٍ وَضَعَتْهُ) (ارمل ٢٠)، (وتوَكَّلْ عَلَى الرَّحِيمِ، الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) (الشعراء ١١٧، ١١٨).

والمقام في هذه الآيات لا يتطلب الإقامة - بمعنى الأداء التام الكامل، بل مطلق تحقق واحد الشيء، وهو عن القيم في مسجد الضرار هو أدنى ما يحققه أداء الصلاة - مجاز مرسل - أما مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد جاءت الصيغة فيه على سبيل المقابلة، وليس المقام ليبان أكمل الصلوات

أما الصيغة الثانية : فقد ورد استعمال القرآن الكريم لها في المواضع التالية :

(فَسَبِّحْهُ صُلاَةً) (برم ٢٠) (وَيُتِمُّونَ الصَّلَاةَ) (نوحه ٧١)، (وَقَامُوا الصَّلَاةَ)

(البقرة ٢٢٧)، (حَتَّى يقيموا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ) (المائدة ٦٨)، (بَلْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (الشورى ١٣) وغيرها.

ففي آيات الصلاة قصد منها إقامتها وتسويتها حيث وقعت وصفًا للمؤمنين، ومعنى إقامة التوراة والإنجيل والدين؟ العلم والعمل بما فيها من التعاليم. فالمقام ليس لعلاقة الجزئية وإنما للمشابهة التي تتسع لبيان معنى التمام والكمال في الأداء - أو المكنية التي يذهب الشبه فيها إلى قياس الصلاة بالعود - أو التمثيل التي تكون المألغة فيها عن طريق الهيئة والصورة - أو الكناية التي تكون المبالغة فيها عن طريق اللزوم.

وهكذا تأت الصورة المجازية في الآية على حالة لا طاقة للحقيقة بإخراجها عليها، فأين هذا البيان من التعبير بالكلمة الحقيقية : «ويتنمون أركانها»^(١).

ببلاغة لاستعارة إنما تكون بما فيها من إيحاءات، وثرات هبة بحمها النمط، وما يطوى تحته من انفعالات، ويصور من أحاسيس، وتلك الروح التي يشها الأديب هي التي تمنحه الحيوية ولقوة.

وإيحاء لأعاط ووقعها النفسي في مثل تلك لصوص هو ما سبها انقدماء بالمعاني

اثانية.

يقول عبد القاهر في مزية الاستعارة :

«ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدًا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا، تُوحى له بعد الفضل فصلا».

ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان ماقها، أنها تعطيث الكثير من المعنى بأيسر من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، ونحى من لعص لوحيد أنواعا من الثمر، ود تأملت قسم بصعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة، ومعها يستحق وصف البراعة، صادفتها نجوًا هي بذورها

(١) انظر «المجاز والإعجاز» رسالة دكتوراه مخطوطة بكنية اللوامس الإسلامية وضعية - فرع اللغة

وانك لتري بها الجهاد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الحرم مبية،
والمعاني الحقبة بادية جدية

إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى
رأيتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسدية حتى تعود روحانية لا تنالها
إلا الطنون^(١).

هذا والاستعارة بأنواعها أبغ من المجاز المرسل، لأن علاقتها المشابهة، ومباها
على دعوى الاتحاد - لفظاً ومعنى - لقيامها على إدخال المشبه في جس المشبه به،
وجعله فرداً من أفراد.

أما المجاز المرسل، فإن فيه دعوى الاتحاد في اللفظ فقط وذلك كإطلاق
«الأصابع» - مثلاً - على «الأنامل» في قوله تعالى: (يجعلون أصابعهم في
أذانهم).

أما للاتحاد في المعنى فغير متحقق - في المجاز المرسل - إذ ليس بين «أصابع»
و«الأنامل» تشابه حتى يمكن ادعاء اتحادهم.

وإذا كانت الاستعارة بأنواعها أبغ من المجاز المرسل، فإن أنواع الاستعارة
دائمًا تتعدت في الأهمية. فأبلغ أنواعها: الاستعارة التمثيلية، لأنها مبنية على أبلغ
أنوع تشبيه، ألا وهو كقول في حديث أسير من أمور متعددة ولشأن فيها كثرة
الاعتبارات وكثرة الملاحظات، التي تستدعي دقة النظر ولطف الروية، يليها في
الأهمية: الاستعارة بالكسبية، لأن قريتها إثبات لازم المشبه به للمشبه، ولاشتباه
على إيجاز العقل الذي هو قريتها.

أما التصريحية فهي بعد المكبة في الألفنية، وهي تتفاوت أيضاً، فابلغها
الموشحة، ثم المطفقة ثم المجردة.

طابع التصوير في الجاهلية

طابع العام الذي يثب في تصوير أهل الجاهلية هو الطابع الدوي، فأساليب
التشبيه والاستعارة مستمدة من الناقة والجمال، والرحى والجلل، والوحش
ولعرلان، ولصحور، والطاء، وغير ذلك مما شاع في الوسط الدوي، المتزع من
حياتهم، وهذا يفصح عن تكوينهم النفسي، وميلهم وتقديسهم لوطنهم، وحبهم
لمجتمعهم وارتباطهم به..

وقد أكثر الشعراء في تصويرهم وأحببتهم من طواهر الطبيعة التي تتصل بالشدة
وبرهة ولقدرة، فاستمدوا من الرحي والدار والوحش وليل، وأهلوا كثيراً من
مظاهر طبيعة لئى فيها رقة ولطف، كالصحن وشروق ولأصل، ومن ثم هي
توحى بالعنف والألم والكفاح أكثر مما توحى بالروقة واللين.

يقول رهبر^(١) في الصلح بين عس وديان في معلقته التي دعا فيها إلى السلم،
وذم فيها الحرب، وأظهر مساوئها:

- ١ - وما آخرت إلا ما علمتم ودقتم
 - ٢ متى نعثوها نعثوها دمية
 - ٣ فتعرككم عرك الرحي نفعها
 - ٤ - فتشخ لكم عمن أشم كهم
 - ٥ فتغلن لكم ما لا تغل لأهها
 - ٦ رغو طماهم حتى إذا تم أوردوا
 - ٧ فقصوا ما يابئهم ثم أضمدوا
- وما هو عما بالحديث المرحم
وتصر إذا ضريرتموها فتصرم
وتنفخ كشفاً، ثم تنفخ فتشم
كأحر عاذ، ثم ترضع فتفطم
قرى بالعراق من قبيز ودرهم
غماراً تقرى بالسلاح وبالدّم
إلى كلاً مستوبل متوخم

اللغة :

١ - الذوق : التجربة ، الحديث المرجم : الذى يحكم فيه بالظن - والمعنى : ليست الحرب إلا ما علمتموها ومارستم كراهتها ، وهذا ما شهدت عليه الشواهد الصادقة من التجارب .

٢ - ضَرَبَ الكلب بالصيد - بالكسر - ضَرَاوَةً - بالفتح - أى تعوّد ، والمراد هنا : شدة هيجان النار وسعارها ، وضربت النار : التهمت - والمعنى : إذا أوقدت الحرب ذمتهم ، ومتى هيجتموها هاجت .

٣ - ثعلب الرعى : خرقه تبسط تحتها ليقع عليها الطحين ، والباء بمعنى « مع » والفتح وينفتح من الرد ، انكشف أن تلقح لاقة مرة كل سنة ، وهو أردأ التاج ، وأحسنه أن تلد سنة وتستريح سنة ، أنتجت الناقة وتنجت : إذا ولدت ، « إلتام » : أن تلد الأنثى توأمين ، العرك : الدلك والطحن .

المعنى : تطحنكم الحرب طحن الرعى الحبوب مع ثقلها ، وصنوف الشر التى تتوالد منها كثيرة بمنزلة أولاد النوق التى تلد كل سنة توأمين .

٤ - الشؤم : ضد اليمين ، وأمر عاد : المراد به عاقر ناقة ثمود وهو قدار بن سالف ، وهو المشار إليه في قوله تعالى : (كذبت ثمود بطغواها ، إذ أنبعث أنشأها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) (الشمس ١١-١٣) ويقال لثمود : عاد لأحره لقوله تعالى (وانه أهلكت عاداً الأولى ، وثمود بما أبقى) (الحن ٥٠) .

والمعنى : أبناؤكم الذين يولدون في أثناء تلك الحروب كل منهم يضاهى في الشؤم عاقر الناقة ، وستكون ولادتهم ونشأتهم في الحروب فيكونون مشائيم على آبائهم .

٥ - أغلت الأرض : إذا كان لها غلة وثمره ، والحرب لا تغل ، وإنما هو تهكم واستهزاء لثبوت الحرب - المعنى أن المصار المتوالدة عن الحرب دماء وقتل ، وليست تغل لكم مثل ما تغل قرى العراق .

٦ - الرعى : من رعت الماشية الكلاء ، الظُّمأ : الاسم من « لطمأ » وهو العطش ، العمار : جمع غمر وهو الماء الكثير . الثمري : التشقق والمعنى أنهم

كفوا عن القتال ، وأقلعوا عن الرمال مدة معلومة ثم عادوا إلى الحرب كما ترى الإيل مدة معلومة ثم ترد الماء بعد الرعى ، لكنها لم تجد إلا الماء الذى يسيل بالرماح والدماء .

٧ - قصوا منيا بينهم : أى قتل كل واحد من الحيين صفا من الآخر ، فكانهم تموا منايا قتلاهم ، أصدرت ، ضِدَّ أَوْدَعَتْ ، الويل والوخيم : الذى لا يستمر .

المعنى : هم في اعتزامهم على الحرب ثانية بمنزلة الإيل التى ترى كلاً ويلاً لا يستلد .

البلاغة :

لجأ الشاعر في تصوير هذه الحرب ، وإشاعة الكراهية فيها إلى عدة تشبيهات واستعارات ، وكلها تحتج إلى تأمل شديد حتى نتذوقها ، ونحس مبلغ الجهد ولصعة التألى الذى بدله رهبر ، وهذا يحسب أكثر إدراكه ، فانه القدماء من أنه كان يحكى في عمل الفصيحة حولاً كاملاً ، ومن هنا أخذ من هيب الشعر .

١ - فلكى يحثهم على التمسك بالصلح ، وينبئهم بسوء عاقبة الحرب استعار لتحرمتهم ها ومعرفتهم بكوارنها لمط و لإدافة إشعاراً بشدة مهالكها ، وكثرة إصابتها وهى استعارة حث محمى الحفائق لشيوخها في لئلا والشدائد - هكذا قل عبا الرعشرى في قوله تعالى (فادأقها الله لباس الجوع والخوف) (النحل ١١٢)

٢ - ثم استعار في البيت الثانى لشدة إصابتها وقوة ضراوتها النار التى يقوى ضرارها ، وكلها حرصوا على إشغالها التهيبت نارها فأنت على الحرث والنسل .

٣ - حمل زهير هذا فاتحة لتصوير أكثر عمقاً وأبعد خيالاً - فقد جعل إفاء الحرب لهم بالعرك والدلك ، ثم شبه هذا الفناء الكامل والدمار التام بطحن الرعى للنحب ، وفى « بثقالها » ما يجعل الرعى وكأنها في حالة استعداد تام واستنفار كامل للعمل ، ومع ما في هذا التشبيه دلالة على بساطة البيئة ، فإن فيه من مظاهر القوة والعنف ما ياسب الحرب ، ولا يقنى في هذا الموضوع لفظ آخر ، إذ في لفظ « الرعى » والطحن من تحويل الحب إلى ذرات صغيرة ما يلائم الدمار في الحرب .

ثم إن في هذه الحرب صومًا من الشر تتوالد عنها فهي لذلك بمنزلة الوق التي تلد كل سنة وليست تلد ولداً واحداً وإنما تلد توأمًا، وهو مثل لكثرة الشرور والأناث التي تتولد عن الحرب - وقد وضع الشاعر ذلك عن طريق الاستعارة التمثيلية.

٤ - صور الشاعر ما يولد من الأبناء في ظل تلك الحروب بأن كل واحد منهم يضاهي في الشؤم عقر ناقة ثمود وسيكونون موسومين بالشؤم على الأباء حيث إن ولادتهم ونشأتهم في خلال لعب الحروب.

٥ - صور الشاعر نتائج الحرب عن طريقة التهكم بهم بالغلة، فهي غلة، لكن فيها الموت وهلاك، فقد جعل التثنية المتولدة عن هذه الحرب والمصار الكثيرة من دماء وقتل معركة العلة «استعارة نهكية» لكن لا تكون كلمة قرى أهل العراق المريحة.

٥ - وفي البيت الأخير نجد استعارة تمثيلية أكثر طرافة ودقة، حيث شبه كف القوم عن القتال وإقلاهم عن النزول مدة معلومة، ثم عودتهم إلى الحرب مرة ثانية، بالإبل التي ترعى مدة ثم ترد الماء بعد الرعى، لكنها عند الورود لم تجد إلا الماء الذي يسيل بالرماح ولدما، وعندما ترعى لا ترعى إلا الكلال الوخيم الويل.

فترى في أبيات زهير كيف ازدهت الاستعارات واختفت التشبيهات، وقد استعمل فيها بالكثير من عناصر البيئة من «لرحى والبار والوق والكلأ والرعى والغلة والإيراد والإصدار»، انتزع كل ذلك من صميم مجتمعه وأحوال عصره، واختلط ذلك بنفسه وخياله، فتولد عن ذلك ما نرى من صنعة مطبوعة، وسك محوّد، وكذلك كانت الصور في العصر الجاهل، يقول ابن طباطبا: (١)

«واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها، ومرت به تجاربها، وهم أهل وبرء صحرائهم الوادئ، وسقوفهم السماء، فليست تعدوا أوصافهم ما رأوه منها وفيها. - فتصنعت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها...»

(١) عيار الشعر ص ١٠

الاستعارة العامة والخاصة

علمنا أن التشبيه ليس على درجة واحدة من الفصل والمرة، فمنه النازل المايظ والقريب المبتذل، كتشبيه الشجاع بالأسد، والمرأة بالبدر، ومنه البعيد الغريب. كذلك الاستعارة تتفاوت تفاوتاً شديداً، إذ هي تنبثق على التشبيه، وتعتمد عليه، وتعدّ لذلك فهي إما عامة، أو خاصة.

فالعامة: هي كل استعارة يكون الجامع فيها بين الطرفين واضحاً بحيث تفهمه العامة، كاستعارة الأسد للرحل الشجاع، وسدر لمرأة، والصبران للسرعة، والانقضاض لهجوم الفرس، والساحة لعدوه، فالجامع في كل ذلك داخل في مفهوم الطرفين وقريب تفهمه العامة من الناس.

والخاصة: هي التي لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة، وعندنا تبليغ الاستعارة غاية شرفها، ولا يبصرها إلا ذو الأذهان الصافية، والطباع السليمة، والنفوس المستعدة التي أوتيت الحكمة وفصل الخطاب.

ومن هذا قوله تعالى حكاية عن زكريا - عليه السلام - : (قَالَ رَبُّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) (مريم ٤)

أصل الاشتعال في النار، وهو في هذا الموضع أبلغ، وحقيقة الكلام كثرة تشيب، إلا أن الكثرة لما كانت تزايد تزايداً سريعاً صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال النار.

واستعارة «الاشتعال» إلى كثرة الشيب هي الاستعارة القريبة العامة، ولكن انصم إلى تلك الاستعارة تصرف آخر، فانتقلت بسببه الاستعارة من القرب إلى البعد، ومن الابتذال إلى الغرابة، وذلك بأن أسند الاشتعال إلى محله - وهو الرأس - فأشعر بأن الاشتعال قد عم المحل، وكل جزء من الرأس مشتعل لاشتعال ما فيه

ولو أنه قال : اشتعل الشيب في الرأس، أو شيب الرأس، لبقيت الاستعارة على قرنها وإبتدائها، ولكن تُصَرَّف فيها بهذا الإسناد الذي أكسبها بُعدًا وغرابة.

وقد فطن عبد القاهر إلى أبلغية تلك الاستعارة وأفضيتها على غيرها لهذا السبب فقال^(١) : إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته

ومن دقيق ذلك وخفية أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبًا) لم يزدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجبًا سواها، هكذا ترى الأمر في طاهر كلامهم.

وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على المعوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة، ولكن لأن يُسَكَّ بالكلام طريق ما يُسَدُّ لعمل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سبه، فيرفع به ما يُسَدُّ إليه ويؤن بالذي لفعل له في المعنى مصوَّبًا بعده، ميبًا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كانا من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من لاتصال والملابسة، وذلك أنا نعلم أن (اشتعل) للشيب في المعنى وإن كان هو للرأس في اللفظ.

يُبين أن الشرف كان لأن سُكِّت به هذا المسك، وتَوَحَّجَ به هذا المذهب أن يدع هذا لطريق فيه وتأخذ لفظ فتسده إلى الشيب صريحًا، فتقول شتعل شيب لرأس أو الشيب في الرأس، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك المحاماة، وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟

فإن قلت : فما السبب في أن كان «اشتعل» إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل؟ ولم يأن بالمزية من الوجه الآخر هذه البينة؟

فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذ من نواحيه، وأنه قد استقر به، وعم جلته، حتى لم يبق

من السواد شيء أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به، وهذا ما لا يكون إذا قيل : اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس، بل لا يوجب اللفظ حيثد أكثر من ظهوره فيه على الجملة.

ووزان هذا أنك تقول : اشتعل البيت نازًا، فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه، وأخذت في طرفيه ووسطه، وتقول شتعلت النار في البيت، فلا يقيد ذلك بل لا يقصى أكثر من وقوعها فيه وإصابتها جانبًا منه، فأما الشمول وأن تكون قد استولت على البيت وأبترته فلا يحفل من اللفظ البتة.

ومثل هذه الاستعارة في الحسن وعلو الطبقة، قول كثير عزة :

وَدُ قَصْبًا مِنْ بِي كُلِّ حَاخَةٍ وَمَسَحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ فَاسِحٌ
وَشُدَّتْ إِلَى دُغَمِ الْمَهَارَى رَحَائِنَا فَلَمْ يَنْظُرِ الْعَادِي الَّذِي هُوَ رَائِعٌ
أَحَدُنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمُطَيِّ الْأَبَاطِحِ^(١)

وقال ابن قتيبة^(٢) في بيان أضرب الشعر : وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أتت منتته لم تجد هناك طائلا، ومثل بتلك الأبيات، وتابعه في ذلك قدامة بن جعفر^(٣)، وأبو هلال العسكري^(٤).

والحق أن ابن قتيبة لم يحسن تحليل هذه الأبيات فمسحها مسحًا شنيعًا وذهب بأصل حمها الذي تراءى منه شيء في الألفاظ وعمل عن باقيه، وتلك حقيقة التي غفل عنها ابن قتيبة أدركها عبد القاهر، فقال^(٥) : «وأول ما يتلقاتك من محاسن هذا

(١) دعهم : جمع اجمع وهو الأسود المهاري الإبل مة إلى حمرة من عرب اليمن، وكان لا يعلها شيء في السرعة لم ينظر : لم ينظر منا الساترون في العدة سائرين في الرواح للاستبدال. الأباح : جمع إباح وهو مثل الماء فيه تعاقب الحصى

(٢) الشعر والشعراء ج ١/٦٤

(٣) نقد الشعر ٢٢

(٤) الصنعين ٢٢

(٥) الأسرار ١٦، وقد أشاد بتلك الأبيات قبل عبد القاهر ابن جني وانظر الخصائص ج ١/٢٢٨

الشعر أنه قال : ولما قضينا من مى كل حاجة ، فعر عن قضاء المناسك باجمعها والخروج من فروضها وستنها من طريق أمكنه أن يقصر عنه اللفظ وهو طريقة العموم .

ثم نبه بقوله : «ومسح بالأركان من هو ماسح» على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر .

ثم قال : «أحدنا بأطراف الأحاديث يسا» فوصل بذكر مسح الأركان ماويله من زم الركاب ، وركوب الركبان .

ثم دل بلفظة «الأطراف» على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول ، وشحون الحديث ، أو ما هو عادة المتطرفين من الإشارة واللوحي والرمز ، والإيماء ، وأسأ عن ذلك عن طيب لموس وقوة الشط ، وفصل لاغتياب ، كما توجه ألفه الأصحاب ، وأنة الأحباب ، وكما يليق بحال من وقف لقضاء العبادة الشريفة ، ورجا حسن الإياب ، وتسم روائح الأعبة والأوطان ، واستماع التهانى والتحايا من الخلان والإخوان .

ثم زان ذلك كنه باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه ، إذ جعل سلامة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح . . ثم قال : «بأعناق المطى» ولم يقل بالمطى ، لأن السرعة والطفء يظهران غالباً فى أعناقها ، وسائر أجزائها تستند إليها فى الحركة ، وتتبعها فى الثقل والخفة .

فالمراد بقوله : سألت بأعناق المطى الأباطح ، أن الإبل سارت سيراً حثيثاً فى عاية السرعة من سلامة ولين ، حتى كأنها كانت سيولا وقعت فى تلك الأباطح فجرت بها ، فاستعار سيلان السيول فى الأباطح لسير الإبل فى سلامة ولين ، ثم اشتق منه «سال» بمعنى سارت سيراً ليئاً سلساً .

وهذه الاستعارة قريبة عامية يدركها العامة والخاصة ، وذلك لكثرة استعمالها وظهور جامعها . ولو أنه قال : وسألت الإبل فى الأباطح ، لبقيت الاستعارة على قربها وانتدأها ، لكن الشاعر تصرف فيها بحلق ومهارة ، وأكسبها الدقة بصناعته ، حتى انتقلت من القرب إلى البعد ، وذلك بأن أسد الفعل المستعار وهو «سألت»

إلى الأباطح محذ عفى من مسد ما للحال إلى المحل ، للإشعار بكثرة انطواء وأنها صلات الأباطح حتى ليحيل للرائى أن الأباطح هى التى تسير .

وبإضافة هذا التحور إلى الاستعارة القريبة ، ثم تعذيب الفعل بالهاء ، ثم إدخال الأعناق فى السير ، لأن السرعة والطفء فى سير الإبل يظهران غالباً فى الأعناق ، فذكر الجزء المهم من الصورة يبعث فى المحيلة باقى لأجزاء ، ويرر انصو حية كاملة

وسعى على ذلك . سألت الأباطح منتسبة بأعناق المطى ، ودلت بفتحة ملاسة الفعل للأعناق ، وأنها سائرة أيضاً ، فيكون الفعل مسدّاً تقديراً للأعناق وهو عذر عقل .

فمع لاستعارة فى «سألت» محاران عميلان أحدهما لمضى وهو إسداد الفعل إلى الإباطح ، والآخر تقديري : وهو إسناده إلى الأعناق .

وبهذا صارت تلك الاستعارة خاصة غريبة ، بعد أن كانت عامة قريبة . ومثل هذه فى الحسن وفى هذه اللفظة بعينها ، قول سبيع بن الحطيم التيمى من بنى تميم اللات من ثعلبية ، وكان قد استنصر بزيد الفوارس الضبى ، فنصره ، فقال :

نَهَتْ زَيْدًا فَلَمْ أَمْرُغْ إِلَى وَكَلٍ رَثَ السَّلَاحِ وَلَا فِي الْحَيِّ مَغْمُورٍ
سَأَلْتُ عَلَيْهِ شَعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَبْصَارَهُ بِوَجْهِهِ كَالدَّنَانِسِرِ^(١)

يقول حينما أحسق بن الخطر ، لجأت إلى زيد الفوارس الحديد السلاح ، فما إن دعا قومه حتى جاءوه كالسيول حتى غص بهم الوادى ، وازدحموا حوله مشقة وجوههم من السرور ، ثقة بشجاعتهم وزهواً بزعيمهم .

وقد شبه السير السريع السلس ، سيلان الماء فى الشعاب ، بجامع قطع المسافة

(١) هرج ، اجاء ، وكل عاجز ، رث السلاح ، بالى السلاح ، مغمور ، حامل ، الشعاب ، جمع شعب بكسر الشين ، وهو الطريق فى الجبل ، أو مصل فى بطن الأرض ، أو ما نمرج بين الجبل

بسرعة ولين، ثم استعار السيلان لهذا السير، ثم اشتق منه «سأل» بمعنى سار في سرعة ولين.

وهذه الاستعارة قريية، لأنها في متناول العامة والخاصة لظهور جامعها، ولكنها اكتسبت الدقة بما أصفاه عليها الشاعر من الصنعة حيث أسند «سالت» إلى الشعاب دون الأنصار، فأعاد بهذا الإسناد المجازي أن الشعاب قد امتلأت بالأنصار، إذ لا يندفع الحال إلى المحل إلا حيثما يراد أن الحال قد ملأ المحل وعم جميع بقاعه.

ولم يكتف بذلك بل أدخل الروح في السير مع تعدية الفعل إليها دلالة، وهذا إسناد عقلي مقدر.

وبهذا التصرف أخرج الشاعر هذه الاستعارة القريية إلى منزلة عالية من العراية والعد ولو فذل - سالت الأنصار في شعاب الحى، لقيت على أصلها من القرب والابتدال، ولكن هذا التصرف من الشاعر ألبها ثوباً جديداً من الغربة وبعد

ومنه قول الشاعر:

فَرَعَاءُ إِن تَهَفَّتْ لِحَاجَتِهَا عَجَلَ الْقَصِيبُ وَأَبْطَأَ الدُّغْصُ^(١)

فقد شبه الشاعر قدامها بالعص، بحامع الاعتدال ولين في كل، فوجه الشبه طاهر، والاستعارة في ذاتها عامية وقريية.

كما شبه دَفْعاً بكثير الرمل، بحامع الصحامة في كل، ووجه الشبه طاهر، والاستعارة قريية، لكن المجاز الثقلي في إسناد (عجل) إلى القصيب، وإسناد (أبطأ) إلى الدغص، أخرج الاستعارتين من الابتدال إلى الغرابة، لما فيه من إشارة إلى لطافة قدامها وصحامة رددها إلى حد أن قدّها يساعدها على ليهوض فيقعد به ردّها، كأن قامتها بلغت نهاية الحد المحدود من الدقة، وردفها بلغ نهاية

(١) فرعاء: طويلة الشعر القصيب - الدغص: بكر الدال وسكون الميم - قنعة من الرمل المستدير للجمع

الحد المحدود من الصحامة، وزادها حسنا الطباق اليديعى بالجمع بين الإطاء والعحة^(١).

الاستعارة المكنية

تصدى ابن قتيبة «ت ٢٧٦ هـ» لعلماء الكلام وبخاصة المعتزلة المائلين في المجاز، والمغالين في التأويل، فيحكى عنهم وجهتهم في المجاز، ومقاتلهم في التأويل، فيقول^(٢):

«ذهب قوم في قول الله عز وجل وكلامه إلى أنه ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة، وإنما هو إيجاد للمعان، وصرفوه في كثير من القرآن إلى المجاز - ثم ينقل بعض أقوالهم في هذا مع شواهد من شعر - مثل قوله تعالى بسّموات والأرض (ثباً طوعاً أو كرهاً، قلنا: أب حادعين)^(٣)، فلم يقل الله ولم يقلوا، وكيف يحطاب الله معدوماً؟ وإنما هو عبارة لتكوينها فكنتا، كما قال الشاعر: حكاية عن رفته:

تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِيئاً أَهَكَذَا دِينَهُ أَبَدًا وَدِينِي
أَكُلُ الدَّهْرِ حُلًّا وَارْتِحَالٌ أَمَا يَتْنِي عُلٌّ وَلَا يَتْنِي؟^(٤)

هي لم نقل شيئاً من هذا، ولكنه رآها في حال من الجهد والكلال، ففطن عليها بأنها لو كانت ممن يقول لفالت مثل الذي ذكروا، كقول الآخر:

* شَكَا إِلَى حَمَلِي طُولَ السَّرَى *

(١) حلم الياد ١٣٦

(٢) تأويل مشكل القرآن ٨٧ - ٨٩

(٣) الآية «ثم استوى إلى السماء وهي دخان» فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قلنا أتينا حادعين

مصب ١٠

(٤) درأت: بسطه، الوضئ: بساط عريض من شعر، واليتان: المنقذ المعلى وقديما

إذا قمت أرجلهد بديل - تلوه أمة الرجل الحرير

المفضليات ٨٥٦

والجمل لم يشك ولكنه خبير من كثرة أسفاره وإتباعه جملة، وقضى على ذلك الحمل بأنه لو كان متكلاً لاشتكى مابه، وكقول عترة في فرسه
 «لأروء من وقع القفا يلبانه وشكا إلى بقرة وتحمم»^(١)
 «لما كان الذي أصابه يشتكى مثله، وتستنعر منه، جمعه متكياً ومستعراً»
 وليس هناك شكوى ولا عترة»

فالسما والأرض من مخلوقات الله لصامته الجامدة التي لا تنطق ولا تبين، لكنها لو كانت ممن ينطق لبطقت، وكانت في الانقياد والخضوع كالحي المتكلم.
 والناقة يراها الشاعر، ويعاين ما عليها من أثر التعب والعناء، فيشعر - من رثة حالتها - بأنها لو تكلمت لجارت إليه بالشكوى، ورفعت صوتها بلداء.

وعترة يرى ما أصاب فرسه من الطعن، وما نال صدره من السهام، فيرمي الفرس صهيله ويطلق عويله، وكأنه يشكو الوجع، ويترحم من الألم.

«وهذا لون من ألوان التصوير» يمكن أن نسميه «التشخيص» يتمثل في خلق الحبة عن مواد الخدمة ولطواهر الطبيعة، هذه الحبة التي ترتقى فتصبح حياة إنسانية، ويهب هذه الأشياء كلها عواطف آدمية، وغلجات إنسانية تشارك بها الأدميين، وتأخذ منهم وتعطي»^(٢).

وحينما نحلل هذا التشخيص، نرى أن هناك تشبيهاً مضمرًا في النفس نتيجة تعمق لعصمة وسعة خيال - ممثلاً في الآية لقريية (فضلها ولأرض تبت طوعاً أو كرهاً قلنا أتيننا طائعين) شبهت السماء والأرض - في انقيادها وخضوعها

(١) أروء: مال، لبانه: صدره، التحمم: ما كان فيه شبه «حسين، العرة: تردد اللعق في العين، ومثل اليد قوله.

مارلت أومهم بشرة بحره ولبانه حتى تريب بالدم

«الشفرة: الرقة في أهل النحر، تريب: اتخذ قميصاً والمعطف السح (١٨)

(٢) التصوير المثل في القرآن ٦٠

وطاعتها لله - بإنسان يتميز بصفة القول والإتيان، ودل على هذا التشبيه بإثبات لازم المشبه به - وهو القول والإتيان - للمشبه، وهذا ما عرف بالاستعارة بالكناية^(١)، وإسناد القول والإتيان إليهما قرينة الاستعارة، وأطلق البلاغيون على تلك القرينة «استعارة تخيلية».

وكذلك - في أبيات الشعر - شبه الجمل بإنسان له خاصية التمييز والشكوى ودل على هذا التشبيه بإثبات لازم المشبه به - وهو القول والشكوى - للمشبه، وإسناد القول والشكوى إلى الجمل قرينة المكية، وقد سميت «استعارة تخيلية».

فالاستعارة بالكناية هي:

التشبيه المضمر في النفس المتروك أركانه سوى المشبه، المدلول عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه.

هذا لفهم الذي فهمه المعزلة، وهذا أساويل الذي أشبه إليه أهل التفكير منهم - والذي تصدى هم سسه من قتيبة وغيره من علماء أهل السنة - كان الهدف منه توضيح الطريقة السليمة لفهم أساليب القرآن حين تخرج عن أصل وضعها، وبين أن القرآن لم يكن في ذلك بدعاً، بل قد حرت أساليب الشعر على ذلك، وحرحت عن أصل وضعها لهذا الهدف، وقد فهم العرب المراد منها عن هذا الوصف دون لبس أو خفاء، وهذا التأويل ظهرت الأساليب في صورة تشخيصية صورت المحذات والحيوان إنساناً له إرادة وقول وشكوى، وكل ما كان يفهم أن يلتفتوا لظن أن من أساليب القرآن ما يجب أن يدرك التأويل وتخرج عن أصل وضعها حتى يفهم معناها ويعرف المراد منها، ولم يدر بخلداهم أن هذا الخروج يسمى استعارة نصريجية أو مكية.

وظل هذا التفكير يتم ويتزايد دون أن يضعوه تحت اسم معين حتى كان الإمام

(١) المواد بالكناية للمعنى المعنوي وهو الخفاء، وتسمى أيضاً مكية أي غفية

عبد القاهر الجرجاني فأشار إلى الاسم، والمخ إلى طريقة فهمها، فقال تعليقا على قول لبيد العامري في معلقته^(١).

وَعَدَا رِيحٌ قَدْ كَشَفَتْ وَفَرَّةٌ إِذْ أَصْبَحَتْ يَدُ الشَّيْءِ زِمَامُهَا^(٢)

وذلك أنه جعل للشَّيْءِ يداً، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه، كإجراء «الأسد والسيف» على الرجل، في قولك: انْتَرَى لِي أَسَدٌ يَزَارُ، وسللت سيفاً على العدو لا يُقْل، و«الطباء» على النساء، في قوله: «من الطَّاء الغيبة»^(٣)، و«النور» على الهدى والبيان، في قولك: أَبْدَيْتُ نُوراً ساطعاً، وكإجراء «اليد» نفسها على من يعر مكنه كقولك: «اندرعى في يديها أبطش، وعين بها أبصر؟» تريد إنساناً له حكم اليد وفعلها، وغاؤها ودفعها، وخاصة المين وفائدتها، وعزة موقعها، ولطف موضعها، لأن معك في هذا كله ذاتاً ينص عليها وترى مكاناً في النفس، وإذا لم تجد ذكرها في اللفظ.

وليس لك شيء من ذلك في بيت لبيد، بل ليس لك من أن تُحْمِلَ إلى نفسك أن الشَّيْءَ في تصريف الغدَّة على حكم طبيعتها كالمدير المصروف لما زمامه بيده، ومفادته في كنه.

ودلت كنه لا يتعدى التحيل والوهم، والتقدير في النفس، من غير أن يكون هناك شيء يُحَس، ودات تُتَحَصَّل.

(١) أسرار البلاغة ٢٤ وما بعدها

(٢) بعد هذا البيت - على ما يظهر من المعنى - قوله

بصوح صافية وجذب كربة بموتر تاتله إليهما

العداء. الكربة أو ما بين صلاة العصر وطلوع الشمس، القرية بكسر القاف وتشديد الراء: ما يصيب الإنسان من القُر - بضم القاف - وهو البرد، الشَّيْءَ ربح تباد من الشَّيْءِ، الصافية: الحرة، الكربة: المنية، الموتى تاتله تاتله، والضمير في «أصبحت» وفي «زمامها» يعود إلى القرية وهو رأى الخطيب والغرضي، أما عبد القاهر فيرى أنه يعود على الصافية، والمعنى: كم من خلة تهب فيها ربح الشَّيْءِ البارحة كعبت عليها بشرية الحمو والذهب والطرب ومحاصرات في البيان المعنى ٨٧، المصنفات ١٣٠.

(٣) هذا جزء من بيت ومطلع قصيدة للبحري مدح «متر بداهة» وتمام

من عليزي من الطاء العبد ويجري من ظلمن الحنيد

(ديوان البحري ج ٢ / ٢٢٨)

ولا سبيل لك إلى أن تقول: كنى باليد عن كذا، وأراد باليد هنا الشيء أو جعل الشيء العلاني يداً كما تقول كنى بالأسد عن زيد، وعنى به رسداً، وجعل يداً أسداً، وإنما عايتك التي لا متطوع وراءها أن تقول: أريد أن تُثَبِّتَ للشَّيْءِ في العادة تصرفاً كتصرف الإنسان في الشيء بقلبه، فاستعار لها اليد، حتى يبالغ في تحقيق التشبيه.

وحكم الزمام في استعارته للغداة: حكم اليد في استعارتها للشَّيْءِ، إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كدية عنه، ولكنه وفي المصلحة شرطها من الطرفين، فجعل للعادة رسماً، ليكون أتم في إثباتها مصروفة، كما جعل للشَّيْءِ يداً ليكون أبلغ في تصويرها مصروفة.

ويوضح عند نقاهر لفرق بين الاستعارة التصريحية والمكنية، فيقول ويعصل بين القسمين - أنك إذا رجعت في القسم الأول إلى التشبيه الذي هو المغزى من كل استعارة تفيد، وجدته يأتيك هفواً، كقولك في «رأيت أسداً» رأيت رجلاً كالأسد، ورأيت مثل الأسد، أو شيئاً بالأسد.

وإن رمت في القسم الثاني، وجدته لا يواتيك تلك المواتاة، إذ لا وجه لأن تقول: «إذ أصبح شيء مثل اليد للشَّيْءِ» أو «حصل شيء باليد للشَّيْءِ» وإنما يترأى لك تشبيه بعد أن تحرق إليه إليه سترأ، وتعمل تأملاً وفكراً، وبعد أن تعبر الطريقة وتخرج عن الخلو الأول، كقولك: «إذا أصبحت الشَّيْءَ، ولها في قوة تأثيرها في العادة شبه المالك تصريف الشيء بيده وحراً، على موافقته، وحده نحو الجهة التي تقتضيها طبيعته وتنعوها إرادته.

فأت - كما ترى - تجد التشبيه المترع ها هنا إذ رجعت إلى الحقيقة، ووضعت الاسم المسعار في موضعه الأصلي، لا يلفك من المستعار نفسه، بل مما يضاف إليه، ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشَّيْءَ كاليد، ومشبهة باليد، كما جعلت الرجل كالأسد، ومشبهة بالأسد، ولكنك أردت أن تجعل للشَّيْءِ كدى اليد من الأحياء.

فأت تجعل في هذا الضرب المستعار له - وهو نحو الشَّيْءِ - ذا شيء، وغرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشيء في فعل أو غيره، لا نفس ذلك الشيء فاعرفه.

وفي كلام عبد القاهر نلخص هذه الحقائق التالية :

١ - أن كلا من «الأسد» في قولنا - «رأيت أسدا» المراد به الشجاع من الناس، وأن «اليد» في قول لييد : «يد الشمال» استعارة أو مستعار.

٢ - أن كلمة «الأسد» مقولة إلى شيء ثابت محقق وهو الرجل الشجاع وأن «اليد» لم تصل إلى شيء محقق حساً أو عقلاً في جانب الشمال يمكن أن يشار إليه، أو يقصد من اليد، فنقول : كفى باليد من كذا، أو أراد بها كيت.

٣ - أن كلا من «الرجل لشجاع» و «الشمال» مستعار له، والرجل الشجاع مستعار له «الأسد»، والشمال مستعار له «اليد».

٤ - أن عبد القاهر أوحى لمن بعده بأن يقسم الاستعارة إلى تصريحية ومكنية، فاستعارة «أسد» للرجل الشجاع تصريحية، لأن اسمه مصرح به، وفي مثل «يد الشمال» استعارة - بمعنى أنه أُنشئ لشيء ما ليس هو «اليد» - بناء على تشبيهها «أي الشمال» به له يد - وهو الإنسان المنصرف لما رماه يده، ولكنه لم يسم هذا التشبيه «استعارة بالكناية».

وجاء الخطيب القزويني فأفاد من إشارات عبد القاهر وتابعه في طريقته، فقال تعليقاً على قول لييد السابق :

«فإنه جعل للشمال يداً، ومعلوم أنه ليس هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً تجري اليد عليه، كإحراء الأسد على الرجل الشجاع، ولصراط على مئة الإسلام، ولكن لما شبه الشمال لصريفها، فقرة^(١) على حكم طبيعتها في التصريف، الإنسان المنصرف لما رماه يده، أثبت له يداً على سبيل التحليل مبالغة في تشبيهها به، وحكم الرمام في استعارته لفقرة^(٢) حكم اليد في استعارتها للشمال فجعل لفقرة رماً، لتكون أتم في نسبتها مصروفة، كما جعل للشمال يداً، ليكون أبلغ في تصييرها متصرفة، فوق المبالغة حقها من الطرفين^(٣)».

(١) الخطيب يرى أن الضمير في «أصبحت» و«لمها» يعود على الفقرة

(٢) بنية الإيضاح ج ١٥٥٢٣

وقد سهاها الاستعارة بالكناية أخذاً من السكاكي، وعرفها بأنها : التشبيه المنصرف في النفس، المتروك أركانه سوى المشبه، المدلول عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه.

وقد رزق الخطيب حظاً واسعاً فتناول علماء البلاغة كتبه بالشرح والتحليل ونسبوا إليه هذا الاتجاه، وظل يذكر في الأوساط العلمية بأنه صاحب هذا المذهب، وأغفلوا جهود عبد القاهر.

وهناك من العلماء من جعلوا الاستعارة بالكناية هي :

لعظ المشبه به المحذوف المستعار في النفس للمشبه المدلول عليه بإثبات شيء من لوازمه للمشبه.

وسمى هذا مذهب الجمهور، واستندوا فيه إلى قول الزمخشري في قوله تعالى : (وما يُصِلُ به إلا الفاسقين، الذين يتقصون عهد الله من بعد ميثقه) (البقرة ٢٦، ٢٧)، من قلت : من أين ساغ استعمال القرض في إبطال العهد؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من إثبات الوصلة بين المتماهدين، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها : أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من رواده فينسجوا بتلك الرزمة على مكانه، ونحوه قولك : «شجاع يفتنر أقرانه» و«عالم يعترف منه الناس» لم نقل هذا إلا وقد نهت على الشجاع والعالم بأنها أسد وبحر^(١).

وكل استعارة مكنية قريتها استعارة تخيلية، فيها متلارمان لا تنفك إحداها عن الأخرى - عبد الخطيب والجمهور - وأجاز الزمخشري أن تكون قريتها استعارة حقيقية، كالأية السابقة (الذين يتقصون عهد الله)، دلقت قريته المكنية، وهو مستعار لتكث العهد

وبالمقارنة بين المذهبين - المذهب المسبوق للخطيب، والمسبوق للجمهور^(١)

يوجد

أن الاستعارة المكنية على مذهب الخطيب تخرج عن المحاز اللغوي، فتسمية التشبيه المضمرة في النفس استعارة حال من المناسبة، لأن التشبيه المذكور فعل من أفعال النفس، والاستعارة هي اللفظ المستعمل في غير ما وضع له.

أما تسميتها كناية أو مكنية، لأن التشبيه مضمرة في النفس، وقد كُفِيَ عنه ورمز إليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه.

وعلى ذلك فتسميتها استعارة فيه مساعة.

أما هل مذهب الجمهور: فالتسمية في موضعها، إذ عليه تكون الاستعارة بأقسامها المختلفة، - عدا التخيلية - وهي لفظ المشبه به المستعمل في المشبه، يصرح به في التصريحية، ويصمر ويكنى عنه في المكنية.

وقد رأى بعض الباحثين^(٢) أنه المكنية عند القرويني فعل من أفعال النفس بسبب ما هي عند عبد القاهر والزخشي اسم المشبه به المحذوف والمرموز له بإثبات شيء من لوازمه، مع أن الثابت عند عبد القاهر - كما نقلنا عنه - يفيد أنها فعل من

(١) وطريقة إجراء الاستعارة في بيت لبيد - السابق حل التخصيص

الخطيب: «بيد الشال» شبه الشاعر في نفسه روح الشال في تصرفها للقرة على حكم طبيعتها، بالإنسان المصروف لا رماه بيده، وهل هل هذا التشبيه بإثبات لازم المشبه به - وهو اليد - للمشبه - وهو القرة - على طريق الاستعارة بالمكنية، وإثبات اليد للشال واستعارة تخيلية، وهي قرينة المكنية

وقد رآه - رماهها - شبه الشاعر في نفسه «القرة» وهو الضمير في «رماهها» المتأكد على القرة، نال به الدلول، وهل هل التشبيه بإثبات لازم المشبه به - وهو - الرمان - للمشبه - وهو القرة - على طريق الاستعارة المكنية، وإثبات الرمان بقرنة واستعارة تخيلية، وهي قرينة المكنية

وعلى مذهب الجمهور - «بيد الشال» شبه الشال في تصرفها للرد، بإنسان قد أخذ الشيء بيده يهرقه كيم شدة ثم استعارة تشبه به للمشبه، ثم حذف ورمز له - شيء من لوازمه - وهو اليد - استعارة بالمكنية وإثبات اليد للشال واستعارة تخيلية، وهي قرينة المكنية

ول في «رماهها» شبه «القرة» في تأثيرها وسعيها في إخراج نشأته، نال به الدلول - حذف منه به ورمز به شيء من لوازمه وهو - الرمان

(٢) القرويني وشروح التخصيص ٣٩٥

أفعال النفس، والقرويني تابع له في ذلك.

وقد شاع التشخيص في أساليب القرآن ومن ذلك:

١ قوله تعالى (ولما سكث عن موسى العصا أحد الألواح وفي سُطحها هُتًى ورحمة للدين هُمْ لِرُئُوسِهِمْ يَظُنُّونَ) (الأعراف ١٥٤) كأن العصا كان يعزبه على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألقى الألواح وجو برأس أحبك إليك^(١)، فترك الطلق بذلك وقطع الإغراء ولم يستحسن هذه الكلمة، ولم يستصحها كل طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك، ولأنه من قبيل شعب البلاغة، وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة «ولما سَكَنَ عن موسى العَصْب» لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة وطرفاً من تلك الروعة^(٢).

وقوله (فلما ذهب عن إبراهيم «الروح» وحده، بشرى بُعَادِلًا في قوم لوط) (هود ٧٤)، فيحسم القرآن «الروح» بسناً يذهب، ولشري شخصاً يحى.

ويقول الله تعالى في وصف النار: (إنها لظي، تَرَاةٌ لِلشَّوْى، تَذْخُو من أَدْبُرٍ وَنُورٍ، وَتَجَمُّعٌ لَوَّاعٍ) (المعارج ١٥ - ١٨) فيجعل النار دعة وعادة يدعو إلى الهدى والرشاد، والناس عنها في انصراف.

ويقول في وصف الأرض مسحة حمرة (وتَرَى الأرضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ من كُلِّ رَوْحٍ يَبْرِجُ) (الحج ٥).

ويقول: (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) (فصلت ٣٩)

والأرض مرة تكون «هامة» وأخرى «خاشعة» فتتلح عليها صفات الحى تشخيصاً لها وتجيئاً

(١) شرح ٢٦ منها في ١ - ١٠٠٠ حده يعني في قوله تعالى (ولما سكث عن موسى العصا أحد الألواح) (الأعراف ١٥٤) كأن العصا كان يعزبه على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألقى الألواح وجو برأس أحبك إليك (٢) الكشف ١٢٨/٢

ويقول: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِقَ فَإِذَا تَزَلَّزْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْتَفْيَأَتْكُمْ هُمُومُ) (الحجر ٢٢)، فقد خلعت الآية على الرياح صفات الحيوانية التي من صفاتها التلقح والتوالد.

ويقول: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ) (يونس ١٠٨).

ويقول: (مِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَلَوُّوا أَعْيُنَهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) (الأحزاب ١٩).

فالحق والخوف من الأمور المعنوية التي لا يتصور منها إتيان أو مجيء، لكنها شبهت بمن يكون منه الإتيان والحركة تحسباً للمعنويات وتشخيصاً لها.

ويقول: (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَفَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) عسف: أقبل ظلامه، تنفس: أصل التنفس: إخراج النفس من الجوف فيعقبه الراحة، والمعنى أن أول النهار كأنه شخص مهموم من ضغط الليل عليه فإذا ذهب الليل تنفس تنفس الراحة والهدوء.

وجوهر اشعر كنه في كل لغة هو التأثير الشديد في النفوس، فالشعر لا يلحاً في المطلق ولا إلى الحفة - كما في النثر - كذلك لا يؤثر في العفص، من وجهته الروح والقلب والعاطفة، وليكون الشعر أخذ في النفوس، وأعلق بالقلوب، وأطرب للأفئدة، يجعل طريقة التصور منهجاً، ويأخذ التمثيل والتصوير ميلاً.

ويروى أن بشاراً سمع أبا العتاهية ينشد الخليفة المهدي قصيدته التي يقول فيها:

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مِنْقَادَةً إِلَيْهِ تَجْرُجِرُ أَذْيَالَهَا
فَلَمْ تُكْ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكْ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَأَاهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ لَزَلَزَتْ الْأَرْضُ وَلَزَلَهَا

فهاج بشار - وكان أعمى - وقال لصاحبه: «انظر ويحك هل طار الخليفة عن فرشه»^(١) ؟!

وكان عجب بشار لما في تصوير أبي العتاهية، وإبداعه في التمثيل وبلوغه الغاية في التحليل، مما جعل التأثير في السامع قوياً وشديداً.

ولو عرضنا هذه الآيات على منطق العقل، وقسنا مضمونها بمقياس الصحة والخطأ، لوجدنا أكثره غير مقبول، فالخلاقة ورثها عن أبيه ولم تأت منقادة، وهي معنى مجرد، ليست امرأة، بل وليست لها أذبال تجرها، وإنما هي أكبر منصب في الدولة.

وهذا نرى أن العقل يرى سخف هذا الشعر وخروجه من جادة المطلق، لكن الشاعر استطاع أن يثير حيل السامع، ومتى استبرح حيل أصح السمع في عالم آخر غير عالم المنطق والحساب.

ومثل ذلك قول معن بن أوس:

وَذِي رَجَمَ قَلَمْتُ أَطْفَارَ ضَيْفِهِ بِحُلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ
مَقْدٌ مِثْلُ لَنَا الضَّيْفَن - وَهُوَ الْمَعْنَى الْمَجْرَد - وَكَأَنَّا نَرَاهُ بِأَعْيُنِنَا وَنَلْمُسُهُ بِأَيْدِينَا.

ومثله قول أبي تمام:

دِيمَةُ سَمْحَةِ الْقِيَادِ مَكُوبٌ مَسْتَعِثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ
لَوْ سَعَتْ بَقْعَةٌ لِإِعْطَامِ أُخْرَى لَسَنَى سَحُوبَهَا الْمَكَانُ الْحَدِيثُ

وهكذا نرى أن نزعة الشعر ترمى إلى رفع المعاني، والسمو بها عن المستوى المألوف إلى العالم الخيالي، فتجيد في التصوير وإظهار الشيء المصور واضحاً ملموساً، والمعنى المجرد مشحوناً محوساً.

وكثيراً ما نستخدم في عباراتنا استعارات مكينة لا ننتبه إليها وكأنها تنوسيت وأصبحنا لا نشعر بها، فنقول مثلاً: إن سلوكك عن مستقيم، لكن حرنه عميق، وفكره مظلم، وصوته غليظ، فالاستقامة والعمق والإطلام والغلط من صفات ناديات - فإسادهما إلى العقلية من قليل الاستعارة المكينة

والسبب في ذلك دوام الإلزام والعادة وطول الزمن، فالعمل الإرادي إذا تكرر أصبح آلية عادية لا يكاد يشعر به الإنسان

الاستعارة المكنية أقوى في تأكيد المعنى

الاستعارة المكنية أكثر بلاغة في تأكيد المعنى وتوضيحه من الاستعارة لتصريحية، ودلت لإعمال العقل واجهاد الفكر فيها أكثر من الأخرى، وفي مباحث علم النفس الأدبي^(١) ما يفسر ذلك.

وذلك أن الاستعارة التصريحية تتضمن عمليتين عقليتين:

الأولى: متمشية مع الحقيقة والواقع قائمة على قاعدة تداعي المعاني، وهو إدراك ما بين المشبه والمشبه به من تشابه، وبطراً لأن التشبيه هو أساس الاستعارة فإنها يشتركان في هذه العملية.

الثانية: تتحقق في الاستعارة دون التشبيه، وهي عملية خيالية غير واقعية، وتلك هي ادعاء أن المشبه والمشبه به متحدان في الحقيقة، فهما شخص واحد لا لشخصان.

أما الاستعارة المكنية فوجد ثلاث عمليات عقلية، هما العمليتان السابقتان مصافاً إليها عملية ثالثة متصلة بالعملية الثانية، هي تخيل انصاف المشبه بما هو من خصائص المشبه به.

فلذا قلنا مثلاً: إِنَّ حَيْنَ الْقَدْرِ تَرَعَاكُم - فلننا نرى الآتي:

أولاً: شها بين القدر والإنسان الذي يرعى الأشياء ويرقبها بعينه.

ثانياً: أن القدر هو إنسان لا أقل.

ثالثاً: أثبتنا للقدر ما هو من لوازم الإنسان وهو العي.

(١) دراسات في علم النفس الأدبي ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٥.

التبعية ترد إلى المكنية

يجوز أن ترد كل استعارة تبعية إلى استعارة مكنية، وذلك بأن تنقل الاستعارة من موطئها في التبعية - إلى قرينتها فتصير مكنية.

مثلاً: من الله على المؤمنين ويذكرهم بما جباهم من نعم وقوة - في المدينة - بعد ما كانوا عليه من ضعف ورقة حال - في مكة - يقول -

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن ينحطكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيات) (الأنفال ٢٦).

يجوز أن نستعير «التخطف» للاعتداء والإيذاء، لتصوير ما كانوا فيه من مرع وخوف واضطراب وأنهم كانوا يُؤخذون من كل جانب ماعنيين من غير أهة ولا استعداد، ثم يشتق من التخطف، ينحطف - استعارة تبعية - والقريئة: مساد «لنحطف» إلى الدس، فهم لا يحطون ولكنهم يسبون المعاملة، وينسبون في وسائل القسوة.

ويجوز أن تجري استعارة مكنية في قرينة الاستعارة التبعية، فيشبه «الناس» بما يتخطف من الطيور الخارجة، ثم يبدل عن هذا تشبيه بذكر شيء من لورم أمته للمشبه وهو التخطف «استعارة مكنية».

ومثله قوله تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلَكُمُ فِي الْجَارِيَةِ) (الحاقة ١١).

حقيقة طغى: علا، واستعارة الطغيان لكثرة الماء أبلغ في الطغيان من معنى القهر والعملية، ثم اشتق من «الطغيان» طغى بمعنى علا - استعارة تبعية - والقريئة: مساد الطغيان إلى الماء، فالماء لا يطمى وإنما يزيد ويكثر.

ويجوز أن تجري استعارة مكنية في قرينة التبعية، فيشبه «الماء» بإنسان ثم ندل على التشبيه ببيانات لازم المشبه به للمشبه وهو الطغيان «استعارة مكنية».

وهكذا كل استعارة تبعية يمكن أن ترد إلى المكنية، وإذا أجريت مكنية فلا تجري

استعارة تتبعية لأن القرينة حيث مستعملة في حقيقتها.

وقد اختار السكاكي - تقليلاً لأقسام الاستعارة - أن يستغنى عن التبعية - في العمل المشتق والحرف - ويجعل قرينة التبعية استعارة مكنية - كما سبق - وقد ذكر السكاكي أنه من الأفضل - إذا أريد الصبط والدقة - أن يجعلوا هذه الاستعارة السعية من الاستعارة المكنية ودلت بأن يجعلوا قرينة الاستعارة بالتصريح استعارة بالكناية عن المتكلم بواسطة المبالغة في التشبيه^(١).

وقد أشار الدكتور أحمد مطلوب إلى أن السكاكي أنكر الاستعارة التبعية^(٢)، وليس الأمر كما ذهب إليه، فإنكار الاستعارة التبعية شيء، والاعتراف بها مع الإشارة إلى أن غيرها - وهي المكنية - أصل شيء آخر.

وبعد أن استشهدنا لكل أنواع الاستعارة ببعض من آيات القرآن الكريم - وما تركناه فهو أكثر - نرى أن قول ضياء الدين بن الأثير أن استعارات القرآن قليلة^(٣)، قوله مرفوضة بدليل الواقع والمشهد من القرآن الكريم.

الاستعارة الفاضلة والهابطة

الاستعارة تقوم على المفارقة، وهي في ذلك كالتشبيه، إلا أنها تتباين عنه، فهي تعتمد على القياس والانتقال، فحين في التشبيه نواجه طرفين يجتمعان معاً، بينما في الاستعارة نواجه أحد الطرفين يحمل عمل الآخر ويقوم مقامه للاشتراك في صفة أو صفات

(١) نقل القر ج ٢/ ٩٧

(٢) راجع معجم العلوم ١٨١

(٣) البلاغة عند السكاكي ٣٢٨

وفي الاستعارة نكون أمام نوعين من المعنى: المعنى الحقيقي - والمعنى المجازي، فإذا سمعنا قوله تعالى (كذب أولئك الذين سحروا من سطوت بل سور) (إبراهيم ١)، فإن كلمة «الضمت» سورة، استعارة المراد منها «كبر»، إلا أن هذا المعنى المراد يصل إلى السامع عن طريق القياس والانتقال.

وينبغي لسعر المعنى المقصود للاستعارة أن تكون هناك علاقة واضحة تربط بين الطرفين وتكون كالعلامة الهادية التي تيسر الانتقال من حقيقة الكلمة إلى مجازها.

والفارق بين لفظ «الاستعارة» وأصلها الحقيقي يكون فقط في جهة التأثير، لكن ليس لها أية فاعلية في خلق المعنى وبمجهده، ولا استعارة تؤدي المعنى لدى يؤديه استعداد حقيقي نفسه، وليس من فرق إلا ما يؤديه الاستعارة من التأثير الحسن للمستمع، والترجمة الجيدة للمعنى، وإخراجها في معرض أحاذ وجمل.

وفي هذا الإطار كانت تدور أفكار النقاد والبلاغيين، فقد كانوا ينظرون إليها عن أنها استفاد في الدلالة، يقول الحاحط عيب «تسمية شيء باسم غيره إذا قام مقامه»^(١).

وابن قتيبة يرى أن العرب «تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاوراً إليها، أو مشابهاً»^(٢).

وثعلب يعرفها بقوله: «أن يستعار للشيء اسم غيره أو معنى سواه»^(٣).

وابن المعتز يقول فيها: «استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف»^(٤).

ويرى الرماني أن الاستعارة: «تعلق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل والإبانة»^(٥).

(١) البيان والتبيين ج ١/ ١٥٣

(٢) تأويل مشكل القرآن ٢٠٢

(٣) قواعد الشعر ٤٦

(٤) البصير ٢

(٥) النكت ٨٥

وأبو هلال يرى أن : « الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض »^(١).

ومن هذه التعريفات المختلفة في العصر والأوان نرى اتفاقهم على أن الاستعارة هي الانتقال والاستبدال في الدلالة.

وإذا كانت الاستعارة ليست إلا مجرد نقل للفظ عما وضع له في اللغة - كما ذهب إليه هؤلاء الرواد الأوائل - فإن عبد القاهر يرى أن مثل هذه التعريف لا توضح الهدف الحقيقي من الاستعارة - وهو المبالغة القائمة على الادعاء - فضلاً عن أن مثل هذا التعريف يخلط بين الاستعارة وما عرف بعد - بالمجاز المرسل - الذي لا يقصد به المبالغة والادعاء، ولا يقوم على المشابهة، وإنما هو مجرد علاقة بين طرفين خارجة عن نطاق المشابهة، يقول عبد القاهر.

« وعدم أثبت ترى الناس وكأنهم يرون أنك إذا قلت : رأيت أسداً : وأنت تريد التشبيه كنت نقلت لفظ «أسد» عما وضع له في اللغة، واستعملته في معنى غير معناه حتى كان ليس الاستعارة إلا أن تعتمد إلى اسم الشيء فتجعله اسماً لتشبيهه، وحتى كان لا فصل بين الاستعارة وبين تسمية المطرسساء، ولتبت غيثاً، ولردة راوية، وأشاء ذلك مما يقع فيه اسم الشيء هل ما هو منه بسببه

ويذهبون عما هو مركز في الطباع من أن المعنى فيها المبالغة، وأن يدعى في الرجل أنه ليس برجل ولكنه أسد بالحقيقة، وإنما يعار اللفظ من بعد أن يعدر المعنى، وأنه لا يشرك في اسم الأسد إلا من بعد أن يدخل في جنس الأسد... »

ومن أجل أن كان الأمر كذلك رأيت العقلاء كلهم يشتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكون أبداً أبلغ من الحقيقة، ولا فإن كان ليس لها إلا نقل اسم من شيء إلى شيء فمن أس يجب - ليت شعري - أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة، ويكون لقول : رأيت أسداً، مزية على قول : رأيت شبيهاً بالأسد؟

فبيست الاستعارة نقل اسم عن شيء ولكنها ادعاء معنى الاسم شيء... وقد

كثر في كلام الناس استعمال لفظ النقل في الاستعارة، فمن ذلك قولهم : الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة عن سبيل النقل. وقال القاضي أبو الحسن : الاستعارة ما اكتفى فيه بالاسم المستعار عن الأصلي ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها... وإصلاحهم في الاستعارة أنها نقل للعبارة عما وضعت له من ذلك فلا يصح لأحد به، وذلك أنك إذا كنت لا تنطق اسم الأسد على درج إلا من بعد أن تدخله في جنس الأسود لم تكن نقلت لاسم عما وضع له بالحقيقة لأنك إنما تكون ناقلاً إذا أنت أحرحت معناه الأصلي من أن يكون مقصودك، ونقصت به يدك، فمما أن تكون نقلاً له عن معناه مع إرادته معناه فمما من متناقص

واعلم أن في الاستعارة ما لا يتصور تقدير النقل فيه ألبتة، وذلك مثل قول المتنبي :

خيس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمام^(٢)

لما جعل الخوراء تسمع كعدتهم في جعل السحوم تعقل ووضعهم لها يوصف به الأناسي، أثبت لها الأذن التي بها يكون السمع من الأناسي... فأنت لا تستطيع أن نزع أن لمسي قد سندر لفظ «لأد» لأنه بوح أن يكون في الجوزاء شيء قد أراد تشبيهه بالأذن وذلك من شنيع المحال.

فقد تبين من غير روجه أن الاستعارة إنما هي ادعاء معنى الاسم لشيء لا نقل الاسم عن الشيء. وإذا علمت أنها ادعاء معنى الاسم للشيء علمت أن الذي قالوه من أنها تعليق للعبارة على غير ما وضعت له في اللغة ونقل لها عما وضعت له كلام قد تسامحوا فيه لأنه إذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم لم يكن الاسم مزالا عما وضع له بل مقراً عليه.

وفهم عبد القاهر هذا لا يصترق - في جوهره - عن مذهب السابقين عليه من أن

(١) دلائل الإعجاز ٣١٠-٣١٤

(٢) الخيس : الجيش. الجوزاء : نجم في السماء. زمام : صوت

الاستعارة ادعاء وليست نقلاً، ومع ذلك فالتمييز بين الطرفين ثابت، يظل كل منهما مستقلاً ومتمايزاً عن الآخر.

- وهم وإن احتلوا في النقل. كما ظهر من الجدل السابق - فقد اتفقوا على ضرورة التناسب والمشابة بين الطرفين، وضرورة النقلة السهلة بينهما.

هذا لاستقال من الاستعارة إلى حقيقة لا يصح إلا إذا قدم عن علامة وصلة تربط بين الطرفين، وتعمل عملية الانتقال سهلة ميسرة، وكلما كدت العلاقة لتربط بين المستعار والمستعار له صحيحة عقلياً، وكان المستعار قريباً من المستعار له ومشابهاً كانت الاستعارة قريبة ومقبولة، وإلا خرجت عن حدودها إلى الشناعة والمهجنة والبعد عن الصواب.

يقول الأمدى في لجوئه إلى مذاهب العرب في التحكيم:

«وإنما استعارت العرب المعنى لما هو له، إذا كان يقاربه، أو يناسبه، أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حيث لا ثمة بالشئ الذي استعيرت له، وملائمة لمعناه».

ثم يعتمد إلى عرض شواهد مما جاء من الاستعارات السائغة من شعر القدماء كأمريء القيس، وزهير، ومفيل الغنوي، وغيرهم، ويختم ذلك باستعارات من القرآن الكريم، وقال:

«وعلى هذا جاءت الاستعارات في كتاب الله تعالى: نحو قوله تعالى: (واشتعل لראس شيب) (مرسم ٤)، لما كان الشيب يأخذ في الرأس، ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير حاله الأولى، كالتار التي تشتعل في الجسم من الأجسام فتحيله إلى سقود ولا حية، وكذلك قوله تعالى: (وبه لهم الليل سبغ منه النهار فرد) هم مظلومون (يس ٣٧)، لما كان انسلاخ الشئ من الشئ هو أن يتبرأ منه، ويتبرل حالاً فحالاً كاجلد عن اللحم وما شاكلها. جعل انفصال النهار عن الليل شيئاً فشيئاً حتى يتكامل الطلام انسلاخاً».

ثم ذيل كلامه هذا بقوله:

«فهذا محرى الاستعارات في كلام العرب»^(١).

ويكرر ذلك في موضع آخر فيقول:

«وإنما تستعار اللفظة لغير ما هو له - إذا احتملت معنى يصلح لذلك الشئ الذي استعيرت له، ويليق به، لأن الكلام إنما هو معنى على الفائدة في حقيقته وعجازه، وإذا لم تتعلق اللفظة المستعارة بفائدة الطق فلا وجه لاستعارتها»^(٢).

ويقول في مقام تفصيل طريقة البحري في نظم الشعر:

«وليس الشعر عند أهل العلم إلا حسن التاني وقرب المأخذ، واختيار الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له، وغير منافرة لمعناه، فإن الكلام لا يكتفى بالبهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف»^(٣).

والقاضي الجرجاني يضع القاعدة نفسها، ويشدو على النغم نفسه، ويزن الاستعارة بالميزان عينه، ويرجع جودتها وقبحها إلى مذاهب العرب القدماء فيقول:

«وكانت العرب إنما تتفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، ولمن كثرت سواثر أمثاله. وشوارد أبياته، ولم تكن تعباً بالتجسس والمطابقة، ولا تعمل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض»^(٤).

وجاء المرزوقي وجعل مناسبة المستعار منه للمستعار له من صلب عمود الشعر، ومعيار جودته، فقال:

(١) المرواة ج ١/ ٢٥٠

(٢) المرواة ج ١/ ٩١

(٣) المرواة ج ١/ ٢٥٠

(٤) الوساطة ٣٧

«إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاث كثرت سواثر الأمثال، وشوارد الأبيات، والمقاربات في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتثامها، على تخير من لذيذ النظم - ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اتصافهما لنقافية حتى لا منفرة بينهما، فهذه هي سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل باب منها معيار»^(١).

فلاستعارة الجيدة عند كل هؤلاء النقاد لا تكون إلا إذا حسن التشبيه، وقربت المناسبة بين الطرفين، وتلاحمت الصلات بين المستعار والمستعار له، وعلى هذا سارت بواكير النقاد فيها تبعاً لما عرف عن الأقدمين، وأثر عن السابقين. ونقد جلي ثلث لفكرة، وأوضحها، وشرح حقيقة الصلة بين المستعار والمستعار له الإمام عبد القاهر الجرجاني، وشعر في شرحه بطول النفس عمن سبقوه، فقال في الفصل الذي عقده في الفرق بين الاستعارة والتشبيه^(٢):

«وما يجب أن تجعده على ذكر منك أبدأ، وفيه البيان الشافي أن بين القسمين تبايناً شديداً، أعني بين قولك: زيد أسد، وقولك: رأيت أسداً، وهو ما قدمت لك من أنك قد تجد الشيء يصلح في نحو: زيد أسد، حيث تذكر المشبه باسمه أولاً، ثم تجرى اسم المشبه به عليه، ولا يصلح في القسم الآخر الذي لا تذكر فيه المشبه أصلاً وتطرحة

ومن الأمثلة البينة في ذلك قوله أبو تمام:

وكن المظل في ندي وعود دُخَاناً للصبيحة وهي نار

فقد شبه المظل بالدخان، والصبيحة بالنار، ولكنه صرح بذكر المشبه، وأوقع المشبه به حراً، وهو كلام مستقيم، ولو سلكت به طريقة ما يسقط فيه ذكر المشبه، فقلت مثلاً: «أفنتي ناراً لها دخان» كان ساقطاً، ولو قلت: «أفنتي

(١) مقدمه شرح دررهمي جبهة ابن تمام ٤

(٢) أسرار البلاغة ١٨٩

نوراً أضواء أفنتي به» تريد علمها، كان حسناً، حسنة إذا قلت: «علمك نور» في أفنتي»، والسبب في ذلك أن اطراح ذكر المشبه، والاعتصار على ذكر المشبه به، وتربله مرله وإعطائه اخلافة على مقصود عما يصح إذا تقرر شبه من مقصود وبين ما تستعير اسمه له، وتستتبيه في الدلالة، وقد تقرر في العرف الشبه بين النور والعلم، وظهر واشتهر، كما تقرر الشبه بين المرأة والظبية، وبينها وبين الشمس، ولم يتقرر في العرف شبه بين الصنينة والنار، وإنما شيء يصعبه الآن أبو تمام ويشمله، ويعمل في تصويره، فلا بد له من ذكر المشبه والمشبه به جميعاً، حتى يعقل عنه ما يريد، ويبين الغرض الذي يقصده وإلا كان بمنزلة من يريد إعلام السامع أن عنده رجلاً هو مثل زيد في العلم، فيقول له: «عندي زيد»، ويسومه أن يعقل من كلامه أنه أراد أن يقول: عندي رجل مثل زيد، أو غيره من المعاني، وذلك تكليف علم العيب.

فالإمام عبد القاهر يرى أن اطراح المشبه والاعتصار على المشبه به، واستعارة مشبه به لشمسه، وتربله مرته، وإعطائه اخلافة على المقصود، لا يصح دست في كل الحالات، وحتى حين تتلئس له أدنى الصلات، وأقل قرين بين الطرفين، كالصلة الواهية بين الصنينة والنار، وإنما تقل الاستعارة وتحسن إذا تقرر الشبه، ووضحت الصلة بين الطرفين، كالصلة الوثيقة بين العلم والنور، والمرأة والظبية، والمرأة والشمس.

وهذه الطرة إلى الاستعارة ومدى ملائمة أحد الطرفين للآخر كانت لها جذور قديمة عند المتكلمين، فقد حرص المتكلمون على تأييد تأويلاتهم للمجاز في القرآن الكريم بالرجوع إلى لغة العرب واستعمالهم في الشعر القديم.

فالمعتزلة مثلاً - كانوا يعتمدون في تأويلاتهم للمجاز في القرآن على أساس لغوي واحترام ثابت لما ثبت من لغة العرب، وكانوا يدركون أن تأويلاتهم المعبرة للمجاز القرآني لا تقع ما لم يكتسب الشرعية من الأساس اللغوي، فالآيات التي تسد الكلام للحد الخالق، والحوار الذي يدور بين الكائنات لا يؤدي معنى لقول

الحقيقي، وإنما هي مجازات لما حققتها المجردة، والشعر القديم من شأنه أن يسطر
والأشياء، «مما في قوته بسبب» ولأرض (نبتاً طوعاً أو كرهاً) ذات أنت صاعين
لم يقل الله ولم يقلوا، وكيف يخاطب الله معدوماً؟ وإنما هذه عبارات لكونها
فكائناً، قال الشاعر حكاية من فاقته:

تقول إذا درأت لها وضئى أهذا دينه أبداً ودينى

وهي لم تقل شيئاً من هذا، ولكنه رآها على حال من الجهد والكلال فقضى
عليها بأنها لو كانت ممن تقول لقلت مثل الذى ذكر^(١).

فكانت العودة إلى لغة العرب والشعر القديم مدناً ثابتاً، جعل النقاد والبلاغيين
- وحدهم من المتكلمين - يعدسون أوصافاً لعدة القديمة التى جاء القرآن معبراً
بأفضل أساليبها.

ولأن القرآن في مجازاته يسير على سنن العرب في الخطاب، وطريقتهم في
تقاليدهم اللغوية، فمن المسلم به أن يطالب كل متحدث بالحفاظ على تلك اللغة
والسير على مقتضى موروثاتها، ولا بد أن تصحح مجازات الشعر المحدث في ضوء
مجازات الشعر القديم، يقول الجاحظ: «وليس هذا مما يطرد لنا أن نقيسه، وإنما
نقدم على ما أقدموا، ونحجم عما أحجموا، وننتهي إلى حيث انتهوا»^(٢). ومعنى
هذا أنه إذا كان العرب يسمون لرجل حملاً ولا يسمونه بغير، ولا يسمون امرأة
ناقصة، ويسمون الرجل ثوراً، ولا يسمون المرأة بقرة، ويسمون الرجل حمراً، ولا
يسمون المرأة أتاناً، ويسمون المرأة نعجة ولا يسمونها شاة^(٣) فحتم على الشاعر
المحدث أن يسير على سنن العرب، وألا يفعل سوى ما فعلوا - لأن هذا من قبيل
الأشياء لنى لا يقاس عليها^(٤).

(١) تأويل مشكل القرآن ٨٢

(٢) الخيوان ج ١، ٢١٢، الصورة التى في التراث النقدي والبلاغي ١٧٣

(٣، ٤) الخيوان ج ١، ٢١٢، الصورة التى في التراث النقدي والبلاغي ١٧٣

وفي ظل هذا المبدأ نظر النقاد والبلاغيون إلى استبعاد كل استعارة تتميز عن
تلك الأساس فحدهم يقلون كل استعارة يظهر فيها التلاؤم من المعنى الحقيقي
والصورة المجزئية كتلاؤم بين «المرأة ولطيفة»، لأن التناسق بين طرفي التشبيه
يؤدى إلى تناسب في لاستعارة لأنها مبنية عليه، كما يراههم يبرعون من كل استعارة
فقدت هذا التلاؤم ويصفونها بالقبح والسماجة، كقول المتنبي:

ملكٌ مُشْدُّ القَرِيصِ لَذِيهِ يَضَعُ الثوبَ في يَدَيْ بَرٍّ

فهل يليق بالشاعر الذى يستعطف الممدوح ليرقى له ويمسحه على مدحه بأن يجعله
من بائعى الثياب وعارضى الأزياء؟

وقد بلغ أبو تمام في ذلك العاية، فقد خرج على الناس بنوع جديد من الشعر
أخرجهم من عقده لا من قلبه، فقد كان يفرص على المعاني، ويعمل فيها حياله
لحيد، فتم له نوع من الشعر لم يسبق إليه، وشأن كل حديد في كل عصر ومصر،
وفي كل علم وفن أن يثير جدالاً ويبحث نقاشاً، ومن ذلك قوله:

لَنْ يَأْكُلُوا هَمَّ وَلَا عَشِيرَتَهُمْ مَا كَثُرُوا مِنْ ضَائِبِ الْحَسْبِ

فلهم من الحسب المدحور مالا يفنى، وهم لم يأتوا عليه أكلاً، فقد تمثل الشاعر
هؤلاء الناس قوماً لم يأكلوا ما كنز لهم من حسب فالاستعارة ليست واقعة موقعية.
وقوله:

لَا تَسْقِي مَاءَ الْمَلَامِ فِلَانِي حَسْبٌ قَدْ اسْتَعْلَبْتُ مَاءَ نَكْرِي

«إضافة «الماء» للملام فيه استهجان وقبح.

وعلى أحسن ما قيل في تجويز الاستعارة فيه: أن شبه الملام بظرف الشراب، لأن
الظرف قد يشتمل على ما يكرهه الشارب لبشاعته أو مرارته - استعارة بديكائية -
ثم أثبت له الماء تخيلاً، أو يكون شبه الملام بالماء نفسه لأن اللوم قد يسكن حرارة

(١) القريض الشعر، البراز - بائع الثياب

(٢) «معنى: لا تملئ منى عاشق قد ألقت اليك واستعبدت فلا أكده أقبح عنه لومك نكاي فكيف عني - انظر

شرح التبريزي ج ١، ٢٢

القرام، كما أن الماء قد يطعم حرارة الأوام، ثم أضيف المشبه به للمشبه، كما في «لجين الماء» فيكون تشبيها، لا استعارة.

وعلى كلا التقديرين فيه استهجان من جهة أنه كان ينبغي أن يشبه الملام بطرف شراب مكروه على الاحتمال الأول، أو شراب مكروه على الاحتمال الثاني، ولا دلالة في البيت على وصف الكراهة، بل معاده أن تشبيه الملام بمطلق شراب، أو بمطلق ماء^(١).

ومع أن أبا تمام كان له أنصار يستحسنون كل ما يستقيح الناس كأي بكر الصولي^(٢) وغيره، إلا أن ابن سنان عاب الاستعارة في هذا البيت، وقال^(٣).

«وليس هذا البيت عدى محمود، ومن أقبح ما يكون بعد، قول أبي تمام:
لها بين الملوك مزاير من الذكر لم تنفخ ولا هي ترمز»

وقوله:

إلى ملك في أيقنة المجيد لم يزل على كبد المعروف من شبه برز^(٤)

وقوله:

وتقسم الساس سحدا محروا ودهنت أنت براسه وسبمه
وتركت لداس الإهدب وما بقى من فرثه وعروقه وعظامه^(٥)

ونظر كيف جعل للذكر مزاير لم تنفخ، وللمعروف كيدا لم تبرد، ولم يقنع بأن استعار للسحدا رأسا وسما وهدبا وعظاما وعروقا حتى جعل له فرثا^(٦).

ثم أخذ يتعجب من أبي تمام - بعد أن ذكر مقابح استعاراته - لأنه يأتي

(١) مذكرة اللاعة ١١٦.

(٢) أنظر الجبل أبي تمام ٣٣، وللوارنة ج ١/٢٦١.

(٣) من المصاحفة ١٣٠ وما بعدها.

(٤) هـ، التفسير يعود إلى «مدحه» في يسه سابق، توهو، في رواية ترمز، شرح التبريزي ج ٢/٢١٦.

(٥) الأيكة الشجر المنفخ، أيكة المجيد من إصافه لشبهه به إلى المشبه، شرح التبريزي ج ٢/٨٧.

(٦) شرح التبريزي ج ٢/٢٤٦.

«العجب العجائب» ويجمع بين كل الاستهجان، وكل الاستهجان^(١)
وتعالى الله كيف يذهب عى من يقول؟

أحرحتموه بكرؤ من سحيته والدار قد تنفخ من ناضير السم
ويقول:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حور
لولا اشتعال النار فيما جاوزت ما كان يعرف طيب عرق العود
لكن أعوز الكمال، واستولى الخلل على هذه الطباع، فالمحمود من كانت بينه
مغمورة بحسنه، وخطؤه يبرأ في جانب صوابه.

وقوله أيضا:

بلونك أما كعب عرضك في العلا فقال، وأما خذ مالك سر

فجعل للعرض كعبا، وللمالك خذا حين أراد أن يصور أن عرض السبع
مصون وأن ماله مبتذل، فحذف، لأن استعارة الكعب للعرض، والخذ به
لا يحطر على البال لعمده.

وأما قوله تعالى: (واخفص لها جناح الذل من الرحمة)، فإنه من الاستعارة
الحسنة الصائبة ذلك أن الطائر إذا وى أو تعب بسط جناحيه وخفضهما وأنقرته
على الأرض، وللإنسان جناح وهو ينده، فإذا خضع واستكان طأطا رأسه وحضر
يده، فحسن لذلك جعل الجناح للذل، إذ الدل يصور الإنسان بصورة الخاضع
وهوان، فيسهل تشبيهه بطائر.

وكذلك قول أبي نواس:

بُحَّ صوت المائل عما منك يشكو ونصيح

فقوله «بح صوت المائل» من الكلام النازل، ومراده من ذلك أن المائل يظلم

(١) السلم شجر يدع به واحدة سلمة، يوط خرج من الخلم إلى المصيب

من إهانتك إياه بالتمزيق، فلمعنى حسن والتعبير عنه قبيح، فقد ساقه سيافاً مستكرهاً، وأخرجه محرّجاً مستهجنًا^(١)، وقوله أيضاً:

ما يرخل المال أمتت تشكى منك الكلالا

إضافة الرخل إلى المال أقيح من إضافة الصوت إليه.

وقد قال في المعنى نفسه مسلم بن الوليد فأجاد وأحسن:

تظلم المال والأعداء من يده لا زال للمال والأعداء ظلام

وكذلك قول المتنبي:

شرف ينطع النجوم بقرنيه وعز يقلقل الأجبالا

قد جعل للشرف قرناً، وهذه استعارة قال عنها القدماء: إنها استعارة خبيثة، وقد أخذ هذا من بيت أبي تمام فأفسده:

همة تنطع الثريا وجداً ألفت للحضيض فهو حضيض^(٢)

ولا نحب أن نكثر من عرض تلك الاستعارات التي لم يوفق قائلوها، فلم نحس في مكانها، وإنما المراد التنبيه إلى الفرق بين الاستعارات المستحسنة وغيرها، وبين سل الاستحسان

وحلاصة القول:

إن حسن الاستعارة يكون بمقدار ما بين المشبه والمشبه به في التقارب والتشابه، وتصور الجمع بينهما في الذهن، ليصور المشبه في صورة تحقق غرض القائل، ولذلك كان الأدب المسمى بالرمزي بعيداً عن البلاغة، لأن الألفاظ فيه تستعمل كثيراً في معان يصعب إدراك الصلة بينها وبين المعنى الأول لهذه الألفاظ

(١) يرى الدكتور ركني مبارك أن ما ذهب إليه أبو نواس صحيح، فهو قريب العهد ببال الأعراب وما بال الأعراب ناطق، وطناً اضطربت الإبل لسكون الحرلو عند قدوم الضيفاء (المؤخرة بين شعراء ١٩)

(٢) قصص العرب ج ٣/٣١٦

والاستعارة في هذا تختلف عن التشبيه، فإن التشبيه يأتي فيها ظهر وجهه وفيها حضي ويتعد، وكلما احتاج إدراك الوجه إلى إمعان الفكر، وتدقيق النظر كان أغرب وأجود^(١)، لمتى أصيب بين المختلفين في الجس، وفي ظاهر الأمر شيها صحيحا معقولا، ونجد للملائمة ولتأليف السوى بينهما مذهناً وإليها سبيلا.

فأما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا، لأنك تكون في ذلك بمنزلة الصانع الأخرق يصنع في تأليفه الشكل بين شكلين لا يلتئمان ولا يقبلان، حتى تخرج الصورة مضطربة، ونحى فيها تتو، ويكون للعين فيها من تفاوتها نؤ^(٢).

لكن الاستعارة بعكس ذلك، ينبغي أن يكون الوجه فيها جلياً واضحاً، وإلا صارت من قبيل الألعاز والأحاجي.

الاستعارة غير المقبلة

من علامات سعة اللغة ومرونتها أن يخص أصحابها لكل معنى من المعاني لفظاً خاصاً به يدل عليه، حتى لا يتوهم الاشتراك الذي يؤدي إلى كد الذهن في تحصيل المراد، وإلى الخفاء في الدلالة على المقصود.

وعلى المتحدث أن يلاحظ وضع اللغة عند استعماله لتلك الألفاظ، لتلا تفوت الحكمة التي قصد إليها واضح اللغة.

فالعرب - مثلاً - وضعت للعصو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجاس الحيوان، فوضعوا «الشفة» للإنسان، و«المشقر» للبعير، و«الجمعة» للفرس، كذلك خصوا «المرسن» بأنف البعير، و«التؤل» لولد الحمار، و«الأظلاف» للشاة وسفرة كد الطفرة للإنسان وما شاكل ذلك من فروق.

(١) انظر فصل «تشبيه ابتدل» في «عرب»

(٢) أسرار البلاغة ١٣٠، نؤ، وحمة وفيها نؤ حال من صبح يحى ٤

فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها في غير الجنس الذي وضع له، فقد استعاره منه، ونقله عن أصله وجاز به موضعه والشاعر الذي يقول:

هَمَّتْ جُلُوسًا لَدَى مُهْرِنَا نَزَّحَ مِنْ شَفْتَيْهِ الصَّفَارُ^(١)

فاستعمل «الشفة» في الفرس، وهي موضوعة للإنسان، هو هذا الاستعمال لا يفيد شيئاً زائداً عن اللفظ المختص وهو: «الحُفْمَةُ»، إذ لا فرق بين قوله: من شفتيه، وقوله: من جحفلته، فاستعملها كاستعمال الحقيقة في خلوها من مزية سلاعه

بل إن الاستعارة تنقص جزءاً من الفائدة، فقد فوتت غرضاً من أهم الأعراس اللفظية وهو التحصيل الذي أراد صاحبه اللغة، وهذا يؤدي إلى إظهار الأديب في صورة الخجل بأوضاع اللغة، ودلالاتها على معانيها.

كما يؤدي إلى إيهام الاشتراك، وأن «الشفة» والحفلة والمشفرة ألفاظ مترادفة، وكل منها يدل على العصور المخصوص في بقية أنواع الحيوان.

ومثل هذه الاستعارة يسميها عبد القاهر الاستعارة غير المفيدة^(٢).

ومثل ذلك قول الآخر يصف إبلاً حين تشرب:

تَسْمَعُ الْمَاءَ كَصَوْتِ الْجَحَلِ بَيْنَ وَرِيدَيْهَا وَبَيْنَ الْجَحْفَلِ^(٣)

فقد استعمل «الجحفل» بدلاً من «المشفرة».

وقول رؤبة

أَيَّامُ أُنْدَتِ وَاصْحَ مُنْعَا أَغْرَ بَرَقًا وَطَرَقًا أَدْعَا
وَمَقْنَةُ وَحَاحَتِ مُرْخَحَ وَفَاحَهَا وَمُرْمِنَا مُسْرَحًا^(٤)

(١) الصغار الفراء، وما بقي في أصور أستاذ البداية من النش وسجوه، وهو نراد هـ

(٢) أسرار البلاغة ٢٣

(٣) الجحل كبير، حمار الوحش، له حشرة يشبهون بها كثيراً، وهو آلة السحل أيضاً، ومنه المبرد (٤) واصحاً أي سنا واصحاء الصبح بالتحريك، تباحث ما بين الأستاذ، أغر: أبيض، الدعج بالتحريك، اشاع العين وحسنها، مقنة: المراد حدة العين، المرخج: الرقيق، فاحاً أي شرّ قاحاً (نظر المعاني في صوره أساليب القرآن للمؤلف ٤٨)

فاستعمل الشاعر «المرسن» في أصل المراقبة، على الاستعارة^(١).

وكذلك قول أوس بن حجر:

وَذَاتُ يَدْمٍ عَارٍ عَلَى بَوَاشِرُهَا تُصَمَّتُ بِالْمَاءِ تَوَلَّيْنَا جَدْعًا^(٢)

فأجرى «التولب» على ولد المرأة وهو موضوع لولد الخمار.

وقول مزرود:

فَمَا رَقَدَ الْوَلْدَانُ حَتَّى رَأَيْتُهُ عَلَى الْبُكْرِ يَمْرِيهِ بِسَاقٍ وَحَافِرٍ^(٣)

فقد قالوا: أراد أن يقول: بساق وقدم، فلما لم تطاوعه القافية وضع الحافر موضع القدم.

وكل هذه الشواهد عدها الإمام عبد القاهر^(٤) من قبيل الاستعارة غير المفيدة - التي لا تنحرج عن مجرد لتوسع الدعوى، فلا تهدف إلى مبالغة في التصوير، ولا إلى فائدة بلاغية.

أما إذا هدفت إلى معنى وأريد بها غرض بلاغي، فاستعملت مثلاً في موضع الذم والمبالغة في الهجاء والتهكم فعندئذ تكون من الاستعارة المفيدة

ومن ذلك قولهم: «إبه لعليط الجحافل، وغليظ المشافرة» في مواضع الذم، فصار بمنزلة أن يقال: كأن شفته في الغلظ مشفر البعير، وجحفلة الفرس.

فلاستعارة في مثل هذا بيت على تشبيه، وأفادت ذماً، وعلى هذا جاء قول الفرزدق يخاطب أيوب بن عيسى الضبي، وكان قد حبسه، فقال يهجو ويطنن في نفسه من جهة أمه:

(١) سعى السكاكي هذا النوع مجازاً مرسلًا حالاً من الفائدة، ويرى صاحب أنوار الريح أن الحكم بأنه من الاستعارة أو المجاز المرسل إنما هو تابع لفصل الكلام عن لاحظ الحكم المشابهة فهي استعارة، وإن لاحظ الإطلاق بعد التقييد فمجاز مرسل (نظر المتاح ١٧٢، بغية الإيضاح ج ١٠٣/٣، أنوار الريح ٦١٨)

(٢) أهدم التوب الباء الواشر مع مباشرة وهي عصب في باطن المذراع، صمت: سكب، الخدع السوء العلاء

(٣) يمره يستخرج ما عنده من الج

(٤) لأسر ٢٣

فلو كنت صبياً عرفت قراتي ولكن زنجياً صليط المشافر
أي، ولكن زنجياً لا يعرف قراتي (وبوضه : هم أحوال الفرزدق). ومثله
قول الخطيئة يلزم الزيرقان بوضاعة الصيف :

قَرَوَا جَارَكَ الْعَيْمَانَ لَمَّا بَجَفَوْتَهُ وَقَلَصَ عَنِ بَرْدِ الشَّرَابِ مَشَافِرُهُ^(١)
فاستعمل كلا الشاعرين «المشافر» مكان «الشفة» للإنسان، وقد صارت
لاستعارة مقولة لبائها على تشبيه مقول، وأريد بها غرض بلاعي حيث
استعملت في الذم والهجاء.

استعارات لا تستسيفها البيئة

لاستعارة أساسها التشبيه - وقد عرفنا أن التشبيه يخنف في قيمته وحسنه تبعاً
للرس وليئة، ويسرى هذا الحكم على الاستعارة أيضاً، فمثلاً يقول رهبراس أبو
سلمى في وصف آثار الحرب :

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجُمِ
فَتَعَرَّكُمُ عَرَّكَ الرَّحَى نَبْطُهَا وَتَلْقَحُ كَيْشَافًا ثُمَّ تُثْبِتُ قَيْشُكُمْ^(٢)

فزهير يحذر قبيلتي عس وذبيان من آثار الحرب السيئة ويقول لهم : إنها تعنى
رجالكم، وتهلك أبطالكم، وتجهدكم كالحب عندما يدخل الرحى، فلا يخرج
إلا وهو مفتت ومطحون، ثم يقول : إن الشرور والآثام التي تصاحب الحرب
وتتلازمها، تصل من الكثرة والعظم حتى تكون بمنزلة أولاد البوق التي تواصل
الولادة كل سنة وليتها تقتصر على مولود واحد فقط، بل تلد في السنة توأمين.

(١) قرأوا : أضاءوا، العيمان : المعشاة إلى العيس، قلص : انقبض وانكمش من تأثير البرد، أي لم يجد عنه
إلا الماء، فمن للمطش بوزن ثمانية حتى صارت كتاباً مشافراً

(٢) الخبيث مرجم : الذي ليس يستحق العرش، الطعس : الضال جلد أو حرقه يجعل تحت الرحى يرفع
عنها الطحين، اللقح : الحبل، كشافاً : أن تفتح الناقة كل سنة، وديك أردأ التاج : وأجسه أن تحمل سه
وتسريح سه : تسم : تلد اثنين في بطن، والبد : في دماغها بمعنى مع، مثل جاء فلان بالبد، أي ومع السيف
(يعتصم ٩)

ففي الشطر الأول من البيت استعارة تبعية في «تعرركم» : فقد جعل إثناء
الحرب للقوم بمنزلة طحن الحب في الرحى.

وفي الشطر ثان منه استعارة تشبيهية، إذ استعار البوق التي تلد في السنة توأمين
مثلاً لكثرة الشرور والآثام الناجمة عن الحرب.

وزهير هذا التصوير للحرب، يُقد في قائمة البياتين عند القدماء، لأنها صورة
منطقة تماماً على البيئة الصحراوية التي كان عملها المستمر في تبارها وشغلها
الشاغل في ليلها هو طحن الحب بالرحى، والرمي، واستخدام الإبل في
لصحراء.

ولكن اليوم قد غميت صورتان، لذلك لم تكن استعارتها موضحة،
ولا راسمة للصورة المطلوبة، كما كان ذلك في زمنهم.

ويقال : «يس الثرى بين الصديقين، ويجعلون ذلك مثلاً لما بين الصديقين إذا
تقاطعا وفسد ما بينهما، كما يقال : «جُمد الثلج بينهما»، ويستعار ذلك لحل
لصديقين إذا تقاطعا وفسد ما بينهما كذلك.

فالاستعارة الأولى لا يتصح معناها ولا يحسن استعمالها إلا في بلد ذي زرع
ومراع، فإذا نزلت الأمطار أمرعت وبدأ خضها وجمالها، وإذا حرمت المطر،
يست وأجدت، وبدت وحشتها وقمارها.

ولصورة الثانية لا يحسن استعمالها إلا في بلاد ذات بحار يتجمد ماؤها ويثهد
الرائي جمود ما بين السفيتين حتى يستحيل أن تصل إحداها بالأخرى.

وإذا استعملت هاتين الحمتين هذا الاستعمال دلت الصورة المرئية على ما يراد
تصويره مما بين الصديقين من قطعية، وعدم تواصل.

أما إذا عكس الاستعمال فاستعملت الحملة الأولى للجماعة في ود غير ذي زرع
وليس محلاً للمراعى والأمطار، ولا يدركون يس الثرى وجده، ولا إمرأه
وحصيه، فهكون الصورة منكورة ودلالاتها غير جلية.

وكذلك إذا استعملت الحملة الثانية في بلاد ساطع شمسها، د ثم دوزها، تصير

الصورة باهية وغير بية

وقد أخذت العرب كثيراً من الاستعارات من أوصاف الدقة، كانوا يألوهها أي إلف، ويعرفون أجزاءها، فاستمدوا منها الاستعارات، ووسعوا بها النعة، وأكثروا بها سبل التعبير فقالوا:

أناخ عليه بكلِّكَلِه، ووطئه بمنَّمه، وألقى الخنل على الغارب، وما زال يعتل منه في الذرَّة والغارب، ولا ناقة لي فيها ولا جمل.

وقد كانت تلك الصور حسة التصوير عندهم، واضحة الدلالة عما يريدون، ونحن الآن لا نستعملها إلا من طريق التقليد والمحاكاة، إذ لا توصح لنا ما كانت توصح للعرب، لأنهم كانوا يرون الناقة، ويعرفون بالدقة صفاتها وعصانصها.

وكانوا يضربون المثل في بعد المسافة - قديماً - فيقولون: قطع ما بين غانة وقرعانة، وغانة: بلد في غرب إفريقيا كانت أبعد المحطات غرباً، وفرغانة: في بلاد الترك، وكانت أبعد البلاد شرقاً، واليوم لم تنق لها هذه الخاصية وليس لها من الشهرة في الأسفار حتى يصرب بهما المثل في البعد.

عل أن من الاستعارات استعارات واضحة الدلالة في كل وقت وزمان لبنائها على شيء واسع لا يكاد يختلف باختلاف العصور، كما نشاهد ذلك في استعارات القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) (آل عمران ١٠٣).

فقد كان العرب في الخاطلية بسبيل أن يهلك بعضهم بعضاً، لما بينهم من خصومة وعداء، ومن عارات وحروب، فصورهم القرآن في صورة من كان على حافة حفرة مثبت ناراً، لا يلبث أن تزل به قدمه فيهوى إلى النار، ثم تكون مصادفة في لإيجاد الإعجاب، بذلك عبر بالمعنى المصطفى فأنقذكم من

وفوه (فمن أسس عليه عن نفوى من الله ورضوان حملاً أم من أسس عليه على شفا حُرُوبِهِمْ) (التوبة ١٠٩)

(١) الشفا: الحروب، جوف الروابي: جانب الذي تحرقه السيوف ونحوها، مأخوذ من

فحينما تتمثل بناء أقرت أسسه على حافة نهر تحرقها المياه، ويقدر ماله من بقاء، أو استقراره، نوقن أنه بناء مهيار متساقط، فهذا مثل العمل الذي أسس على نفاق ورياء، يكون لا قرار له ولا أمل في بقائه واستمراره، وعودة إلى شواهد القرآن السابقة يتضح ذلك كل الوضوح.

الإسراف في صور البيان

عرفنا أن صور البيان من التشبيه والاستعارة والكناية، تعين على توضيح الفكرة، وتعمل على جلاء الصورة، وتغرس المتلقى لأحد صورها بالمعنى مصوراً شديداً القوة، عظيم التأثير، وهذا إذا حسن استعمالها، وأجيد اختيارها، ووضعت في أليق المواضع بها.

إلا أن هذه الوسائل اليبانية ينبغي أن تستعمل في الكلام بقدر، فإذا استكثر منها كثرة تجاوز الحد اللائق بالمقام عادت سبباً للدهشة، وكذبت العقل في فهم المعنى وتصوره.

مثلاً قول الشاعر يصف حبيته حين علمت فراقه:

فأمطرت لؤلؤً من نرجس، وسقت ورداً، وعصت عن العباب بالبرد
فقد عر عن الهكاه بالأمطار، وعن الدمع باللؤلؤ، وعن العين بالنرجس، وعن تحدر الدمع على الحد بالسقا، وعن الحد بالورد، وعن الأمان - أو الشفتين - بالعباب، وعن الأسنان بالبرد

فأكثر الشاعر من الاستعارات المتتابعة في البيت الواحد، فيه سبع استعارات من مجموع الكلمات العشر للبيت، فتتابع تلك الاستعارات وكثرتها استلزمت كد عقل السامع وتلاحق تفكيره حتى يفهم المعنى ويتمثل المراد، كما أن تناسلها دليل على عناء القائل، وتكلفه في حشدها، وسبباً لجهد الشاعر في صوغها.

ومثله قول الشاعر:

نقتر عن لؤلؤ رطب، وعن برود وعن أفراح، وعن طلع، وعن حبيب

فترى تراكم الاستعارات في لبيت مما أجهد عقل السامع في فهم الصورة وأنعب الشاعر في صوغها.

وقلا ينبغي ألا يسرف الشاعر على نفسه في استخدام المجاز والاستعارة حتى لا يتحول شعره إلى طلاس من تخلق أفكاره حصفاً، وحققاً، لغة الشعر تقوم على الإيجاز والرمز، لكن ينبغي أن يكون كالكيميائي الذي يحسن مزج العناصر بعضها بعض ليصل إلى ثمرة يفره العلم، ولا يريد عصر ريادة من شأها أن تحل محل تحرية، وتحيث غشاء، وشاعر يحقق حين يسرف في استخدام بكتيات لمخاريه مرة، لأنه إن رد عن حده، أغتت لغة اشعر إلى رموز، بل إلى ألعار وأحاح لا يفهم، ومن ثم كان المذهب الرمزي يجتدح إلى بد صاع، بحيث لا يفسد لفظ أهداف إلى عيم مظلم، بل إلى دج، لا يبين فيه أحد شيئاً، إذا تركت فيه انطباعات بعضها فوق بعض.

ومثل تراكم الاستعارة تراكم التشبيه، مثل قول أبي القاسم الزاهي:

سَعَرَنَ نُورًا، وَنَفْسُ هُمَةٌ وَبِشْنُ غُصُونًا، وَالتَّقَنُّ جَانِبًا

وقول الآخر

بَدَتْ قَمَرًا، وَمَالَتْ خَوْطُ بَانٍ وَفَاحَتْ عَنَبْرًا، وَزَنْتَ خَرَالًا

وقول الآخر:

هِيَ الطُّنَى جِيدًا، وَالْغَزَلَةُ مُقَلَّةٌ وَزَوْصُ الرِّبَاعِ عَرَفًا، وَغُصْنُ النَّفَقَةِ

وقول البحتري:

دَبَّ حَسَنٌ بَوَاسِرَتْ مِنْ حُسْنٍ بِرِّمَا أَصَابَتْ مَرِيْدًا
فَهِيَ الشَّمْسُ بَهْجَةً، وَلَقَصِيْتُ لِلدَّ نَ قَدَاءً، وَالرَّيْمُ طَرَفًا وَجِيدًا

فالتشبيه المتتابع يكبد عقل السامع بتلاحق تفكيره حتى يتمثل المراد، وبهم المعنى، كما أنه دليل على تعب القائل، ومكانته في الصياغة «ومثل الشاعر الذي

يرمى بالتشبيهات على صفحاته من غير حساب، مثل الرسام لدى تعرضه لمظهر الألوان فيملأها رسمة من غير حساب»^(١).

الفرق بين التشبيه والاستعارة

ما سبق يتضح أن الاستعارة تختار عن التشبيه بوحوه:

١ - أن التشبيه يقوم على دعامتين هما الطرفين، وملاحظة التعبير الثنائي - المشبه والمشبه به - أما الاستعارة فتلاحظ التعبير الأحادي «المشبه به أو المشبه»، فأحدث فيها عن المشبه فقط، أما المشبه فتوسى وأهم، بدليل أنها تحدث عنه بلفظ المشبه به في الاستعارة التصريحية، أو بصيغات المشبه به ولوازمه مع المشبه في استعارة المكنية، فالقواصل أزيلت بين الطرفين، والخواجز قد كسرت بينهما.

٢ - أن التشبيه والاستعارة يتفقان في كونها مشاركة أمر لأمر في معنى، لكن هذه مشاركة في التشبيه عموماً ذكر الطرفين سواء كانت الأداة والوجه معاً أو لا، أما في الاستعارة فتكون المشاركة في التجوز، الأمر عنه باستعمال اللفظ في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة.

٣ - الغاية في التشبيه إحقاق ناقص بكامل، لكنها في الاستعارة عبارة عن دعوى الاتحاد بينهما، وادعاء أن المشبه عين المشبه به قصداً إلى المبالغة.

٤ - أن المشبه في التشبيه يحسن أن يكون ظاهراً، وأما في الاستعارة فإنه يحسن أن يكون غير ظاهر، ولهذا قال البلاغيون: لو كان في الكلام ما يدل على المشبه كان تشبيهاً لا استعارة. ولذا ضعفوا الاستعارة في قول الشاعر:

لَا تَعْنَحُوا مِنْ بَلَى عَلَاتِيهِ قَدْ رَزَّ أَرْزَارُهُ عَلَى الْقَمَرِ^(٢)

(١) مقدمه لخرق الخفاص من ديوان عبد الرحمن شكري ص ٣٦٣

(٢) البلى من بلى الثوب إذا فسد، والعلاية ثوب قصير ضيق الكمين «القميص» بلس تحت الثوب، ووزد القميص. شد أزراره

قال معص اليانيس : إن « القمر » مستعار للإنسان الخميل . لكن يُضعف هذه الاستعارة الجمع بين طرق التشبيه فعلى البيت ثلاثة ضماير تعود على المشبه هي : الضمير في « غلاته » زرّ « أزواره » وهذا مما يجعل لفظ « القمر » أقرب إلى التشبيه الضمعي ، وهو من أحسن أنواع التشبيه .

وحجة من قال بالاستعارة أن الطرفين ذكرا على وجه لا ينسب عن التشبيه ولا يدل عليه ، لأن سياق الكلام إنما هو لإثبات شيء واقع على « القمر » وهو زر الإزواره لا لإثبات التشبيه .

وعلى كل فوجود ما يدل على المشبه يجعل الاستعارة رديئة ، ولأن يكون رأيا في التشبيه أحسن من أن يكون ذبلا في الاستعارة .

الباب الثالث الكناية

لمحة عن تطور لفظ « الكناية »

الكناية مصطلح قديم ، فقد استعمله شريح الكندي ٧٢٢ هـ ، فيما أورده الجاحظ^(١) من مثل قوله « الحلة كناية عن الجهل » .

سومحدث سيبويه دت ١٨٠ هـ عن الكناية وأراد بها الإخفاء والستر ، وذلك بأن يتكلم الشخص بشيء ويريد به شيئا آخر ، فيقول : « تقول العرب : يا فل ، وإنما بُني على حرفين ، ولم يجر في غير النداء ، لأنه إذا جعل اسما لا يكون إلا كناية لمنادى ، وأما « فلان » فإثما هو كناية عن اسم سمي به المحدث عنه ، وقد اضطر الشاعر فبناء على حرفين ، وفي هذا المعنى ، قال أبو النجم :

❖ في لجة أمسك فلانا عن فل^(٢) ❖

و « فلان » و « فل » كناية عن شخص مجهول أو شخص معين لا يعرف اسمه ، غير أن « فل » استعملت على حرفين فقط في النداء ، وحادث في البيت على حرفين بدون نداء ضرورة .

وبهذا نرى أن سيبويه أراد من الكناية معناها البغوى وهو الستر والإخفاء .

(١) الباء والسين - ٢٦٣/١

(٢) الكناية ج ١ - ٣٣٣/١

وجاء أبو عبيدة «ت ٢٠٧ هـ»، فأطلق الكناية على نوعين من الأساليب:

١ - كل ما بهم من الكلام من غير أن يذكر اسمه صريحاً، فعدُّه يذكر قوله معنى (كل من عليها دم) (الرحمن ٢٦)، وقوله (حتى توارث ما أحب) (ص ٣٢) وقوله (كلأ د. نلت الترقى) (القيمة ٢٦) عقب عليها بأن الله كفى في الأولى عن الأرض، وفي الثانية عن الشمس، وفي الثالثة عن الروح، من غير أن أجرى ذكرها، كما قال حاتم الطائي:

أدوي ما يُفنى الثراء عن الفنى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الضلُّ
يعنى حشرجت النفس.

فاللفظ الصريح الموضوع للمعنى مستور أو مخفف وراء هذا اللفظ المذكور الذي كفى به عنه.

٢ - الحديث عن الغائب، فبعد أن ذكر قوله تعالى: (حتى إذا كنتم في الفلك وحرث هم بريح صبيئة) (يونس ٢٢) عقب عليها بقوله: إنه رجوع من المحادثة إلى الكناية، والعرب تفعل ذلك كقول النابغة الذبياني:

يادار مئة بالعنباة هالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
فقال: «يادار مئة» ثم قال: «أقوت».

وقد تنتقل من الكناية إلى المخاطبة كقوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين)^(١).

ومثل هذه الصور عدها العلماء - فيما بعد - من قبيل الالتفات. وكلا الصورتين عند أبي عبيدة لا ينطق عليها صورة الكناية الاصطلاحية.

وفي بحوث المحاظ «ت ٢٥٥ هـ» أشار إلى صور من الكناية في مثل قولهم:

«فلان مقصده» إذ جعله كناية عن الحل^(٢).

فهذه الصورة التي استتر فيها المعنى وراء لفظ آخره أطلق عليها الكاتب.

وفي بديع ابن المعتز «ت ٢٩٦ هـ» فقد فصلا تحت اسم الكناية والتعريض^(٣) وعدهما من محسنات الكلام، ولم يصف جديداً، فلم يفرق بينهما، أو يعرف أحدهما.

أما المبرد «ت ٢٨٥ هـ»، فقد قسم الكلام إلى ضروب، وجعل الكناية أحد تلك الضروب، ثم جعلها على ثلاثة أضرب^(٤).

١ - التعمية والتعطية، كقول النابغة الجعدي:

أكني بغير اسمها وقد علم الد - خفيات كل مكتنم

٢ - الرعة عن اللفظ الخسيس المحش إلى ما يدل على معناه من غيره، قال الله تعالى: (أجل لكم ليلة الصيام الرفق إلى نسائكم) (البقرة ١٨٧).

٣ - التفعيم والتعظيم، ومنه اشتقت الكية، ومنه يقل كفى بكدا عن كدا، أي ترك كدا إلى كدا.

وهو أيضاً لم يضع تعريفاً للكناية لكنه قسمها، وفي تقسيمه هذا بيان لما تزديه لكناية من فائدة في صناعة الكلام.

ولما جاء قدامة بن جعفر «ت ٣٣٧ هـ» ذكر في «اتلاف اللفظ والمعنى» صورة بلاغية سماها «الإرداف» وعرفها^(٥): بأن يريد الشاعر الدلالة على معنى من المعنى

(١) البيان ج ١ ص ٢٦٣

(٢) البديع ١١٥

(٣) بكامل ج ٢ ص ٥

(٤) نقد الشعر ١٧٨

فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع. واستشهد على ذلك بقول الشاعر:

نجيدة مهوى القرط إما لتؤفل أبوها، وإما عبيد شمس وهاشم

فإنه أراد أن يصف طول الجيد، فلم يذكره بلفظه الخاص، بل أتى بلفظ يدل على معنى هو تابع لطول الجيد، وهو بعد مهوى القرط.

مقدمة لم يسم هذه الصور البلاغية بالكناية وإنما سماها الإرداف.

وأبو هلال العسكري «ت ٣٩٥ هـ» تكلم عن الكناية تحت اسم «الكناية والتعريض» وعرفها بقوله: «وهي أن يكفى عن الشيء ويعرض به، ولا يصرح عن حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء، كما فعل النجاشي إذ بعث إلى قومه بصرّة شوّث، وصرّه رمي، وحطه، يريد: حذركم بوحصه في عدد كثير ككثرة رمي والشوّث، وفي كتاب الله عز وجل: (أو حذّكم من العند أو لا تمسّم النساء) (المائدة ٦)، فالعائط كناية عن الحاجة، وملامسة النساء: كناية عن الجماع.

ثم قال: «ومن التعريض الجيد ما كتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون، أما بعد: فقد استنفع بى فلا إلى أمير المؤمنين، لبطول عليه في إلحاقه بطرائه من لمرترقين فيما يرتقون، فأعذمت أن أمير المؤمنين لم يجعلنى في مراتب المستنفع بهم، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته، والسلام.

فوقع في كتابه: «قد عرفنا نصريحك له، وتعريضك بنفسك، وأجسالك إليها، ووافقتك عليها»^(١).

ولا ندري لماذا فرق في الشواهد بين الكناية والتعريض، أكان يرى أن هناك فرقاً بينهما، ففرق في الشواهد والتمثيل؟

من كان هذا مراده، فيكون هو السابق في التفريق بين النوعين.

ولا إحالة رأى ذلك ولا علمه، بدليل أنه عقد فصلاً آخر سماه «الإرداف والتتابع»، وأتى بأثلة عديدة مما ينطبق عليها الكناية كقوله تعالى: (فيهنّ قاصرات لُطُوف)، «فصور لُطُوف في لأصل موضوعه عدف على جهة لتتابع والإرداف، وقول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدة مهوى القرط، إما لتؤفل أبوها وإما عبيد شمس وهاشم

فإنه أراد أن يصف طول عنقها، فأتى بما دل عليه من طول مهوى القرط، وبعد مهوى القرط ردف لطول العنق^(٢).

وهذا مما يدل على عدم وضوح صورة الكناية أمامه، وغموض التفرقة بين الإرداف، والكناية، والتعريض.

وبن رشيق «ت ٤٦٣ هـ» بحث الكناية تحت باب الإشارة^(٣)، وقد جعلها إصداراً عما تشتمل: روحى، وإلإى، والنصحية، ولتعريض، وسوج، والكناية وتمثيل، وبرمر، ولعبر، ونصح، ولتورية، وتسمع، ويلاحظ أنه جعل الكناية والتمثيل شيئاً واحداً، واستشهد لكل ذلك.

وكناية مع غيرها من تلك التسميات تكون باب الإشارة، وبذلك يصح تعريف كناية لا مردفاً لها. وهكذا يرى أن الكناية عنده أوسع محلاً من الذين سبقوه، وأكثر صوراً، فما دامت قائمة على ستر المعنى وخفائه وراء لفظ آخر، فيدخل تحت هذا المعنى كل ما كان هذه الصورة وإن اختلفت التسميات

وجاء ابن سنان «ت ٤٦٦ هـ» فتكلم عن الكناية تحت «جريان الكلام عن

(١) الصاعدي ٢٧٥

(٢) العدد ٢٦١ و بعد

(١) الصاعدي ٢٩٠

العرف العربي الصحيح^(١)، فيقول^(٢): «ومن هذا الجنس حُسْنُ الكناية عما يجب أن يكفى عنه في الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح - وذلك أصل من أصول الفصاحة وشرط من شروط البلاغة، وإنما قلنا في الموضع الذى لا يحسن فيه التصريح، لأن مواضع اهزل، والمجون، وإيراد الواحد، يليق بها ذلك، ولا تكون الكناية فيها مرضية، فإن لكل مقام مقالا، ولكل غرض فناً وأسلوباً... ثم أخذ يستشهد للحسن من الكناية، والقبح منها مبيناً سبب الحسن والقبح.

وفي مكان آخر يتحدث عن «الإرداف والتسع»^(٣) ويجعلها من نعوت البلاغة والفصاحة، ويمثل لذلك بما مثل به الآن للكناية شعراً ونثراً. ويلاحظ أنه بحث الكناية وترك التعريض، ولعل ذلك استغناء بأحدهما عن الآخر.



وعند شاهر خرجي^(٤) ت ٤٧١ هـ. بحث نكبة في عدة مواضع، فيها قال: «والمراد من الكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره بلفظ موضوع له في الجملة، ولكن بجيء إلى معنى هو تاليه وردده في الوجود فيسمى به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: «هو طويل النجاد» يريدون طول القامة «وكثير رماد القدر» يعنون كثير القرى، وفي المرأة «نؤوم الصحن» والمراد: أنها مترفة مخدومة لها من يكفها أمرها، فقد أراد في هذا كله - كما ترى - معنى ثم لم يذكره بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردده في الوجود، وأن يكون إذا كان، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد؟ وإذا كثرت القرى كثرت رماد القدر؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفها أمرها رددت ذلك أن تنام إلى الصحن»^(٥).

(١) سر الفصاحة ١٥٥

(٢) سر الفصاحة ٢٢٩

(٣) الدلائل ٥١

فقد عرفها، وخرج تعريفها، وبين حسن تصويرها وقوة بلاغتها في أسلوب رائق، وعرض شائق.



وجاء السكاكي ت ٦٢٦ هـ. فعرف الكناية بقوله^(١): «وهي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما هو ملزومه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: «زيد طويل النجاد» فينتقل منه إلى ما هو ملزومه، وهو طول القامة.

ثم قسم الكناية من حيث المطلوب بها إلى ثلاثة أقسام.

كناية عن موصوف، وكناية عن صفة، وكناية عن نسبة.

كما قسمها من حيث مفهومها إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء، وإشارة وهو تقسيم منطقي يعتمد على العقل والمنطق - وكل هذه الأقسام تفيد الكناية غير أن بعضها أوضح من بعض.

وقد عاصر السكاكي ضياء الدين بن الأثير ت ٦٣٧ هـ، فتناول الأسلوب الكناثي تحت اسم «الكناية والتعريض»^(٢) وقد صدر كلامه بعتابه الشديد على العلماء إذ خلطوا بين الكناية والتعريض، ولم يفرقوا بينهما، ولم يحددوا لكل منهما حدوداً فاصلة، ولذلك عرف الكناية - منفردة عن التعريض - بأنها لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانب الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز، ثم بين اشتقاقها اللغوي، ومثل لها بعدد من الأمثلة.

ثم أورد كلاماً عن التعريض^(٣) وعرفه: بأنه اللفظ الدال على الشيء من طريق مفهوم موضوع الحقيقة ويجرى، حيث إذا قلت لم يوقع صنته ومعرفة غير طلب: والله إلى محتاج، وليس في يدي شيء، وأنا هريان، والبرء قد أذن، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازاً، وإنما دل عليه من طريق المفهوم.

(١) الفتح ١٨٩

(٢) النثر السائر ج ٢/٢٩

(٣) من النثر ج ٢/٢٩

استقيم في الآية ذكر ذلك فكفى عنه.

وقد أنكر الكناية - في - الآية - الجاحظ، وقال: بل الكلام عن ظهري،
ويكفى في الدلالة عن عدم الإلهية أكل الطعام نفسه، لأن الإله هو الذي لا يحتاج
إلى شيء يأكله، ولأنه كما لا يجوز أن يكون المعبود محدثاً، كذلك لا يكون
طاعماً^(١) وقد علق ابن سنان الخفاجي حل هذا وقال: وهذا صحيح^(٢).

وبل الثعالبي عن الجاحظ أيضاً فقال: عابهم الجاحظ بهذا التفسير وقال
«كأنهم لم يعلموا أن من الخروع وما يدل أنه من بدلة والعمراد دليل على أنهم
مخلوقون، حتى يدعوا حل الكلام شيئاً قد أغناهم الله عنه»^(٣).

لكن بكديه أوقع وأد عن العرص، لأن الكسرة عن مدح فيه تشيع وشاعة
على من اتخدها آفة.

٢ - وقوله تعالى في الحديث عن السيدة مريم: (وَأَلْنِي أُخْصَصْتُ لِرَجُلٍهَا فَتَفَحُّشْتُ
فِيهَا مِنْ رُؤُوسِنَا، وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء ٩١).

يقول الزركشي: «أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقى، وإنما هو من لطيف
الكنايات وأحسنها، وهي كناية عن قرع القميص، أى لم يعلق ثوبها ربية، فهي
مدمرة الأثوب ومفروحة لقميص أربعة الكعبين ولأعلى والأسفل، وليس المراد غير
هذا، فإن القرآن أنزه معنى، والطف إشارة، والمع عبارة من أن يريد ما ذهب إليه
وهم الجاهل»^(٤).

٣ - ويقول: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ، وَلَا تَمْسُكْهَا كُلَّ الْبَسْطِ،
فَتَعْتَدَ مَوْتاً مَحْسُوراً) (الإسراء ٢٩).

فالعمل إلى العنق كناية عن السخل، وفي الكناية تصوير محسوس لهذه الصفة
الذميمة في صورة متفردة، والبسط كناية عن الإسراف والتبذير، وهو تصوير له

(١) البرهان ج ٢، ص ٣٠٤.

(٢) من المصاحفة ١٥٨.

(٣) الكنايات ٢٩.

(٤) نهج ج ٣، ص ٣٠٥.

بصورة ملموسة تجعل المعنى قوياً مؤثراً.

٤ - وقوله: (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قُلُوبُهُمْ وَلَا جَانٌّ
(الرحمن ٥٦)).

فقصر الطرف كناية عن العفة، وأن نساء أهل الجنة يقنعن بأرواجهن فلا
يتطلعن لغيرهم.

٥ - وقوله تعالى من على المسلمين بالنصر: (وَأَوْزَكْنَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدْيَارَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَقْلُوبُوا) (الأحزاب ٢٧).

«طاهر الآية دأب على أن الأرض هي العفارات، ولدير هي المساكن،
والأموال هي مقولات، وقوله (وأرضاً لم تقلوبوا) يحتمل أن يكون كناية عن
فروج نساء وبكاهن، وهذا من حيد الكنايات وديرها، مصدقها بقوله تعالى:
(نَسَاؤُكُمْ خِرَافٌ لَكُمْ) (البقرة ٢٢٣).

والخرث بما يكون في الأرض، فلهذا ازدادت رشاقة وحسن^(١).

وعلى الجملة فلا نجد معنى من هذه المعاني في الكتاب العزيز يأتي إلا بلفظ
الكناية، لأن المعنى الفاحش متى عبر عنه بلفظه الموضوع كان الكلام معيياً من
جهة فحش المعنى، ولذلك نقل قدماء أسهم عدوا على امرئ القيس قوله

فمنك حن قد طرقت ومزصع فاقبتها عن دي نادم تحول
دا ما بكى من حنمها انصرفت له شيق وتخي شعها لم يحول

من جهة فحش المعنى^(٢). يريد أنه عبر عنه بلفظه، فجاء الكلام فاحشاً، وهو
عيب تنزه عنه القرآن الكريم.

ولو استعار امرؤ القيس لمعناه هذا لفظ الكناية كما فعل في قوله:

(١) الطراز ج ١، ص ٤٠٦.

(٢) نقد الشعر ١٨، الطوق: الإتيان ليلاً، الموضع: التي ما ولد ربيع، التائم: الكتب التي تعلق عن
حق الصبي، محول: أن عليه حول.

ألا رعت منه اليوم أنى كرت، والأيتجن السر إثنائي
لم يكن إلى عه من سبل، وقد ذهب كل من سر شعوه من العلء أنه أراد
بالسر الوقاع^(١). كقوله تعالى: (ولكن لا تواعدوهم سراً) (البقرة ٢٣٥).
كما عابوا على المتبى قوله:

إنى على شغفى بما فى حرها أعف عفا فى سراويلاتها

إد كنى عن مكان الاستمتاع من المرأة به «عفا فى سراويلاتها»، والشاعر مع
استعماله الكناية لم يوفق فى اختيار اللفظ التى توفى الغرض منها، فقد عر بلفظ
«أعف» وهو شديد الصلة بمكان الاستمتاع، كذلك لفظ «سراويلاتها» شديد
الصلة بذلك المكان - ففى محاولته البعد عن التعبير المستقبح لم يوفق، حيث جاء
بالعاط وكأنها تنطق بالفحش لقرب تخيل هذا المكان للذهن عند ذكر مثل هذه
الأعط، وهذا ما بعد ما كناية عن غرض المطلوب، وهو تزيه اللسان عن الطلق
بما يستقبح ذكره.

وقد مثلوا لما هو أخف من هذا بقول الشريف الرضى:

أحن إلى ما تضمن الخمر والخل وأصدف عما فى ضمان المآزر

فقد كنى به «ما فى ضمان المآزر» عن مكان الاستمتاع من المرأة، وقد بعد بهذه
لكناية عن ذكر المستقبح.

ومع هذا فكنايات القرآن عن هذا العرض أحسن وأبلغ، وأبين الثرى من
الثريا؟، وفرق بين كلام المخلوق وصناعة الخالق؟.

٦ - وقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا أنقستم لبعضكم بعضاً فلا تولوهم لأذيار
ومن يؤمهم يومئذ ذبهم لا متحرف لقتل أو متحير إلى فئة فقد باء نعصب من الله
ومأواه جهنم وبئس المصير) (الأفال ١٥، ١٦)

فالأذبار جمع ذب وهو الخلف، ويقال له القل، وهو القدام، ويكنى بها عن

سواين، وتوبة لأذبار كناية عن لهزيمة لأن المهرم يجعل خصمه متوجها إلى دبره
ومؤخره، وذلك أعول له على إدراكه وقله والمعنى - لا تولوهم صهوركم
وقصيتكم مهريين، ولعدول عن مصط الطهور إلى الإذبار تقييح للأهرم وتغير
مه، فيه تصوير للفرار بصورة شعة شمشر مها الفس، وتحضر الهمة، وشير فى
النس الحوة

وقد جاءت الكناية بصفا وكان المراد منها تشجيع للمسلمين على القتال
ولاستئصال فى محاربة اليهود، بقول تعالى (لن يصروكم، لا أدى وإن يقاتلوكم
يولوكم الأذبار) (آل عمران ١١١)، وقوله (لن أخرجوا لا يرحوب معهم ولن
قوتوا لا ينصروهم ولن يصروهم يؤس الأذبار ثم لا ينصرون) (الحشر ١٢)

فتوبة لأذبار هنا كناية عن إهرم اليهود وتشجيعاً على قتالهم وليل مهم
وتصغيراً لشأهم وتخفيفهم.

٧ - وقوله (هأنتم أولاء تحبهم ولا تحبواكم ومؤمنون باكتاب كنه وإد
لنؤكم قسوا أماء، وإذا خلوا غصو عنيكم الأامل من العبط) (آل عمران ١١٩)

فمعنى الأامل عادة السدم مدحر وهو كناية عن شدة الألم ولعبط ما يروه من
اتلاف المسلمين واحتجاج كمتهم ونصرة لله تعالى إيهام بحيث عمر أعدوهم أن
يجدوا سبيلا إلى الشغفى حتى اضطروا إلى مداراتهم

٨ - وقوله: (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ينظر مكة من بعد
أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً) (الفتح ٢٤).

فالمعنى قصى بيكم وبينهم بالمحاصرة بعد ما حولكم الظفر عليهم والغلبة،
«كف الأيدي» أبلغ من مع الضل، لأن كف الأيدي يسد مع الضل ما بين

٩ وقوله (يا أيها لسى إذا جاءك مؤمنة يتابعك عن ألا يشركن بالله شئ
ولا شرق ولا يربى ولا يقسن أولادهن ولا تدين سها ب يقره من الأيدي
وأزجلهن...) (المنحنة ١٢)

فقد كانت المرأة تلتصق بالولود فتقول لروحها هو ولدى مك، كنى بالهتان

مصرى من يديه ورجليه عن سولد متى تصقه بروحها كذب، لأن سوط سدى
بحمه من بين ايديين ومخرجه بين رجليه^(١)

١٠ - وقوله: (وأحيط بثمره فأصبح يُقْلَبُ كَقَيْهِ على ما اتفق فيها وهي خاوية
على عُروشها) (الكهف ٤٢). فتقلب الكمين كناية عن التحسر والندم على ضياع
جهده وماله.

١١ - وقوله: (ولا سُمِعَ في أيديهم، وراؤهم قد ضلوا، قالوا: لكن لم يَرَوْهُمَا
ربنا ونعمر لنا لكونن من الخاسرين) (الأعراف ١٤٩).

فالسقوط في اليد كناية عن الندم، لأن من شأن الادم أن يعرض يده فيسقط فمه
فيها، وكان قوم موسى قد ندموا على عبادتهم المعص.

١٢ - وقوله تعالى: (ويوم بعضُ يَدْمُ على يديه، يقول يا ليتني اتحدت مع
الرسول سبلا، يذنب لئني أتحذ فلا حليلا، لقد أصبى عن الذكرك بعد إذ
جاءني) (الفرقان ٢٧-٢٩).

يحم من قتيبة بعض المفسرين حيث ذهب فريق من المتسمين بالمسلمين -
عن حد تعبيرة - إلى أنه رجل بعينه، وقالوا: لم كنى عنه؟ وإنما يكى هذه الكناية
من يحذف المبادأة، ويحتاج إلى المدحجة.

ثم يذكر تفسير ابن عباس للآية وقصة عقبة بن معيط حين صنع طعاما، ودعا
أشراف مكة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم، فيمتنع أن يطعم أو
يشهد عقبة بشهادة الحق، ويأتيه أن بن خلف - وكان خليله - فيتهمه بالصبا،
فيجيب: بأد رجلا من قريش قد دخل عليه، وهو يستحي أن يخرج من منزله دون
أن يطعم فيقول أبى. ما كنت لأرضى حتى تبصق في وجهه، وتفعل به، وتفعل،
فعلن ذلك، فأنزل الله هذه الآية، وهذان الرجلان سبب نزولها.

ثم يعلق ابن قتيبة على هذه الأقوال، فيقول

لو نزلت هذه الآية فقال: (ويوم بعضُ يَدْمُ) فارون، وهامان، وعصة بن

معيط، وأبى بن حنف، وعصة بن أبي ربيعة، وشيبة بن أبي ربيعة، وفلان وفلان -
بالأسماء - [على أيديهم]، يقولون: يا ليتنا لم نتخذ فرعون، وغروذ، وعقبة،
وأنا جهل وفلانا، وفلاتا - بالأسماء - لظلال هنا وكثر وثقل، ولم يدخل فيه من تأخر
بعد نزول القرآن من هذا الصنف، ويخرج من مذاهب العرب، بل من مذاهب
الناس جميعا في كلامهم.

فكان [فلان] كناية عن جماعة هذه الأسماء. وقد يقول القائل: ما جاء إلا فلان
ابن فلان - يريد أشراف الناس المعروفين، والشاعر يقول:
* في لحقة أميك فلانا عن فل *

يريد: أمك فلانا عن فلان، ولم يرد رحلين بأعيانها، وإنما أراد أنهم في غمرة
نشر وضحته، فلحجزة تقول لهذا: أمك، ولهذا كُف.

والظالم: دليل على جماعة العالمين، كقوله تعالى: (ويقول الكافر يا ليتني كنت
ترايا) (السا ٤٠).

١٣ - وقوله تعالى: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا، أو كذب بالحق لما
جاءه) (المعكوت ٦٨)، فالمراد بقوله [لما جاءه] أى أنه سفيه الرأي - يعنى - لم
يتوقف في تكذيب وقت ما سمعه، ولم يفعل كما يفعل المراجع العقول، المشتجون
في الأشياء، فإن من شأنهم إذا ورد عليهم أمر أو سمعوا خبرا أن يستعملوا فيه
الروية والفكر، ويتأكوا في تدبره إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه.

ألا ترى إلى قوله تعالى: [لما جاءه] أى أنه ضعيف العقل، عاجز الرأي،
فعدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه، وهو قوله [لما جاءه] وذلك أكد وأبلغ.

ومن هذا الباب قوله تعالى: (ودنن عبيهم يا ليتنا قبو ما هذا) لا
رحل يريد أن يصدكم عما كن يصدكم، وفلانو ما هذا، لا يفتك مغتري. وقال
الدين كهمروا للحق لما جاءهم، إن هذا إلا سحر ميين) (سأ ٤٢)

(١) تأويل مشكل القرآن ١٩٩ وما بعده

(٢) الجامع الكبير ١٦٠

وفي الأحبار السوية أن رجلاً يقال له : أنحشة، وكان في بعض أسفاره، فحدا بالإبل، فطربت لحسن خُدائه، فأسرعت في سيرها وعليها النساء، فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويحك يا أنحشة : سوقك بالحواري^(١)

هذه كناية لطيفة، وإنما كنى عنهن بالحواري، لأمور ثلاثة :

أولاً : فليما هُنَّ عليه من حفظ الأجرة، والوعاء كالفارورة تحفظ ما فيها.

ثانياً : لاختصاصهن بالصفاء والصفالة والحسن والضارة.

ثالثاً : من فيهن من الرقة والمسارة إلى التعبير والانشلام، كما ينسارع الانشلام إلى القذورة لرقتها^(٢).

وورد عن الرسول أنه قال : « كانت امرأة من كان قلنا، وكان لها ابن عم يجهل، فراودها على نفسها فامتنعت منه، فأصابها سنة تجذبة، فحدثت إليه تسألها، فراودها، فمكثت من نفسها، فلما قعد منها مقعد الحائض، قالت له : اتق الله ولا تفضض الحائض إلا بحقه، فقدم وتركها.

فكثرت بالحتم عن بكارتها، وأنها بمنزلة الشيء المختوم الذي لم ينكسر خاتمه.

وقوله عليه السلام في غزوة بدر حين رأى أهل مكة يريدون حربه :

« هذه مكة قد ألفت إليكم بأفلاذ أكبادها، يريدون أن يحادوا الله ورسوله ».

فكنى بقوله : « أفلاذ كددها » عن الرؤساء والأكابر، لأن الكبد من أعز أعضاء الإنسان، فكنى بها همهم.

وروى أن امرأة جاءت إلى عائشة - رضي الله عنها - فقالت : أقيّد حملي، فقالت لها عائشة : لا. وأرادت المرأة أنها تصنع بزوحها شيئاً يحميها عن غيرها، أي تربطه أن يأتي سواها. فظاهر هذا اللفظ يفيد تقيد الجمل، وباطنه أنها جعلته كناية عن منع الزوج من الزواج بغيرها

ولما عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص - رضي الله عنها - عن مصر وولاه ابن أبي السرح، دخل عمرو على عثمان، فقال له : يا عمرو، أشقرت أن اللقاح دوت بعدك البائها؟ فقال : لأنكم أعجفتُم أولادها^(١).

فكنى عثمان عن حرج مصر بالسفاح، وكنى عمرو عن حود لوان بعده بأنه حرم الرزق أهل العطاء ووفره على السلطان بإضعاف الأولاد.

ومن الكناية قولهم : « قلب له ظهر البجج » كناية عن أنه يبدو له خلاف ما كان يعهده منه من الألفة والمودة.

وقولهم : « فلان ورمت أنفه » إذا كان مغتاباً يظهر الحنق والغضب.

وقولهم : « الآن خبي الوطيس » كناية عن شدة الحرب والتحامها، والوطيس : النور.

وقولهم : « لبس له جلد النمر » كناية عن كثرة العداوة وعظم الحقد.

ومن الكناية قول الشاعر

ومد يـكُ و من غـيب مـلـيـر خـان الكـلب مـهـرولـ المـصـيل

فكنى عن كرم نفسه وكثرة فـره بجن الكلب، لإلفه الضيف، وهزال الفصيل، لأنه يلذع أمه للضيف ويحرمه من لبنها، فيضعف، ومن ذلك :

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقيلاً يـكـنـمـه من حـه وهو أعجم

ومنها قول الشاعر :

أبت الروادف ولثدي لقمصها مـس البطون وأن تمس طهوراً

ويروي ابن رشي^(٢) أن النجاشي الحارثي هجا « بني العجلان » فاستعنوا عليه

(١) المقت العريد ج ٢/ ١٠٠ النسخ - الإبر - وحدثها بقول كعب بن مالك وهي الباقية بحسب

(٢) العمدة ج ١/ ٢٧

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سأله : ما قال فيكم ؟ فأشدوه قوله :
إذا الله عاذي أهل لؤمٍ ورفقةٍ فعادى بني العجلان وهط ابن مقبل
فقال له عمر : إني دعا فإن كان مظلوماً استحيب له، وإن كان طالماً لم يستحيب
له، قالوا : وقال أيضاً :

قَبِيلَةٌ لَا يَمْنَعُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلَمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ
فقال عمر : ليت آل الخطاب هكذا ! قالوا : وقد قال أيضاً :
وَلَا يَمْنَعُونَ الْمَاءَ إِلَّا غَبِيَّةً إِذَا صَنَرَ الْوَرْدُ عَنْ كُلِّ مَنَهِلٍ
فقال عمر : ذلك أقلُّ بِلُكْكَ^(١) ! قالوا : وقد قال أيضاً :

تَعَذُّ الْكَلَابُ الصَّارِيَاتُ لِحَوْمِهِمْ وَتَأْكُلُ مِنْ كَفِّ وَعَوْفٍ وَتَهْتَلُ
فقال عمر : أجنُّ القوم موتاهم، فلم يصيغوهما ! قالوا : وقد قال :

وَمَا سَمَى الْعَجْلَانُ إِلَّا بِقَبْلِهِمْ خُبَيْدَ الْقَعْبِ، وَاحْلَبَ أَبْيَا الْعَبْدِ وَأَعَجَلَ^(٢)

فقال عمر : حبر القوم خدامهم، وكنا عبيد الله ! وكانوا يفخرون بهذا الاسم
لقصة كنت لصاحبه في تمجيد قري الأضياف، إلى أن هجاهم به النجاشي
فصجروا منه وسوا به

ثم بحث إلى حسان بن ثابت، والخطبة - وكان محبوباً عنده - فألهما، فقال
حسان : لم يصحه، ولكن سنع عليه.

فهدد عمر النجاشي، وقال له : إن عدت قطعت لسانك.

فالشاعر حاول مهارته ألا يجعل هجوه صريحاً صافراً، فستره وراء عباراته،

(١) البكاك - بجراد

(٢) القعب : القنص الصخم، يعني أن أباهم كان عبداً يحب اللبس، والآيات لتحمل المدح - كما رأى سيدنا
عمر - وتحميل الفجاءة، وهما من أسماء عباءة النبي صلى الله عليه وآله بالتوجيه

وحججه حصف كباياته، وعمر - رضي الله عنه - يريد ألا يظلم أحد الخصومة
ويوسع شقه لخلاف من الشارعي لئلا يسرى شاكون في حصصهم، ويشدو
في صلب لعقوة، فحذر أن يعمل الكلام على حقيقته في سبيل قرامعة في
مهده وحمل شعر على أحسن جهاته، لكن لما أصرَّ قوم على فهم شعره على
لوجه الذي يصرح بالشر، لم يشأ أن يفرد بالحكم، فالتمس التأييد من ذوي
خبرة من الشعراء، فكان هذا الحكم الذي طابق ما في نفسه، وإلا فما كان ليغير
رأيه بكلمة يقوها حسان.

فالشاعر كان بارعاً في هجاء القوم وستر صفه «البخل والتقتير» في البيت
لأحبرين، وصفه «الدلة والخوان» في بيتين قسيهما، ووجدته ذلك وراء
لأست، وهذا البيت لا يكدر في فهم شيء من الدم - في عصره - فحصر
من يوشك أن يكون مدحاً حليصاً، لكن معنى بيتي في لسانه لسوءه من الجمع
الشم، وأدل على الدلة والخوان.

الكناية وعلم النفس :

ومن الأمثلة والشواهد السابقة ندرك أن الأسلوب الكناي يقيم على أساس
للإلزام الذي هو أحد عوامل مدعى معناه لأننا حين نستحدث استهزاء يريد
تلازم، فهذا كيب عن الكرم بكثرة الرماد مثلاً، فذلك مدح من كثرة رماد وكرم
من تلازم، لأن الكرم يستلزم تقديم لعدم التصيف، ودلت يستلزم كثرة سطح
وهذا يستلزم كثرة إيقاد النار، وذلك يستلزم كثرة تحلف الرماد^(١).

الكناية والمحاز :

وأكثر علماء البيان عد الكناية من أنواع المحاز^(٢) ومن هؤلاء ابن الأثير^(٣)، لأن
اللفظ فيها مستعمل في غير ما وضع له، فقد أطلق وأريد به معنى آخر غير معناه
لأصل.

(١) دراسات في علم النفس الأقر ٢٦

٢ ط ٣٧٥/١

(٣) مثل السائر ج ٣ ص ٥٥

ورأى العز بن عبد السلام أن الكناية نوعاً من الحقيقة فقال: «ما ظهر أن الكناية ليست من المجاز، لأنك استعملت اللفظ فيما وضع له وأردت به الدلالة على غيره، ولم تخرجه عن أن يكون مستعملاً فيما وضع له»^(١).

وعبد القاهر ومن تبع مذهبه كالسكاكي يرى أن الكناية حقيقة إذ أن الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له، سواء أكان ما وضع له مقصوداً لذاته، أم مقصوداً لينتقل منه إلى غير الموضوع له^(٢).

أما الخطيب فقد جعلها واسطة بين الحقيقة والمجاز، فهي ليست حقيقة، لأن لفظ لم يرد منه المعنى الحقيقي، من أريد لا ربه، وبسر محر، لأن المحر لا بد له من قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وقرينة الكناية غير مانعة.

وليس كل كناية يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقي، فقد يمنع المعنى الحقيقي لخصوص المادة، أو لأنه غير متحقق في الواقع، كقوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) (طه ٥) فلاستواء كناية عن الاستيلاء والسيطرة، فالمعنى الحقيقي هنا يمنع إذ يستحيل أن ينسب إلى الله تعالى الاستواء بمعناه الحقيقي وهو الجلوس.

ومثله قوله تعالى: (وقالت اليهود يذ الله مغلولاً غلَّتْ أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يذاه مسوطتان يُنفق كيف يشاء) (المائدة ٦٤) فغل اليد كناية عن الخلل، ويسهلها كناية عن الخود، واليد بمعناها الحقيقي وهو الجارحة مستحيل على الله تعالى.

وهذا لا يمنع من عدم مثل هذه الأساليب من الكناية، لأنه لولا خصوص المادة لحارت إرادة معانها الحقيقة.

أقسام الكناية

بحث البيانيون القدماء الكناية دون أن يصنفوها ويقسموها إلى أقسام وكان بحثهم لها مقصوداً على العرض منها واغلف من وجودها كالكناية عما يسهل ذكره، ويستفح نشره، ويستحيا من تسميته، أو يتطير منه، بالفاظ مقبولة تؤدي المعنى، وتفصح عن المغزى، وتحسن القبيح، مع العدول عما ينبوعه السمع، ولا بأس به السطع، إن ما يقوم مقامه من كلام يادل له لأدب، ولا يحججه القبح، وما ذلك إلا من حصائص البلاغة، ونتائج البراعة، ولطائف الصناعة^(٣).

ولكن المتأخرين من علماء البيان قسموا الكناية إلى تفسيرات عدة - كالكناية عن صفة، أو موصوف، أو نسبة، أو تكون تعرضاً، أو تلويحاً، أو إشارة، أو رمزاً، أو إيحاء، وقد تكون بعيدة أو قريبة، ظاهرة أو خفية^(٤). وستجزيء منها بأبرز هذه التفسيرات.

١ - الكناية عن صفة^(٥):

كقوله تعالى في ذم أحد سادات قريش: (سَنَبِّهُهُ عَلَى الْحَرْطُومِ) (القلم ١٦). أي سنعلمه بعلامة على أنفه تطل باقية لا يمحي أثرها، - قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومي - فالوسم على الحَرْطُوم: كناية عن صفة المهانة والذلة التي تلحقه، والوعيد الذي يصيبه، وقيل: حُطِمَ^(٦) يوم بدر بالسيف فقيت سمة على حَرْطُومِهِ.

ومثلها قوله تعالى في وصف الهول والشدة التي تكون يوم القيامة: (يَوْمَ تُكْشَفُ

(١) النهاية في الكناية ص ١

(٢) شروح النحويين ج ٤/ ٢٦٥

(٣) المراد لصفة انصرية كالحود والشجاعة لا التعت النحوي

(٤) حطيم أضعه - الضم به عديراً ظاهراً

(١) الإشره إلى الإيجاز ٢٧٥

(٢) البلاغة النظمية ٢٢٢، الدلائل ٥١

عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (القلم ٤٢) فكشف الساق كناية عن شدة الروح والصرع «ولا كشف ثم ولا ساق» كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل، وإنما هو مثل في البخل^(١).

ومنها ما رواه البحارى ومسلم عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال لما برئت هذه الآية (وكنوا وشرُّوا حتى ينبت لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) (البقرة ١٧٢)، عملت إلى عقالين، أحدهما أسود، والآخر أبيض، قال : فجعلتهما تحت وسادتي، قال : فجعلت أنظر إليهما، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته بالذي صنعت، فقال : «إن كان وسادك لعريضاً»

فالسواد العريض - في قول الرسول - كناية عن قلة فهمه، فعرض الوساد - المحدث - يستلزم عرض القفا، وعرض القفا يستلزم قلة الفهم ونقصان الكياسة وعدم العظامة.

٢ - الكناية عن موصوف.

كقوله تعالى قصة سيدنا نوح عليه السلام : (وحملناه على ذات ألواح ودسر) (القصص ١٢).

فقد كنى بالألواح والدسر عن السفينة، لأن مجموع الأمرين وصف مختصر بالسفينة.

وقوله : (أَوْمِنُ يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) ٩ (الزخرف ١٨)

كنى بهذا عن المرأة، لأن هذين المعنيين : التشبث في الزينة والعمى، وعدم القدرة على الإبانة في الحدال من صفات النساء.

وكان المشركون قد زعموا أن الله اتخذ ولداً، وجعلوا الولد الملائكة، وجعلوها إناثاً، وفي ذلك يقول الله سبحانه يدفع ما يتوهمونه : (وجعلوا له من عباده جزءاً إن

لإنسان لَكفورٌ مبينٌ أم تُخَدِّعُ بِحُجُوبَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَيْنِ، وَدُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِ صِرْبٍ مَرَحٍ مَثَلًا عَلَى وَجْهِهِ مُنَوَّدًا وَهُوَ كَطِيمٍ أَوْ مَنْ يُشْؤُ فِي الْحَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)

فلا يه رد على رعم شركيين في رب الملائكة رب الله

وقد اجتمعت الكناية عن صفة وعن موصوف في قول المتنبي يمدح سيف الدولة لما ظفر بنى كلاب :

مستهم ونسبهم حرسٌ وصنحهم ونسبهم ترابٌ
ومن في كفه منهم قناةٌ كمن في كفه منهم خضابٌ

ففي البيت الأول كناية عن صفة، إذ كنى بـ «بسطهم حرس» عن السيادة والعزة، وكنى بـ «بسطهم تراب» عن المهابة والذلة.

وفي شار كناية عن موصوف، إذ كنى بـ «من في كفه منهم قناة» عن المرحل، وكنى بـ «من في كفه حصاب» عن المرأة، ولعل : أن أعداء سيف الدولة قد ضعفوا أمام قوته فكان الرجل والمرأة بمنزلة سواء.

٣ - كناية عن نسبة :

كقوله تعالى : (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنِّبِ اللَّهِ) (الزمر ٥٦)

فرط في جنبه وفي جانبته : يريد في حقه.

قال جميل بن معمر يستعطف صاحبه بشية :

أما تثقين الله في حجب وامي له كبدٌ خرى عليك تمضغ
غريبت مشوق مولعٌ بأذكاركم وكل غريب الدار بالشوق مولع^(١)

(١) وامر شديد المحبة، يعني معه، جرى أي ذات حر واحتراف، وقد غاطها غطابه جمع الذكر تعظيلاً

المعنى : أما تخافين الله في حجب وامق - أى في حقه الواجب عليك - فاجب كناية عن ذلك، وهذا من باب الكناية، لا بث إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أنه فيه، ألا ترى إلى قوله :

إن الشّاحة والمسروة والسّدى في قبّة ضربت على ابن الحشر^(١)
فما همون بصعدة البيان قد يُريدون إثبات معنى من المعاني لإنسان أو نفيه عنه، فمسور عن طريق تصريح إلى صريق الكناية عن جعلها فيه إلى جعلها في شيء ينتمى إليه، وسدت يوصوب إلى ما أرادوا من إثبات أو نفي، لا عن الطريق الصريح والمكشوف بل من طريق يخفى ويذوق، وذلك أفخم للأسلوب وأدعى لفعله.

ولشاعر زياد الأعجم في البيت الأخير أراد أن يثبت الخلال الثلاث للممدوح فترك لطريق الواضح الصريح عن عمد وإصرار، وعمد إلى الكناية، وجعل كون الخلال الثلاث في القبة التي نصت عليه، كناية عن كونها فيه، لأن تلك الصفات تنصب محلاً يقوم به لاسحة فيها نفسها، وما كنت القبة لا تصلح لأن تكون محلاً هذه الخصال، كان ذلك إشارة لإثباتها لصاحب القبة، لأنه إذا أثبت الأمر الذي لا يقوم بنفسه في مكان الرجل وحيزه فقد أثبت له.

ومنه قول الشنفرى يصف امرأة دلعنة :

سنت بمنحاة من اللوم بيتها إذا ما بُيوت في الملامية خلّت

نفي اللوم عنها بأن نفاها عن بيتها الذي تقيم فيه، وذلك يستلزم نفي اللوم عنها، وقد عرّف البيت بـ «بيت» دون «بطل»، لأن البطل مسرح المحور وانتشار لمقايح.

ومثله قولهم : «مثلث لا يحجل» قل الزعشري : نفوا البجل عن مثله، وهم

(١) بيت لزياد الأعجم يمدح عبدالله بن الحشر أمير يساور، وهو من باب الكناية، يعنى أنه عنص يملك صفة لا حمة هناك ولا صر، الزروة الإنسانية، القبة مأوى فوق الحجة في العظم والانتاع، صرمت : نصبت * «انظر مشاهد الإعجاز حل شواهد الكشف ج ١/ ١٠٧»

يريدون نفيه عن ذاته، فصدوا لملعه في ذلك فسلوكوا به طريق الكناية، لأهم بد، نفوه عن من يسد نفسه، وعن هو على أخص أو صافه، فقد نفوه عنه

ونظيره قولك للعربى : العرب لا تحقر اللحم. كان أبلغ من قولك : أنت لا تحقر، ومنه قولهم : أيمعت لذاته، وبلغت أثرابه، يريدون إيقاعه وبلوغه^(١).

أما قوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (الشورى ١١).

فبعض أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف، بل على وجوب زيادتها في هذه الآية، قرأوا من لحال العقل الذى يعصى إليه فذها على معادها لأصلي من التشبيه، لأنها حيثل تكون نافية التشبيه عن مثل مثل الله، ويكون تسيما بشوت مثل به سبحانه

والعص ذهب إلى أنه لا بأس بقدها على أصلها، إذ رأى أنها لا تؤدى إلى ذلك المحال. لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضاً على طريق الكناية، وتكون الآية كناية عن نفي المائنة عن ذاته تعالى بالطريق الأبلغ، وحيث لم يقع فرق بين الآية : (ليس كمثله شيء) وقولنا : «ليس مثله شيء» إلا ما تعطيه الكناية من مائنتها، وكونها عبارتان معتبتان على معنى واحد، وهو نفي المائنة عن ذاته^(٢)

لكن أحد المفكرين المعاصرين له توجيه آخر فيقول^(٣) :

«وقصارى هذا التوجيه - لو تأملته - أنه مصحح لا مرجح، أى أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف، ولكنه لا يثبت فائدته، ولا يبين مسيس الحاجة إليه، ألت ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء، وأنه إن كان قد ازداد به شيئاً فإنما ازداد شيئاً من التكلف والدوران وضرباً من التعمية والتعقيد؟

ولو رجعت إلى نفسك قبل أن ترى هذا الحرف في موقعه تحتفظ بقوة دلالة،

(١) الكشف ج ١/ ١٦٦، أيمع : «نعم» انظر استعمال مثل وغير في كتابنا «المعاني في علوم أساليب القرآن»

قائماً بقسط جميل من المعنى المقصود في حملته، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى

موقيل: «ليس مثله شيء» لكن ذلك نفيًا للمثل المكافئ، وهو المثل الثام المماثلة فحسب، وإذا دنا إلى النفس ديب الوسوس والأوهام أن لعل هناك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو للكواكب وقوى الطبيعة، أو للمحن والأوثان والكهان، فيكون هم بالإله الحق شبه ما في قدرته أو علمه، فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاء للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها، كأنه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً لله، فصلاً عن أن يكون مثلاً له عن الحقيقة، وهذا من باب التثنية بالأدنى عن الأعلى، على حد قوله تعالى: (فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما) (الإسراء ١٧)، نهيًا عن يسير الأدنى صريحًا، وعما فوق اليسير بطريق الأخرى.

التعريض

قال تعالى: (ولا جناح عليكم فين غرضتم به من جرطة الساء أو أكنتم في أنفسكم) (بقرة ٢٣٥)

في أثناء عدة المرأة لا يجوز - عن طريق لتصريح أو المجاز أو الكناية - طلب لنكاح منها، ولكن لا بأس من تعريض هذا لطلب، كقول طالب الروح عا: إنك المرغوب فيك لأحوالك الخاملة، أو إن لمحاك إلى من آس به، أو بك لصالحه، أو عسى أن يسر الله لي امرأة صالحة، فهذا أو أمثاله لا يدل على سكاح بحقيقته أو محرم ولا من حبه مقبوم، يسمى «بعد قصد»، وقد طلب لنكاح منه حينئذ من جهة فريته، أو من مدلول السياق وقرائن الأحوال

وأنت تعيه، ومنه التعريض^(١) في الكلام، وفي أمثاله: «إن في المعارض لمذوحة عن الكذب» أرادوا: إن التعريض فيها سعة عن قصد الكذب وتعمده.

وفي الاصطلاح: المعنى الحاصل عند اللفظ لا به^(٢) - فحمنة «المعنى الحاصل عند اللفظ» شامل للحقيقة والمجاز والكناية، وقولنا: لا به، مخرج لهذه جميعاً، لأن الحقيقة والمجاز والكناية، يُدل عليها بالألفاظ فهي عند ذكر الألفاظ وبها، أما لتعريض فهو داخل بهذا القيد، فإنه حاصل بغير اللفظ - وهو السياق وقرائن الأحوال

وعن هذا يكون التعريض مباحاً للحقيقة والمجاز ولكناية.

ومن أمثلة التعريض: قوله تعالى: (قلوا أآت فعلت هذا بأمر يا إبراهيم. قل: بل فعله كبيرهم هذا، فاسألوهم إن كانوا يظفون) (الأنبياء ٦٢، ٦٣).

فإنما أورد إبراهيم - صلوات الله عليه - هذا الكلام عن جهة التهكم والاستهزاء والسخرية بمفهوم، وذلك يكون من وجهين:

أحدهما: أنه لم يُرد نسبة الفعل إلى كبير الأصنام، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على رمز خفي ومسلوك تعريض، يبلغ به إلزام الحجة لهم، والتسفيه لخلوهم، كأنه قال: يا ضعفاء العقول، ويا جهال البرية، كيف تعبدون ما لا يُجيب إن سئل، ولا ينطق إن كُلم، وتعبثوا شريكاً لمن له الخلق والأمر؟ فوضع قوله: «اسألوهم إن كانوا يظفون» موضع هذا.

وثانيها: أن يقال: إن كبير الأصنام غصب لما عُبد معه غيره من هذه الأصنام بصغر فكسرها، وغرض إبراهيم بذلك أن يعرض بهم في كونهم قد أشركوا في العبادة من هو دون الله، وإن من دونه مخلوق صغير من عباقرة، فوضع هذا الكلام لمحاك ما أتوا به، وعظيم ما تلسوا به من عبادة غير الله. وهذا التعريض

(١) التعريض: جمع معارض وهو التورية والسر

(٢) لا به: أي لا به

(٢) الكشف - ٩٨٣

حر الدنيا معلوم لدى المحاطين بالقرآن ولا معنى لذكره و التنبه عليه، لكن الغرض الحقيقي من هذا الكلام : هو التعريض هؤلاء المتحلقين عن القتال المعتدلين بشدة الحر، بأنهم سيروون جهنم ، ويجدون حرها الذي لا يوصف. ومن هذا (كما يتذكر أولو الأبواب) فهو تعريض بالكفار الذين لم يتذكروا وأعرضوا عن الدعوة.

ويروي عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه كان يحط يوم الجمعة، فدخل عليه عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فقال له عمر : أية ساعة هذه ؟ فقال عثمان : يا أمير المؤمنين، انقلبت من السوق فسمعت النداء، فما ردت على أن توضع، فقال عمر : والوضوء أيضًا، وقد علمت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يأمرنا بالمثل.

فقول : أية ساعة هذه ؟ تعريض بالإنكار عليه، لتأخره عن المجئ إلى الصلاة، وترك السبق إليها، وهو من التعريض المعرب عن الأدب، وقد فهم التعريض من جهة أمور حرجية عن اللفظ، من نحو وقت السؤال، وحال المسئول عنه، فإيراد السؤال عند تجمع هذه الأحوال هو المسمى بـ «السياق وقرائن الأحوال».

ووقفت امرأة على قيس بن عباد، فقالت : أشكو إليك قلة الفأر في بيتي فقال : ما أحسن ما ورت عن حاجتها، املاوا بيتها خبزًا وسمنًا ولحماً.

ومثله ما روى أن عجزًا تعرضت لسيبان بن عبد الملك، فقالت له : يا أمير المؤمنين، مت حردان^(١) بيتي على البص، فقال لها : ألفت في السؤال، لا جرم لأدنها تيب وثب الفهود، وملا بيتها حبًا.

لقد فهم قيس وسليمان ما تريد كلتا المرأتين، لا من اللفظ، ولكن من حالهما وطريقة إخبارهما، وكوئنها المقصودين، وقدرتهما على إغاثة المهوف، ودلت هو

(١) الحردان بكسر الحيم جمع جرد مصم جيم وضع الزم وهو الذكر من «نار»، وقد صنعت الحيم في «حردان» شكلًا بدسهم في القاموس وغيره صنعتها بالكسر كتابة

«السياق» فلو أن هذا القول قد صدر من غير محتاج، أو كان المخاطب بها ليس أهلاً لفصاء الحاجات، لكنت هذه الأقوال من قبيل الحقيقة وليست من التعريض.

روى أنه لما حج المنصور قال للربيع أبغني فتي من أهل المدينة أدبًا ظريفًا عالمًا مقدّم ديارها، ورسوم آثارها، فقد بعد عهدي بديار قومي وأريد الوقوف عليها

فالتبس له الربيع فتي أعلم الناس بالمدينة وأهمهم بطريف الأخبار، وشريف الأشعار، فعجب به المنصور، وكان يسايره أحسن مسaire ويحاضره أزين محاضرة، وإذا سألته أن يوضح دلالة، وأصح مقالة، فأعجب به المنصور عاية الإعجاب، وقال للربيع : ادفع إلي عشرة آلاف درهم، وكان الفتي معلقًا مضطربًا، فتشاغل الربيع عن الفصاء واضطرته الحاجة إلى الاقتضاء، فقال له الربيع : لا بد من معاودته، وإن أحببت دفعت إليك سلفًا من عندي حتى أعاوده فيها أمر لك.

بأق ذلك حتى إذا كان في بعض الليالي قال عند منصرفه مبتدئًا، وهذه الدار يا أمير المؤمنين دار عاتكة التي يقول فيها الأحوص.

يا بيت عاتكة التي أنزل

ثم سكنت، فأبكر المنصور هذا من حاله وفكر في أمره، فعرض الشمر على نفسه، فإذا فيه

وأراك تفعل، ما تقول وبعضهم مَذِقُ الحديث يقول ما لا يفعل

فقال للربيع : أدمعت للرجل ما أمرنا له به ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين، قال فليدفع إليه مضاعفًا.

يقول السغدادي معلقًا على هذا :

وهذا أحسن إيهام من الفتي، وأحسن فهم من المنصور، ولم يسمع في التعريض باللفظ منه^(٢)

(٢) تحريه الأدب لسغدادي ج١/٣٥٠، انظر بكسر الدال، من يملأ مكانه كذا من مدح الس والشرب إذا خلطته

وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون في أمر بعض أصحابه فقال: أما بعد، فقد
استشفع بي فلان بن أمية المؤمسين بظهور في إخائه سطرته من خاصة، فأعنته
أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستمعين، وفي شدائنه بذلك تعدى مدعنه

فوقع المأمون في صهر كده قد عرف نصريحتك، وتعريضك لنفسك، وقد
أحدث إليهما

ومن تعريض قول شبيب الخارثي

سبي عَمَّا لَا تَذْكُرُو الشَّعْرَ نَعْدَمَا دَهَشْتُمْ بِصَحْرَاءِ الْغَمِيرِ الْقَوَافِيَا

فليس قصده ما شعر، بل قصده ما جرى لهم في هذا الموضع من الظهور
عليهم والغلبة، إلا أنه لم يذكر ذلك، بل ذكر الشعر وجعله تعريضاً لما قصده، أي
لا تفتخروا بعد تلك الموقعة التي حرت لنا ولكم بهذا مكرراً

وأجل مواقع «إمّا» يكون في التعريض، كقوله تعالى (إمّا تُنذِرُ الَّذِينَ يُجْحَشُونَ
رُءُوسُهُمْ بِالْعَيْبِ) (فاطر ١٨) فالمراد بتعريض ممن لا يحشون لله وإشارة إلى أن يدر
هؤلاء لا يجدي، فينذارهم مثل عدمه^(١).

الفرق بين التعريض والكناية

يفرق بينهما من ثلاثة وجوه:

١ - أن الكناية واقعة في المحاز ومعدودة منه، بخلاف التعريض، فلا يعد
منه، لأن التعريض مفهوم من جهة السياق والمفهوم، فلا تعلق له باللفظ لا من
جهة حقيقته ولا من جهة مجرته

(١) مثل السائل ج ٣/٧٥

(٢) انظر: بعض في صحت أساليب القرآن ٢٥٥

٢ - الكناية تقع في اللفظ المفرد والألفاظ المركبة، بخلاف التعريض فإنه
لا موقع له في اللفظ المفرد.

والسرف في ذلك: أن دلالة التعريض من جهة القرينة والإشارة والتلويح، وهذا
لا يستقل به اللفظ المفرد، ولكنه إمّا يشأ من جهة التركيب فلا حل هذا كان محتصاً
بالوقوع فيه، ولهذا لا يقال: هذه الكلمة تعريض، كما يقال: هذه الكلمة
حقيقة، أو مجاز، أو كناية.

٣ - التعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة
اللفظ، بخلاف لتعريض فوئما دلالاته من جهة القرينة والإشارة، ولا شك أن كل
ما كان اللفظ يدل عليه فهو أوضح.

ومن أجل هذا فرق علماء الشريعة بين صريح القذف، وكنيته، وتعريضه،
فأوجبوا في الصريح من القذف الحد مطلقاً، في قول القاذف: يا زاني، وأوجبوا في
كنيته الحد إذا نوى به، في مثل قول القاذف: يا فاعلاً بأمة، أو مفعولاً به، ولم
يوجبوا في التعريض الحد في مثل قوله: يا ولد الحلال. وما ذاك إلا لأجل أن
الصريح والكناية يدلان على القذف من جهة اللفظ إما بالحقيقة أو بالمجاز.
والتعريض أحص من الكناية، فكل تعريض كناية، وليس كل كناية تعريض،
فهو أعم منه^(١).

بلاغة الكناية والتعريض

بلاغة الكناية تتمثل في أنها تعرض المعنى مصحوباً بالدليل ومفروناً بالبرهان،
فيذلك تكون أبغ من التصريح، فمثلاً حينما نسمع قول حرير:
وَيُقَصِّى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيْبُ تَيْمَمٌ وَلَا يُسْأَمِرُونَ وَهَمَّ شُهُودٌ
فقد رماهم الشاعر بالذلة والموان، وأتى بالكناية دليلاً على صدق دعواه،

(١) الطراز ج ١/٣٩٧

وتأييداً لما رماهم به فقد بلغ بهم اهوان أن الناس يحسمون الأمور وهم عاثون، ولو حصروا لم يؤخذ برأيهم في شيء.

وكذلك قول امرئ القيس

ويُصْحى فتيب المسك فوق فراشها نثوم الصنخي، لم تتنطق عن تفصيل^(١)

يصف الفناء بالرفاهية والتنعيم، فأن بما يدل على هذا الترف، فذكر أن المسك لفتوت يظل إلى الصحن فوق سريرها، وأنها لا تغادر الفراش حتى هذا الوقت، وأنها دائماً مرتدية رداء الزينة لا العمل.

كذلك يحس السامع لأسلوب الكناية جملاً، ويجد لها أثراً لا يجده للتعبير الصريح، وذلك لأن الكناية تعرض المعنى مصوراً بصورة محسوسة فيزداد تعريفاً ووصوحاً

فحببنا نقرأ قوله تعالى: (وأجيط بثمره فأصبح يُقْلَب كُفَيْهِ على ما اتفق فيها وهي خاوية على عروشها) (الكهف ٤٢).

وقوله: (ويوم يفض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً) (الفرقان ٢٧).

وقوله: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ثاب عطفه ليُصِلَ عن سبيل الله) (الحج ٨، ٩).

وقوله: (سَيَقُولُونَ مَنْ يُعِدُّنَا، قل الذي فطركم أول مرة، فسيُنْفَضُونَ بكم رؤوسهم ويقولون متى هو، قل عسى أن يكون قريباً) (الإسراء ٥١).

مرى الدم في الأبتين الأولين، والكبر والخطورة في الأخيرتين يذا للأعين، وتقتل أمام الناظرين بما يصحبها من حركات محسوسة تدل عليها وتشير إليها.

وقد تعدل العرب عن التصريح إلى الكناية في الموضع التي تعبر فيها الصراحة

(١) الطبق ثوب تشبه به المرأة على وسطها يلمسه والعمل، التفضل بس الغضه، وهو ثوب واحد يلبسه في العمل، عن يحيى بن عبد

أو يستحيا من ذكره كما مر في قوله تعالى: (أو لامستم النساء)، وقوله: (وقالوا خلودهم لم شهدتم علينا)؟ (الأنبياء ٩١)

فالمراد من الملامسة «الجماع»، ومن الجلود «القروح» ولعل أسلوب الكناية هو الأسلوب الوحيد الذي يجيب المرء التصريح بهذه الألفاظ.

وكتب أبو الحسين بن جعفر بن محمد بن ثوابه عن المعتضد بالله إلى خوارويه وقد أوصى خوارويه باسته التي تزوجها المعتضد بالله، فكان مما كتب ابن ثوابه: «أما الوديعه فهي بمنزلة ما انتقل من يمينك إلى شمالك، عناية بها، وحياطة لها»، واستحسن الكناية عن الزوجة بالوديعه حتى صار الكتاب يعتمدوها، وقال بعضهم: إن تسميتها إياها بالوديعه نصف البلاعة.

ومنه: الكناية عن «الصمم» بنقل السمع.

أو لأن الألفاظ المكنى عنها يتشاءم السامع منها، مثل ما روى أن المصور كان يوماً في البستان فرأى شجرة «جلاف» فسأل الربيع وزيره عن اسمها، فقال: «وفاق» يا أمير المؤمنين، فكفى الربيع بكلمة «وفاق» عن كلمة «جلاف».

ومن ذلك: كنايةهم عن «اللذع» بالسليم، وعن «الأسود» بأبي المسك، وعن «الصحراء» بالمعارة

أو لأن في ذكر الكناية نادياً مع المخاطب، مثل ما روى أن عبد الملك بن صالح أهدى إلى الرشيد باكورة فاكهة في أطباق خَيْرَزَان، وكتب إليه: بعثت إلى أمير المؤمنين بأطباق قضبان تحمل حتى باكورة بستان، فقال الرشيد: ما أحسن ما كفى عن اسم أمنا، وكانت أم الرشيد تسمى الخيزران

ومثله ما روى أن الخليفة الهادي نظر إلى أحد الأشخاص وفي يده عصا من حيرران، فقال: من أي شيء هذه؟ فقال: من أصول القنا يا أمير المؤمنين.

ولما كان التعريض أحفى من الكناية لاعتقاده في دلالة على السياق دون اللفظ كان له من الأثر في النفوس مالا تلعه الحقيقه المحردة، أو المجاز، أو الكناية، لأنه

يعين صاحبه على إخفاء ما يريد من عتاب أو نقد أو سؤال أو شكايه، على الحاضرين حتى لا يفهم مراده إلا من يقصده بالتعريض لما علم من أن التعريض إنما يفهم من أحوال خارجة عن اللفظ - لا من اللفظ - وهذه لأحوال قد تكون معلومة للمقصود بالكلام دون بقية الحاضرين.

لذا كان التعريض وسيلة ناجحة يستخدمها العام البليغ في تقويم من تأخدهم لمزة بالإثم إذا أمروا بمعروف أو نهوا عن منكر، وذلك بأن يوجه الخطاب إلى غيرهم، بإنكار أمر يفعلونه ذكراً ما ورد فيه من الزجر والوعيد، في الكتاب والسنة وسيرة السلف وهم يسمعون^(١).

المجاز أبلغ من الحقيقة

محالات الحديث مختلفة، وموضوعات الكلام شتى، والجمهور المتلقى على جانب عظيم من التفاوت والاختلاف، وعلى المتحدث اللئق أن يراعى عند الحديث هؤلاء وهؤلاء، فيعطى لكل حال لوسها ولكل قوم مفهم، بذلك يرى المتحدث أحياناً يعتمد على الحقيقة البسيطة المجردة من التصوير والزينة، عندما يجد المتلقون عه على جانب من السداجة والبساطة، لا يستطيعون معها إدراك ما في المجاز من تخيل وتصوير، أو يكون المجال مجال إفهام ومناقشة، فذلك مقام لا يعنى فيه سحيل والتصوير شيء، أو يكون المحال هو التصوير والتخيل والزممر والتلويع، إذا كان المتلقون عنه واعين وعلى مستوى من الثقافة يدركون ما يحتويه الكلام من الرمز والتخيل والإيحاء والتصوير.

وهكذا دائماً حال البليغ، لا بد أن يراعى حال المخاطب، فيلقى إليه الكلام بحقيقة مجردة، أو بالمجاز والتصوير، تبعاً لحالته ومبلغ وعيه وثقافته.

والحقيقة والمجاز وسيلتان من وسائل التعبير لا تغنى إحداهما عن الأخرى في نقل المعنى أو رسم الصورة، فها هو القرآن الكريم حافل بأساليب الحقيقة ومور

المجاز جنباً إلى جنب، ولو كان أحدهما يكفى في التعبير لسار على نمط واحد منهما، أو لو كان أحدهما أمتع للأسماع، أو أجمع للفكرة، لاقتصر عليه دون الآخر وإذا كان أحدهما لا يفنى عن الآخر، وكان هذا هو الحق والصواب، فما معنى ما ورد عن جُنَّ علماء البلاغة من تفضيل المجاز على الحقيقة؟

فمثلاً يقول ابن رشي: «المجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعاً من القلوب والأسماع»^(٢).

ويقول القزويني: «أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أجمل من التصريح بالنشبيه»^(٣).

ويقول عبد القاهر: «أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفصلاً، وأن المحرر أبداً أبلغ من الحقيقة»^(٤)، وغير هؤلاء كثير.

وقد أجاب عن هذا التساؤل عبد القاهر فرأى أن أبلغه المجاز على الحقيقة، وألغية الاستعارة عن التشبيه، وأضعف الكناية عن التصريح، حين ينفق الباطن في التعبير عن المعنى: ليس معناها أن الأبلغ يفيد زيادة في أصل المعنى لا يفيداً غيرها، بل المراد أنها تفيد تأكيد الإثبات للمعنى وتقريبه.

فقال: «ليست المزية التي تراها لقولك: «رأيت أسداً» على قولك: «رأيت رجلاً لا يتميز عن الأسد في شجاعته وحرأته» أنك قد أفدت بالأول زيادة في مساواته الأسد، بل إنك أفدت تأكيداً وتشديدًا وقوة في إثباتك له هذه المساواة، وفي تقريرك لها، فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته بل في إيجابه والحكم عليه.

وهكذا فيس التمثيل ترى المزية في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى دون المعنى

(١) المصنف ج ١/ ١٧٨

(٢) الإفصاح ٢٠٥

(٣) الدلائل ٥٤

نفسه، فإذا قلت: بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، لم يدل ذلك على تردد أكثر من صريحه الذي يساويه في القوة، من نحو قولك: بلغني أنك تتردد في أمرك، وأنت كمن يقول: أخرج، ولا أخرج، فتقدم رجلاً وتؤخر أخرى، وإنما الذي يفيد تأكيد الإثبات لتردد.

وهكذا الكناية، فإذا قلت: هو جهم الرماد، كان أسهل لمصاك وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذي تريد، كأن تقول: هو مصيف جداً، فليست المزية حينئذ لكناية، أنه دل على قرى أكثر، بل أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ، وأوحته إيجاً هو أشد وأوثق^(١)

أما إذا لم يتساو المعان في القوة، فلا جدال في أن الاستعارة - مثلاً - تفيد حينئذ زيادة في ذات المعنى وفي أصل الدلالة: عن التشبيه، فالذي يقول: رأيت أسداً، أبلغ من الذي يقول: محمد كالأسد...، ومعنى الأندعية هنا: أن أسلوب الاستعارة قد أدد زيادة في أصل المعنى وهو الشجاعة، على المعنى الذي يؤدبه أسلوب التشبيه، لما هو معروف من أن الشجاعة - مثلاً - تنفوت، فهي في شخص أقوى منها في شخص آخر، وكذلك بقية الصفات، كاخود ولمساء، وما شاكلها.

وهكذا الشأن في بقية أنواع المجاز بالنسبة إلى الحقيقة، وفي الكناية بالنسبة إلى التصريح، تكون الألفية في طريقة الإثبات للمعنى نفسه، حينما يتساوى اللفظان في القوة.

أما إذا لم يتساو اللفظان في القوة فإن الألفية تكون في ذات المعنى وفي أصل الدلالة، لأن التعديت أمر فطري لا يمارى فيه إنسان^(٢).

(١) الدلائل ٥٤

(٢) البلاغة التطبيقية ٢٧٣

كنايات أنكرتها البيئة

الكناية أساسها: لفظ أطلق وأريد به لا زم معناه، يقول الشاعر في صفة راعي الإبل:

ضعيفُ العصا، يَأْدِي العروقُ تَرَى له إذا ما أجْدَبَ السَّامُ إصْبَعَا
فوصف الراعي بأنه «ضعيف العصا» كناية عن أنه رقيق سهل مشفق عليها، فلا يوجعها بالصرب بلا فائدة

بها أمر: «ضعف العصا» والرفق بها والإشفق عليها، والاول ملزوم والثاني لازم.

والكناية بهذه الصورة من مظهر الطبيعة الرغوية، فلا تلقى إلا في وسط البودي، أو سوق المواشي

وقد كان الكرم في الماضي من أهم مظاهره الإطعام، وغشيان الدور، يقول الشاعر:

وما يَكُ في من عيبٍ فإنَّ جانَّ الكلبِ مهزولُ الفصيل
كفى عن كرمه يكابيس

١ - كثرة قصادة وزواره، فلا ينزع كله زئراً، ولا يباحم قادماً

٢ - تعذب القرى لصيفاه من لين نيته، ويذبح منها قيطعهم ويحرم الفصيل لين أمه، أو بحرمه أمه فيحوج ويضعف، وكان ذلك من دلائل الكرم.

وفي المعنى نفسه يقول المرار بن مقعد:

لا تَرَى كَلْبِي إِلَّا أَيْساً إِنَّ أُنَى حَابِطِ نَيْلٍ لَمْ يَتَرَّ^(١)

(١) عرب الكلاب يبحث

ويقول آخر

يَكَادُ إِذَا مَا انْصَرَّ الضَّيْفُ مَقْبَلًا يَكْلُمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ اعْجَمٌ

ويقول حسام ابن ثابت يعتخر بكرم قومه :

لَنَا الْجَمَنَاتُ الْفُرُ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقَطُرُونَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا

فضخامة الجفنة كناية عن الكرم.

وقال السامة الذيبان :

رَقِيقُ النِّعَالِ طَيِّتٌ حُجُزَتِهِمْ يُجَيِّزُ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّيَاسِ^(١)

فرقة النعال : كناية عن الترف، فهم لا يحتاجون لخصف نعالهم، لأنهم قنبا يمشون، ولا طيب حجازتهم كناية عن العفة، أى يشدون أزهرهم على عفة.

وقالت الخنساء في أحبها صحر.

رَفِيعُ الْعِمَادِ طَوِيلُ النِّجَا د سَادَ عَشِيرَتِهِ أَمْرَدًا^(٢)

طول النجاد : كناية عن طول القامة، وقلبا نجد حمالة السيف الآن، ومثله قول دريد بن الصمة يرنى أحياه عبد الله :

كَمِشَّ الْإِزَارِ خَارِجَ نَصْفِ سَاقِهِ بَعِيدٌ عَنِ الْآفَاتِ، طَلَّاعٌ أَنْجَدٌ^(٣)

مالشطر الأول كناية عن الشاط والجد.

وقول الحجاج في إحدى خطبه : والله ما يُقَعِّقُ لِي بِالشَّوَارِ وَلِشَانِ الْقَرَبِ الصَّغِيرَةِ وَهُوَ كَنَايَةٌ عَنْ شَجَاعَتِهِ وَعَدَمِ خَوْفِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ : أَلْقَى عَصَا الشَّيَارِ، صَرَتْ أَبَاطُ الْإِبِلِ، فَلَانِ يَشْكُو قَلَّةَ الْجُرْدَانِ.

فكل تلك الكدبات لا تُحَسُّ ما فيها من المدح أو الدلالة على الاستقرار،

(١) الحجرة. جمع شد الإزار والبرويل عن الجسم، الساس يوم الشهاب، وهو عيد النصرى

(٢) النجاد حمائل السيف

(٣) طلاع أنجد. ركاب مصابة الأمورة والأبحد : جمع نجد وهو ما أرفع وغبط من الأرض

أو السرعة، أو المقر في عصرنا الحاضر، لأنها كنايةات مضي زمن دلالتها، ولم تعد الأذواق الآن تستسيغ استعمالها، ولم تبق دلالتها على تلك المعاني إلا نقلا وحفظاً وتقليداً.

وهناك كنايةات خالدة واصحة الدلالة في كل وقت لبائها على شيء طبيعي، لا يكاد يختلف باختلاف العصور كما ترى في كنايةات من القرآن الكريم، أمثال :

قوله تعالى (ويوم يعص العدم على يديه بقول يا لئيلي اتخذت مع الرسول سبيلاً) (الفرقان ٢٧).

وقوله (وأحيط شمره فاصح يقب كفيه عن ما ألق بها وهي حاوية على عروشها) (الكهف ٤٢).

فهاتان كنايةتان عن الدم.

وقوله : (وإن يكاد الذين كفروا ليرلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر) (ن ٥١)

كناية عن نظرهم إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - نظراً يدل على العداوة والحقد.

وقوله (ولم يخاف مقدم ربه حسد فيهم فاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) (الرحمن ٤٦-٥٦).

فحصر الطرف كناية عن العفة وأمن لا يتطلعن لغير أزواجهن.

ولهذا نجد الفرق الواضح والبعد الشاسع بين كنايةات القرآن الكريم وغيرها، وصدق الله العظيم : (تزل به الروح الأمين، عن قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين) (الشعراء ١٩٣-١٩٥).

المراجع

أولاً : القرآن الكريم :

ثانياً

١ - أسرار البلاغة

٢ - أسرار البلاغة

٣ - أثر القرآن الكريم في اللغة العربية

٤ - ابن حزم حياته وعصره

٥ - أمالي المرتضى

٦ - أسس النقد الأدبي عند العرب

٧ - الإيمان

٨ - أسرار البيان

٩ - أحبار أبي تمام

١٠ - الإشارة إلى الإجماع

١١ - الإيضاح

١٢ - إعراب القرآن

١٣ - الإيضاح في شرح مقامات الحريري

١٤ - أنوار الربيع في أنواع البديع

١٥ - أصول النقد الأدبي

١٦ - أثر القرآن في تطور النقد العربي

١٧ - الإيقاع

١٨ - المدن والنجار

١٩ - البرهان في وجوه البيان

عبد القادر الجرجاني ط الماز

عبد لقادر الجرجاني - تحقيق هدموت ريتز

ط استامبول ١٩٥٤م

الشيخ أحمد الباقوري

للشيخ محمد أبو زهرة

للشريف المرتضى

د. أحمد بدوي

لابن نجمة - مشورات المكتب الإسلامي

دمشق

د. علي لعمري

لنصوص

دمرس عبد السلام

دمروبي

دمسوت مرجح

دمطري

لابن معصوم المدني، تحقيق شاكر هادي

ط بغداد

للأستاذ أحمد الشايب

د. محمد زعبول سلام

للسوطي

دمحافظ ط هارون

لابن وهب

٢٠ - البيان لعربي

٢١ - البديع

٢٢ - المحر لمحيط

٢٣ - البلاغة عند السكاكي

٢٤ - البرهان في علوم القرآن

٢٥ - البلاغة نظور وتاريخ

٢٦ - البلاغة نشأتها وتطورها

٢٧ - بلاغة الطبيعة

٢٨ - بلاغة القرآن في آسار الفصيح

عبد الحار

٢٩ - بديع القرآن

٣٠ - بعية الإيضاح

٣١ - بلاغة أرسطو بين العرب واليونان

٣٢ - تنزيه القرآن عن المظاهر

٣٣ - توير الميائس من تفسير ابن عباس

٣٤ - تأويل مختلف الحديث

٣٥ - تحرير التحرير

٣٦ - تأويل مشكل القرآن

٣٧ - التصوير الفني في القرآن

٣٨ - التوجيه الأدبي

٣٩ - تفسير السفي

٤٠ - تفسير أبو السعود

٤١ - محصن أبي

٤٢ - محصن محم

٤٣ - الحبان في تشبهات القرآن

٤٤ - الجامع الكبير

٤٥ - حاشية الشريف علي المظول

٤٦ - حاشية الدسوقي ضمن شروح الطحطاوي

د. طه

لابن المعتز تحقيق د. حمدي

لابن حبان

د. أحمد مطلوب ط بغداد

بنزركشي

د. شوقي صيف

د. حمدي شرف

د. أحمد موسى

د. عبد الفتاح لاشين - ط دار الفكر

العربي

لابن أبي الإصبع تحقيق د. حمدي شرف

للشيخ عبد المتعال الصعدي

د. إبراهيم سلامة

دمصفي عبد حار

ط الاستفادة ١٩٦٠ القاهرة

لابن قس

لاس أن لإصبع تحقيق د. حمدي شرف

لاس قس

لمسد قص

لأحمد أمين، حرب

للشريف لوصي

لابن القيم تحقيق محمد حامد لعفس

ط مكة المكرمة

لابن نايف لبعادي ط الكويت

لابن الأثير تحقيق د. مصطفى جواد،

د. جميل سعيد

للشريف لمسد

- ٤٧ - الحيوان
٤٨ - حلية المحاضرة
٤٩ - حقائق البحر
٥٠ - غزاة الأدب
٥١ - غزاة الأدب
٥٢ - الخصائص
٥٣ - مخطوطات التفسير البياني
٥٤ - دلائل الإعجاز
٥٥ - ديوان المعاني
٥٦ - دراسات في الأدب المقارن
٥٧ - دراسات في علم النفس الأدبي
٥٨ - ديوان أبي تمام شرح التبريزي
٥٩ - ديوان ابن زيدون
٦٠ - ديوان المتنبي شرح العكبري
٦١ - ديوان البحترى
٦٢ - ديوان امرئ القيس
٦٣ - الرسالة الموضحة
٦٤ - الزمخشري
٦٥ - سر القصص
٦٦ - شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون
٦٧ - شروح التلخيص
٦٨ - شرح الأشمون على ألفية ابن مالك
٦٩ - الشعر والشعراء
٧٠ - شرح الأصول الخمسة
٧١ - الصحاح
٧٢ - الصناعات
- للجاحظ ط السامى وهارون
للحاتمى د. جعفر الكتاني ط بغداد
للوطواط ترجمة الدكتور الشواربي
للبيгдаوى
لابن حجة الحموى
لابن جنى
د. محمد رجب البيرونى ط مجمع البحوث الإسلامية
للإمام عبدالقاهر ط المنار
لأبي هلال العسكري
د. محمد عبدالمنعم خفاجي
حامد عبدالقادر
ط دار المعارف
ط بيروت
ط الحلبي، أمين هندية
تحقيق الصيرفي
للخاتمي د. محمد يوسف نجم ط بيروت
د. أحمد الخوفي
لابن سنان تحقيق الشيخ عبدالمنعم الصميدى
لابن نباته ط الأميرة المصرية ١٢٧٨ هـ
تحقيق الشيخ محمد محبى الدين ط الحلبي
لابن قتيبة
عبدالقادر الجرجاني ط المنار
للجوهرى
لأبي هلال العسكري ط استامبول

- ٧٣ - الصبح المنى عن حشية المتنبي
٧٤ - الصور البيانية
٧٥ - الصور البديعة
٧٦ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغى
٧٧ - الطراز
٧٨ - العقد الفريد
٧٩ - الممددة
٨٠ - علي ابن الجهم - حياته وشعره
٨١ - علم البيان
٨٢ - فن التشبيه
٨٣ - في النقد الأدبي
٨٤ - في البلاغة العربية
٨٥ - قواعد الشعر
٨٦ - القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية
٨٧ - القزويني وشروح التلخيص
٨٨ - القرآن بين الحقيقة والمجاز
٨٩ - قصص العرب
٩٠ - الكامل
٩١ - الكتاب
٩٢ - الكشف
٩٣ - الكنايات
٩٤ - المثل السائر
٩٥ - مفتاح العلوم
٩٦ - المطول
٩٧ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء
٩٨ - من بلاغة القرآن
٩٩ - الموازنة بين الشعراء
- للشيخ يوسف البديعى ط دار المعارف
د. حقي شرف
د. حقي شرف
د. جابر عصفور
للعلوى ط دار الكتب
لابن هديره
لابن رشيق ط أمير هندية
عبدالرحمن الباشا ط دار المعارف
للشيخ عثمان أبو النصر
د. حل الجندى
د. شوقي ضيف
د. رجاء عيد
لثعلب
د. عبدالعال سالم مكرم
د. أحمد مطلوب
محمد عبدالغنى حسن
عل الجاوى وآخرين
للمبرد ط المعهد الجديد
لسيبويه
للزحشرى
لثعلبى
لابن الأثير تحقيق د. الخوف وطبانه
للسكاكى
لنفتازان ط استامبول
لحازم القرطاجنى تحقيق بن الخوجعه
ط تونس
د. أحمد بدوى
د. زكى مبارك

- ١٠٠ - مختارات الشعر الجاهلي
 ١٠١ - مسائل الرازي وأجوبتها
 ١٠٢ - مباحث في إعجاز القرآن
 ١٠٣ - معجم البلاغة العربية
 ١٠٤ - من أسرار التعبير في القرآن (بناء التراكيب)
 ١٠٥ - المواهب الفتحية
 ١٠٦ - مجالس ثعلب
 ١٠٧ - معاني القرآن
 ١٠٨ - الموازنة
 ١٠٩ - مجاز القرآن
 ١١٠ - مناهج تجديد
 ١١١ - مقدمة بديع القرآن
 ١١٢ - المعاني في ضوء أساليب القرآن
 ١١٣ - المغنى في إعجاز القرآن
 ١١٤ - متشابه القرآن
 ١١٥ - المفضليات
 ١١٦ - مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص لأبي يعقوب المغربي
 ١١٧ - محاضرات في البيان العربي
 ١١٨ - المعلقات
 ١١٩ - مقدمة شرح المرزوقي للحماسة أبي تمام
 ١٢٠ - مذكرة البلاغة
 ١٢١ - المنتخب من كتابات الأدباء
 ١٢٢ - مشاهد الإنصاف على شواهد الكشف
 ١٢٣ - مقدمة ديوان عبد الرحمن شكري
 ١٢٤ - مقدمة شرح المرزوقي للحماسة
 ١٢٥ - النهاية في غريب الحديث والأثر
- مصطفى السقا
 لمحمد بن أبي بكر الرازي تحقيق إبراهيم عطوة
 د. أحمد العمري
 د. بدوي طيانه ط ليبيا
 د. عبدالفتاح لاشين ط الرياض - دار المرجع
 للشيخ حمزة فتح الله
 للفراء
 للامدى تحقيق أحمد صقر
 لأبي عبيدة - تحقيق شريكين
 أمين الخولي
 د - حفي شرف
 د - عبد الفتاح لاشين ط دار المعارف
 للقاضي عبد الجبار
 للقاضي عبد الجبار
 لأبي العباس الضبي
 - مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص لأبي يعقوب المغربي
 د - يوسف البيومي
 للزوزن
 - مقدمة شرح المرزوقي للحماسة أبي تمام
 الشيخ حامد عوف
 لأبي العباس الجرجاني
 للشيخ محمد عليان

- ١٢٦ - التكت في إعجاز القرآن
 ١٢٧ - نزهة الألبا في طبقات الأدباء
 ١٢٨ - نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز
 ١٢٩ - نهاية الأرب
 ١٣٠ - نهاية الإيجاز
 ١٣١ - النقائص
 ١٣٢ - نقد الشعر
 ١٣٣ - النهاية في فن الكتابة
 ١٣٤ - التبا العظيم
 ١٣٥ - وفيات الأعيان
 ١٣٦ - الوساطة
 ١٣٧ - لسان العرب
 ١٣٨ - يتيمة الدهر
- ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن
 للرماني تحقيق محمد خلف الله
 لابن الأنباري - ط جمعية إحياء آثار علماء العرب
 للرازي
 للنويري
 للفخر الرازي
 لأبي عبيدة - ط بغداد
 لقدامة - تحقيق كمال مصطفى نشر الخانجي
 للشعالبي
 د - محمد عبد الله دارز - ط الكويت
 لابن خلكان
 للقاضي الجرجاني
 لابن منظور
 للشعالبي

١١٩	التشبيه غير المقبول
١٢٥	التشبيه حقيقة أم مجاز؟

الباب الثاني : المجاز

١٢٩	لمحة عن تطور لفظ «المجاز»
١٣٣	إنكار المجاز
١٣٥	الخلافا بين المثبتين للمجاز
١٣٩	أقسام المجاز
١٤١	المجاز المرسل - وعلاقاته
١٥٥	بلاغة المجاز المرسل
١٥٨	الاستعارة
١٥٨	لمحة عن تطور لفظ «الاستعارة»
١٦١	معنى الاستعارة (الاستعارة الأصلية والمكنية)
١٦٤	الاستعارة التصريحية «أصلية وتبعية»
١٦٥	أمثلة للاستعارة الأصلية
١٦٧	أمثلة للاستعارة التبعية - في الأفعال، والمشتقات، والحروف
١٧٨	الاستعارة العنادية والوفاقية
١٧٩	الاستعارة التهكمية
١٨١	الاستعارة المرشحة، والمجردة، والمطلقة
١٨٥	الاستعارة التمثيلية
١٩٠	التمثيل تسمية لقدامة
١٩١	بلاغة الاستعارة
٢٠١	طابع التصوير في الجاهلية
٢٠٥	الاستعارة العامة والخاصة
٢١١	الاستعارة المكنية
٢٢٢	الاستعارة المكنية أقوى في تأكيد المعنى

فهرس الموضوعات

صفحة

٣	مقدمة الطبعة الثانية
٥	مقدمة الطبعة الأولى
٧	تمهيد
٧	لمحة عن تطور مصطلح «علم البيان»
١٤	سبب إقحام الدلالات في علم البيان
١٦	مكانة التشبيه من علم البيان
١٨	تعريف علم البيان

الباب الأول : التشبيه

٢٣	التشبيه عند القدماء والمتأخرين
٢٤	التشبيه والتمثيل
٣٤	(أ) معنى التشبيه
٤٠	طرق التشبيه من حيث المحسوس والمعتق
٥٢	(ب) معنى تشبيه التمثيل
٥٩	تأثير تشبيه التمثيل وصلته بالنفس
٦٧	اختلاف الأذواق في قبول التشبيه وخلود تشبيهات القرآن
٧٨	أغراض التشبيه
٨٧	التشبيه المبذل والتشبيه الغريب
٩٥	تحويل التشبيه القريب إلى تشبيه غريب
٩٧	التشبيه المقلوب
١٠٢	التشبيه الضمني
١٠٦	مكان التشبيه من البلاغة

صفحة

٢٢٣	الاستعارة التبعية ترد إلى المكنية
٢٢٤	الاستعارة الفاضلة والمأبظة
٢٣٧	الاستعارة غير المقيدة
٢٤٠	استعارات لا تنسيفها البيئة
٢٤٣	الإسراف في صور البيان
٢٤٥	الفرق بين التشبيه والاستعارة

الباب الثالث : الكناية

٢٤٧	لمحة عن تطور لفظ « الكناية »
٢٥٤	معنى الكناية
٢٦٥	الكناية وعلم النفس
٢٦٧	أقسام الكناية
٢٧٢	التعريض
٢٧٨	الفرق بين التعريض والكناية
٢٧٩	بلاغة الكناية والتعريض
٢٨٢	المجاز أبلغ من الحقيقة
٢٨٥	كنايات أنكرتها البيئة
٢٨٨	المراجع

٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥

١٠ مايو ٢٠٠٩

١٤ أبريل ٢٠٠٨

١٥ مايو ٢٠٠٨

٩ - يناير ٢٠٠٨

www.mpl.org.eg

AMMAN PUBLIC LIBRARY

مكتبة عمان العامة

